الشَيخ حَسَن طرَاد

فلسفة الصلاة في الاسلام

دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

فلسفة الصلاة
في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ حسن طراد

فلسفة الصلاة في الإسلام

دار الزهراء (ع)
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

وقع المشروع في ٤/١٠/١٩٩٩م

الموافق ٢٤/٦/١٤٢٠هـ

تقديم وتمهيد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه نستعين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجَبين وبعد

قال الله سبحانه في محكم كتابه المجيد مخاطباً نبيه محمدا ﷺ :

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[4].

وفي الفقيه روي عن النبي ﷺ :

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١ ـ ٩.

«**ما من صلاة يحضر وقتها إلا نادى ملَك بين يدَي الناس: أيها الناس قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها على ظهوركم فأطفئوها بصلاتكم**»[١].

وفي الفقيه أيضاً: ودخل رسولُ الله ﷺ المسجدَ وفيه ناسٌ من أصحابه فقال:

«**تدرون ما قال ربكم؟**».

قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال:

«**يقول: إن هذه الصلواتِ الخمسَ المفروضاتِ مَن صلاَّهن لوقتهن وحافظ عليهن لقيني يوم القيامة وله عندي عهد أدخله به الجنة ومَن لم يصلِّهنَّ لوقتهن ولم يحافظ عليهن فذاك إليَّ إن شئتُ عذبتهُ وإن شئت غفرت له**»[٢].

وقال ﷺ: «**إنما مثلُ الصلاة مثل عمود الفسطاط إذا ثبت العمودُ ثبت الأطنابُ والأوتادُ والغشاءُ وإذا انكسر العمودُ لم ينفع طنب ولا وَتد ولا غشاء**»[٣].

وقال ﷺ: «**إن مثلَ الصلاة فيكم كمثل السري**، ـ وهو النهر ـ **على باب أحدكم يخرج إليه في اليوم والليلة يغتسل منه خمس مرات فلم يبق الدرنُ على الغسل خمسَ مرات ولم تبق الذنوبُ على الصلاة خمسَ مرات**»[٤].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «أولُ ما يحاسَبُ به العبدُ عن الصلاة فإذا قُبلت منه قُبِل منه سائر عمله وإذا رُدَّت عليه رُدَّ عليه سائر عمله»[٥].

وقال الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام: «الصلاة قربان كل تقي»[٦].

صدق الله العلي العظيم ورسوله الكريم وأهل بيته عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

---

(١) المحجة البيضاء ج١ ص٣٣٩ ط طهران.

(٢) (٣) (٤) (٥) (٦) ج١ من المحجة البيضاء ص٣٣٩.

إن قليلاً من التأمُّل في مضامين الآيات الكريمة السابقة والروايات المباركة، يوحي للإنسان المؤمن الواعي بما لفريضة الصلاة من الأهمية البالغة، والمرتبة العالية بين الفرائض الإسلامية، في نظر التشريع الإسلامي الخالد ومشرّعه الإله الأعظم سبحانه وتعالى ورسوله الأكرم ﷺ، وأهل بيته الطاهرين، وتتجلى هذه الأهمية وتبرز بوضوح على ضوء محتوى بعض الآيات والروايات المذكورة.

فمن الأولى قوله تعالى في أوائل سورة المؤمنون: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[1] بعد بيان دور الصلاة وتأثيرها في خشوع القلب حال وقوف المؤمن المصلي بين يدَي الرب ورتب على هذا الخشوع الإعراض عن اللغو المُبعد عن الرحمة الإلهية، وفعلَه للزكاة المقرِّبة منها والمسببة لها، وذلك بقوله تعالى أولاً في أول السورة المباركة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ﴾[2].

ومن الآيات السابقة اللافتة إلى هذه الأهمية بأسلوب واضح قوله تعالى في أول سورة البقرة في مقام وصفه للمتقين السائرين على هدى القرآن الكريم:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[3].

حيث يستفاد من ترتيب إقامة الصلاة وحصولها من المتقين بالكيفية المطلوبة، والغاية المرغوبة، على إيمانهم بالغيب أنَّ إقامتها كذلك لها وزنها عند السماء، ومنزلتها المرموقة عند مشرِّعها الأعظم سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٩.

(٢) سورة المؤمنون، الآيات: ١ ـ ٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣.

ومن الثانية - أي من الروايات - الرواية التي شبَّه فيها الرسولُ ﷺ فريضة الصلاة بعمود الفسطاط ومثلُها قول الإمام علي عليه السلام في آخر وصية له قبل استشهاده: **«اللّهَ اللّهَ في الصلاة فإنَّها عمودُ دينكم»**[(١)].

ومن أجل توضيح هذه الأهمية لفريضة الصلاة، وتلك الفاعلية المترتبة على إقامتها في حياة الإنسان فرداً ومجتمعاً دنياً وآخرة لا بد من تقديم كلمةٍ أوضحُ فيها أهمية الدين بصورة عامة، ودوره الفعال في حياة البشرية ومدى حاجتها إليه وارتباط تقدُّمها وسعادتها بالالتزام به عقيدةً وإيماناً وتطبيق شريعته العادلة الكاملة عملاً وممارسة.

وبذلك يظهر الوجه في تلك الأهمية التي تميزت بها الصلاةُ عن غيرها من فروع الدين المعهودة، وأركانه الثابتة فأقول:

إن حاجةَ البشرية إلى الارتباط بالدين السماوي الكامل العادل وتقيدها بأصوله إيماناً راسخاً وبفروعه - عملاً وتطبيقاً - قويةٌ وملحّةٌ لا تقل عن حاجتها إلى تناول الطعام وشرب الماء واستنشاق الهواء بلحاظ الجانب المعنوي الإنساني الذي هو سر وجودها معنوياً وتقدُّمها إنسانياً، ويظهر ذلك جلياً بعد الالتفات إلى العنصر الثاني الذي يتألفُ الإنسان منه، ومن العنصر المادي الحيواني باعتبار كونه حيواناً ناطقاً.

فكما أنه يحتاج بلحاظ عنصره الحيواني المادي إلى كل ما تحتاجه الفصائلُ الحيوانيةُ من الطعام والشراب والهواء والحرارة ونحو ذلك من حاجات الجانب المادي، وقد أودع اللّهُ سبحانه بحكمته ورحمته فيه الغرائزَ الطبيعية التي تضغطُ عليه، وتدفعه ليتحرك غريزياً في سبيل تحصيل تلك الحاجات الضرورية من أجل حفظ حياته المادية الحيوانية وسلامته من خطر الفناء والزوال.

---

(١) نهج البلاغة الكتاب ٢٤٧.

كذلك هو ـ أي الإنسان ـ يحتاج بلحاظ جانبه المعنوي إلى الغذاء والشراب والهواء، ونحو ذلك من الحاجات الضرورية التي يتوقف عليها حفظ وجوده الإنساني، وعدم تعرضه للفناء والموت المعنوي، وقد أودع اللّهُ فيه غريزةَ الفطرة التي تثير فيه جوعَ الروح وظمأ النفس إلى الغذاء والشراب المناسب لعنصره المعنوي، من أجل أن تدفعَه فطرياً وتحركه في سبيل إشباع جوعه وإزالة ظمائه الروحي والفكري بتناول الغذاء المعنوي وشرب الماء الروحي المناسب لعنصره الإنساني وكيانه المعنوي.

وهكذا يطرأ على العنصر المعنوي الداء النفسي والروحي فيحتاج إلى الأطباء الروحيين والدواء المعنوي من أجل معالجة وإزالة مرضه المعنوي.

والغذاء الذي يحتاجه الجانب المعنوي من كيان الإنسان الشامل للعقل والقلب والنفس والروح والعاطفة، هو المعرفة الصحيحة والاطلاع الواعي على مصدر الوجود وغاية الإيجاد لهذا الكون بما فيه الإنسان والنهج القويم الموصل إليها والنهاية التي تقف عند شاطئها سفينة الحياة البشرية.

وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تزرع في الطبيعة البشرية غريزة حب المعرفة التي تدفع صاحبها للبحث عن الحقيقة مع غريزة فطرة التديُّن التي تثير الشعور العميق والإحساس الفطري السليم بوجود قوة غيبية وراء هذا الكون هي مصدر وجوده المسيطرة عليه والقادرة على التصرف به كيفما تشاء.

والشاهد المحسوس على وجود فطرة حب المعرفة في الطبيعة الإنسانية هو ما نراه بالوجدان من كثرة الأسئلة التي يطرحها الطفل أولَ ما يفتحُ عينَ عقله على نور الوعي حيث يسألُ عن مصدر وجود أكثر الأشياء التي يدرك حدوث وجودها بعد عدمها وإذا فقدت بعد الوجود يسأل عن سبب عدمها وهكذا.

والشاهد الآخر على وجود فطرة التديُّن في الطبيعة البشرية هو تعليل الإنسان لوجود هذا الكون، بعلة غيبية هي وراء وجوده وسبب إيجاده وذلك

عندما يكون على حالة سلامة في فطرته وصفاء في طبيعته ولم يطرأ على عينها رمد الشبهات التي تجول في ذهنه نتيجة سوء التربية والتقليد الأعمى.

وقد أشار الله سبحانه إلى ما ينطق به صاحب الفطرة السليمة عندما يُطرح عليه السؤال عن سبب الخلق والإيجاد بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[1].

وتبرز فطرة التديُّن على واقعها حين إصابة الإنسان بشدة شديدة تثير في نفسه الخوف من الهلاك أو الوقوع في البلاء الخطير فهو يُحس فطرياً وبشكل عفوي بأن هناك قوةً غيبية قادرة على إنقاذه كما إذا تعرض إلى خطر الغرق في البحر أو النهر أو نحوهما حيث يلجأ فطرياً إلى تلك القوة الغيبية، ويدل على ذلك بوضوح وجلاء قوله تعالى متحدثاً عن الكفار المشكِّكين في وجوده سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[2].

ونقل السيد شبر في كتابه الحق اليقين الجزء الأول صفحة ٨ قصةً حاصلها أن رجلاً سأل الإمام الصادق عليه السلام عن الله سبحانه فقال للسائل:

«يا عبد الله هل ركبتَ السفينةَ قط؟».

قال: بلى، قال عليه السلام: «هل كُسرت بك حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك؟»

قال: بلى.

قال عليه السلام: «هل تعلق قلبك هناك أن شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك؟».

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦١.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٢.

قال: بلى، قال الإمام الصادق عليه السلام: «فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث»(١).

وفي الكافي عن هشام بن سالم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت: «فطرة الله التي فطر الناس عليها؟»(٢) قال عليه السلام: «**التوحيد**».

وقد اشتهر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «**كل مولود يولد على الفطرة**» يعني على المعرفة بأن الله خالقه فذلك قوله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(٣).

وخلق غريزة حب المعرفة والاطلاع وغريزة التديُّن والانجذاب الفطري إلى القوة الغيبية الخالقة المدبِّرة، هو مقتضى الحكمة الإلهية التي خلقت في الكيان البشري غرائز أخرى تساهم في حفظ حياته وصونها من الهلاك كغريزة الجوع والعطش، وفي استمرار النوع كغريزة الجنس، وفي الدفاع عن الوجود والكيان كغريزة الغضب، وفي الجد والعمل والكسب والعمران كغريزة الحرص وطول الأمل وهكذا.

ومن المعلوم أن وجود هذه الغرائز في الطبيعة البشرية كوجود أنواع النبات في حقل الحياة حيث أنها لا تنمو وتسير بتوازن في درب الغاية التي خُلقت من أجلها إلا إذا غُذِّيت بما يناسبها وينسجم معها من التشريع الحكيم العادل الصادر من المشرِّع العادل الحكيم العالِم بطبيعة الكائن المشرَّع له وبما يناسبه من التقنين، وهذا مقصور على الله سبحانه لأنه وحده العالِم بحقيقة الأشياء وطبيعتها، وبما يصلح لها ويُصلحها من التشريعات كما يعلم بما يناسب سائر الكائنات الحية من الغذاء المنمي والشراب المروي والهواء

---

(١) الحق اليقين: ج١، ص٨.

(٢) نفس المصدر: ص٩.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٥.

المنعش، وذلك هو السر في التطابق والانسجام بين الشريعة السماوية والطبيعة البشرية حيث تعطي لكل غريزة فيها حقها من التشريع المناسب لها فلا تكبتها بوضع التشريع المصطدم معها، كما لا تهملها وتتركها بدون تشريع ينظمها ويسير بها في درب الاعتدال والتوازن لأن كلا الفرضين لا ينسجم مع الحكمة الإلهية والرحمة السماوية البارزتين بوضوح في كل مخلوقاته وتشريعاته سبحانه، ولذلك عبّر عن التشريع السماوي بأنه دين الفطرة في آيات الكتاب الكريم، وسنّة النبي العظيم ﷺ وكلمات أهل البيت الطاهرين عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

قال سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وقد مرّ التعبير في الحديث النبوي عن الدين بأنه دين الفطرة، وبذلك عبّر عنه في كلمات أهل البيت عليهم السلام، والسائرين على نهجهم من التابعين لهم بإيمان وإحسان.

وذلك هو السر في إقبال الناس عليه ودخولهم فيه أفواجاً بعد ظهور حقيقته لدى الكثيرين.

وحيث جاء خاتماً للشرائع السابقة على يد خاتم النبيين وسيد المرسَلين فقد اشتمل على جميع ما تحتاجه البشرية من جميع الجهات، وفي مختلف المجالات لذلك تجد فيه لكل موضوع حكماً ولكل مشكلة حلاً ولكل حاجة قضاء وإنعاشا.

وذلك هو مقتضى صدوره من الإله المشرِّع الحكيم العادل المطَّلِع على واقع الطبيعة البشرية وما تحتاج إليه من النظم التكوينية والتشريعية.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

ويؤيد هذه الحقيقة الإيمانية الموضوعية، ترتب محذور ديني على وجود فراغ في نطاق التشريع السماوي بأن تكون هناك ناحية من نواحي الحياة البشرية مهملة غير ملحوظة بعين الاعتبار التشريعي، وذلك يقتضي احتياج البشر إلى استجداء القانون الأرضي من أجل تطبيقه في منطقة الفراغ، وفي ذلك محذوران:

الأول: لزوم النقص في التشريع السماوي وهذا كالنقص في الخلق والإيجاد من الناحية التكوينية من حيث امتناع اتصاف الذات الإلهية بهما لأنها كاملة بالكمال المطلق فلا يعقل اتصافها، ولا يجوز وصفها بما ينافيه كما هو واضح وخصوصاً بعد ملاحظة قوله سبحانه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

الثاني: لزوم حصول الإطاعة والانقياد لواضع ذلك القانون البشري وهو نوع من العبادة له المحرَّمة شرعاً لاقتضائها الشرك والإشراك في العبادة وهو ظلم عظيم كما عبّر عنه الله سبحانه في كتابه الكريم.

وهذا البيان يُعتبر إشارة إجمالية خاطفة لأهمية الدين ومدى حاجة البشرية إلى الالتزام به عقيدة وعملاً لأنه وحده الذي يلبّي نداء الفطرة البشرية ويتجاوب مع الطبيعة الإنسانية.

ومن أجل تقديم المزيد من التوضيح لذلك نقول:

إن أبرز حاجة فطرية يقضيها الدين الإسلامي للإنسان في هذه الحياة، هي كشفه الحيرة والتردُّد الذي يقتضي بطبيعته طرح الأسئلة السابقة التي تنطلق بلسان حال كل إنسان مدرك وهي كما يلي:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

مَن الذي أوجد هذا الكون ولماذا أوجده؟ ومن الذي خلق الإنسان ولماذا خُلِق؟ وما هو الطريق والوسيلة المساعدة على تحقيق الهدف الذي خُلِق من أجله؟ وما هو مصير الإنسان بعد مغادرته هذه الحياة وهل هو الحياة، من جديد، ولماذا هذه العودة إلى الحياة الجديدة؟ أو أن المصير هو العدم المطلق والعودة إلى التراب كما خُلِق منه فلا حساب ولا ثواب ولا عقاب؟

وهناك أسئلة أخرى وتساؤلات عديدة تسببها الحيرة وعدم حصول المعرفة الصحيحة المنتجة للعقيدة الثابتة التي تنير العقل بضوء الهدى والرشاد وتدفع صاحبها للسير في طريق الفضيلة والاستقامة المؤدية للكمال والسعادة في الدنيا والآخرة.

والدين السماوي العادل الكامل هو وحده الذي يبدّد ظلمة هذه الحيرة ويُجيب على تلك الأسئلة بالأجوبة المنطقية المفيدة لأنه مُنزَل من قِبَل الإلَه العليم الحكيم المبدِع لهذا الكون بما فيه الإنسان والعالم بما يُصلحه ويَصلح له من النظام والتشريع المنسجم مع فطرته والمتجاوب مع طبيعته والمحقق لكل ما يصبو إليه ويرغَب فيه من تقدُّم ورفعة واستقرار وسعادة باعتبار أن الله سبحانه قد خلق الإنسان للخلود لا للفناء، وللسعادة لا للشقاء، كما هو مقتضى حكمته البالغة ورحمته الواسعة.

ولذلك شرّع له النظام الذي يحقق له تلك السعادة إذا طبقه والتزم بنهجه عقيدة وسلوكاً، والموت في واقعه رحلة قهرية مقدَّرة له ومكتوبة عليه من أجل أن ينتقل بها إلى الدار الأخرى التي خُلق من أجلها، وذلك لينال فيها جزاءه العادل، وهو النعيم الدائم والسعادة الخالدة مع رضوان من الله أكبر، إذا حقق الهدف الذي خلقه الله من أجله وهو عبادته وحده لا شريك له.

وإذا انحرف عن نهج العبادة ولم يحقق تلك الغاية كان جزاؤه عكس الجزاء المذكور المعد للمؤمن العابد لله سبحانه، المحقق لغاية وجوده.

قال سبحانه: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾[1].

وإذا لاحظنا ما يترتّب على الالتزام بنهج السماء، من التقدُّم والسعادة في هذه الحياة وقبل الانتقال إلى دار الخلود، ندرك جيداً أن الجزاء الإيجابي المترتب على استقامة الإنسان في طريق عبادة الرحمٰن ليس مقصوراً على الدار الآخرة ونعيمها بل هو ثابت له هنا قبل أن ينتقل لينال جزاءه الأوفى هناك.

وقد صرّح الله سبحانه بذلك في أكثر من آية من آيات كتابه الكريم، منها قوله تعالى:

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[2].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[4].

وقد نظمت مضمون هذه السورة المباركة بالأبيات التالية وهي:

والعصر إن المرء في خسران ... وشقاوة ومذلّة وهوان

إلا الأولى عرفوا الإلَهَ وطبقوا ... نهجَ الهدى وشريعةَ القرآن

وغداً يوصي بعضُهم بعضاً هنا ... بالحقّ والصبر الجميل الباني

وتظهر هذه الحقيقة الموضوعية بملاحظة ما كانت عليه الأمة العربية قبل

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ و٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٣) سورة الطلاق، الآيتان: ٢ و٣.

(٤) سورة العصر، الآيات: ١ ــ ٣.

بزوغ فجر الرسالة الإسلامية في أفق الجزيرة العربية، من التفسُّخ الاجتماعي والانهيار الخلقي بمقياس الشرف والرفعة والمجد والفضيلة وما انتهت إليه وحصلت عليه من الوحدة بعد التفرُّق والقوة بعد الضعف والتقدُّم والرقي بعد التأخُّر والانحطاط والغنى بعد الفقر وهكذا، بعد بزوغ فجر هذه الرسالة بأنواره الزاهرة وإزالتها غياهب الجهالة والضلالة، لتصبح بعد استضاءتها بهذه الأنوار وسيرها على نهج الإله الواحد الغفّار.

خير أمة أُخرجت للناس تأمر بالمعروف بعد فعله وتنهى عن المنكر بعد تركه، وتحمل لواء الحضارة ومصباح الهداية، إلى الآفاق النائية والأقطار الشاسعة الواسعة، الأمر الذي مكّنها من الإطاحة بعرش الكسروية في الشرق والقيصرية في الغرب، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين ظلموا هي السفلى.

وقد أشرت إلى المرحلتين المذكورتين الجاهلية السابقة الساحقة والرسالية اللاحقة المشرقة بالمقطوعة الشعرية التالية:

قد كنتَ قبل الدين سبعاً ضاريا ... يخشاك حتى الأهل والولدان
فإذا أتاك الليلُ كان بهيمةً ... يسطو عليها السلب والعدوان
وإذا أتتك البنتُ فهي جريمةٌ ... تُخفي معالمَ قبحها التربان
وإذا أردتَ عبادةً تُرضي بها ... ربَّ الهوى فالقبلة الأوثان
وكذا بقيتَ تعيش جهلاً مردياً ... حتى أتاك بنهجه القرآن
فطرحت شركاً واعتنقت شريعةً ... سمحاءَ أبدع خطها الرحمٰن
فإذا الجزيرة روضةٌ فوّاحةٌ ... بالخير ينشر عطرَه الإحسان
وإذا النفوسُ تطلُّعٌ وتشوُّقٌ ... للحق ينشر نورَه الإيمان
والفضلُ للأتقى وإن لم يُعله ... نسبٌ رفيعُ الشأن أو تيجان
تبت يدا عم النبي قد غدا ... من آل بيت محمدٍ سلمان

وعلى ضوء ما تقدّم بيانه يظهر جليّاً دور الدين السماوي في تلبية نداء

الفطرة وإرواء ظمأ الروح والنفس إلى اكتشاف سر الوجود وغاية الإيجاد بقطر الهداية وماء المعرفة الصحيحة.

فهو يتجاوب مع نزعة الفطرة السليمة وانجذابها عفوياً إلى الإيمان بأن لهذا الكون بما فيه الإنسانُ، خالقاً أبدعه لغاية حكيمة ويعطي الصورة المناسبة لهذا الإله المبدع العظيم بلسان الوحي الذي حمله الرسول الأعظم ﷺ من قبل ذلك الإله الخلاّق القادر على كل شيء وأنه متّصف بجميع الصفات الكمالية، لأنه إذا كان فاقداً لبعضها يكون محتاجاً إلى وجوده ليتم النقص ويملأ الفراغ.

ومن المعلوم في نظر العقل السليم أن الاحتياج والافتقار من صفات المخلوق الفقير الناقص فيستحيل أن يتصف به الإله الغني الكامل بالكمال المطلق، ومن الصفات الكمالية بالنسبة إلى الذات الإلهية الوحدة والاستقلال بالخلق والتدبير والتصرُّف المطلق في شؤون هذا الكون بما فيه الإنسان. وذلك مؤكد لما هو مرتكز في الطبيعة البشرية من وحدة الصانع المبدِع المستلهمة من ملاحظة وحدة النظام المسير للكون بالإرادة الإلهية التكوينية على نسق واحد ونهج مستمر بلا اختلاف ولا اختلال ولو كان هناك شريك للذات الإلهية المبدعة لحصل شيء من ذلك ـ أي من الاختلال والاختلاف ـ في نظام الكون العام.

وقد صرّح الله سبحانه بذلك حيث قال:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾[(١)].

وهذا يرسِّخ الاعتقاد الفطري بوحدة المبدِع الخلاّق لهذا العالم، وبذلك يحصل اليقين بالأصل الأول من أصول الدين الخمسة المعهودة، وهو التوحيد.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

ومن الصفات الكمالية للذات الإلهية: العدل وهو الأصل الثاني منها.

ومنها: الحكمة ومعناها أن المتصف بها لا يصدر منه قول بلا معنى ولا خلق وتشريع بلا غاية وهدف وقد صرح في العديد من آيات كتابه الكريم بالغاية التي خلق الكون من أجلها، وهي خدمة الإنسان كما صرّح بالغاية التي خلق الجن والإنس من أجلها، وهي عبادته سبحانه بقوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

ومعنى عبادته سبحانه إطاعته والانقياد لإرادته التشريعية بكل تصرُّف اختياري يصدر من الإنسان المكلَّف بإرادته واختياره، وحيث أنه لا يعرف نوع إرادته ومراده فلا يعرف نوع وكيفية عبادته تعالى في كل مورد من موارد تصرفاته في هذه الحياة، لذلك يتعين في حقه سبحانه أن يبعث رسولاً يكون أفضل الخلق من جميع الجهات وبجميع الصفات الكمالية كما يكون معصوماً عن الخطأ والنسيان والسهو فضلاً عن المعصية والمخالفة العمدية، وذلك من أجل أن يحمل للأمة الرسالة المنظمة لتصرفات الإنسان فرداً ومجتمعاً لتحصل الغاية من الخلق، وهي العبادة والانقياد الاختياري لإرادته تعالى بتطبيق هذه الرسالة والعمل بمقتضاها في جميع الموارد والشؤون الحياتية، وبهذه العبادة يتحقق للإنسان المؤمن العابد ما أراد الله سبحانه أن يصل إليه ويحصل عليه من الكمال والسعادة في الدنيا والآخرة.

وبالاعتقاد بضرورة إرسال الله سبحانه الرسول ﷺ بالرسالة إلى الناس لتتحقق بذلك غاية الخلق، وهي عبادته وحده لا شريك له ـ كما يريد ـ يحصل الإيمان بالأصل الثالث من أصول الدين المعهودة وهو النبوّة.

وبنفس الدليل المذكور للبرهنة على ضرورة إرسال الله سبحانه الأنبياء يُستدل على ضرورة تعيينه الأوصياء لأن الرسول غير خالد وإذا مات الرسول

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

لا تموت الرسالة ولا يبطل دور الغاية التي خلق الله الإنسان والأكوان من أجلها وهي عبادته وحده لا شريك له، وكما أن تعيين الرسول وإنزال الرسالة يكون مختصاً بالله سبحانه ومقصوراً عليه، كذلك تعيين مَن ينوب عنه في حفظ الرسالة من التحريف وصون الأمة من الضلال والانحراف عن نهج الهداية وخط الرسالة لأنه سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته وقد عيّن للأمة بعد رسوله ﷺ اثني عشر إماماً معصوماً كالنبي ﷺ، أولهم: علي بن أبي طالب عليه السلام، وآخرهم: الإمام المهدي محمد بن الحسن العسكري عليهم جميعاً أفضل التحية وأزكى التسليم.

وذلك مستفاد من الروايات الكثيرة الواردة في كتب الفريقين والبالغة حد التواتر.

ومنها: رواية جابر بن عبدالله الأنصاري التي ورد فيها سؤال هذا الرسولَ ﷺ، عن المراد من كلمة أولي الأمر الواردة في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1].

وأجابه ﷺ على سؤاله هذا بذكر الأئمة الاثني عشر بأسمائهم[2].

ويؤكد ذلك حكم العقل السليم واستقلاله بأن هؤلاء الأئمة المعصومين عليهم السلام وحدهم القابلون لأن يأتوا في الدرجة التالية لجدهم الرسول الأكرم ﷺ بالأفضلية المطلقة من جميع معاصريهم وبكل الصفات الكمالية باعتراف الكل مضافاً إلى العصمة المستفادة من أمر الله سبحانه بإطاعتهم مطلقاً بدون تحفُّظ وتقييد على غرار أمره تعالى بإطاعته سبحانه وإطاعة رسوله ﷺ، كذلك.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) من الجزء الأول من كتاب أئمتنا لدخيل ص٢١ نقلاً عن إكمال الدين ج١ ص٣٦٥ وإلزام الناصب ج١ ص٥٥ وينابيع المودة ص٤٩٥.

ويدل على عصمتهم أيضاً حديثا الثقلين والسفينة المتواتران لدى الفريقين.

ويؤكد ذلك كله، وقد يغني عنه لدى الإنسان الواعي المنصف سيرُهم العملي المستقيم وسيرتهم الغراء المشرقة بأنوار الكمال والفضيلة بشهادة الأعداء فضلاً عن الأولياء.

ومن المعلوم أن النيابة الشرعية عن الرسول ﷺ، لا مجال لأن تُعطى لأي شخص إلا إذا كان شبيهاً به وقريباً منه باتصافه بما كان الرسول ﷺ متصفاً به وهو مجموع الصفات الكمالية مع التفوُّق بها على مَن سواه مضافاً إلى الاتصاف بالعصمة المانعة من كل ما يسبب الشك في صدق ومصداقية ما يصدر عنه من قول وتصرُّف لواقع الأحكام الشرعية الصادرة عن الذات الإلهية، وذلك من أجل أن تنقاد له القلوب وتذعن له النفوس بسبب أفضليته وتفوُّقه كما تؤمن وتصدق العقول بما يصدر عنه ويُؤخذ منه، بسبب الإيمان بعصمته المانعة من حصول المخالفة لواقع الوظيفة الشرعية الواقعية ولو بدون قصد وعمد.

وبذلك تتم الحجة على المكلفين ولا يبقى مجال لتسرُّب الشك إلى أذهانهم من أية جهة وفي أي مورد. كل ذلك يكون بضرورة اتصاف النائب عن الرسول ﷺ، بالعصمة مثله حتى لا يتسرّب الشك إلى أذهان المكلفين فلا يحصل لهم العلم بمطابقة ما يمارسه من عمل وما ينقله من حكم لواقع الشريعة، وهذا يؤدي إلى عدم قيام الحجة لله سبحانه على عباده المكلفين بل تكون الحجة ثابتة لهم عليه سبحانه على ضوء حديث الرفع المشهور القائل: «**رفع عن أمتي ما لا يعلمون**»[١]، ولذلك اعتبر في مرجع التقليد اتصافه

(١) نقله المرحوم حجة الإسلام السيد مرتضى الفيروزابادي عن المحقق القمي (قده) في كتابه العناية ج٤ ص٢٠ والمحقق نقله عن توحيد الصدوق (قده).

بالعدالة بدرجة عالية تجعلها قريبة من العصمة مضافاً إلى اتصافه بملكة الاجتهاد التي تمكنه من معرفة الحكم الشرعي واستنباطه من أدلته المقررة.

وذلك لأن العدالة في المرجع النائب عن الإمام المعصوم شرط في حجية فتواه المجوزة للعمل بها، والمبررة لقيامه بدور النيابة عن الإمام عليه السلام، كما أن العصمة في الإمام شرط أساسي في قيامه بدور النيابة عن النبي صلى الله عليه وآله للسبب المتقدّم.

وبمجموع ما ذكرنا تتم البرهنة على الأصل الرابع من أصول الدين المعهودة وهو الإمامة التي تعتبر في واقعها امتداداً للنبوة، لأنها ممثلة لها ومالئة فراغها على ضوء البيان التفصيلي المتقدم ونفس الدليل العقلي الذي استدل به على ضرورة اتصاف الله سبحانه بالعدل، وهو الأصل الثاني من أصول الدين المعهودة.

يُستدل به على الأصل الخامس منها، وهو المعاد بمعنى إعادة الناس إلى الحياة من جديد من أجل الحساب ونيل كل مكلف جزاءه العادل، وهو الثواب والنعيم الذي وعد به الله سبحانه المؤمنين العاملين، وهو لا يخلف الميعاد، أو العقاب والعذاب الأليم الذي أوعد وهدّد به المنحرفين عن خط الاستقامة بالكفر أو الفسق والانحراف عن منهج التقوى.

والإسلام الكامل العادل بما اشتمل عليه وحفل به من الأدلة المنطقية العقلية والسمعية القطعية التي تُورث الجزم بأصول الدين المتقدمة، يتمكن من الإجابة على تلك الأسئلة التي تُطرح أو تَطرح نفسها على أذهان الكثيرين.

وحاصل إجابته على السؤال الأول، وهو مَن الذي أوجد هذا الكون بما فيه الإنسان؟

أن العقل السليم يقطع بأن هناك قوةً غيبيةً وراء هذا الكون هي التي أوجدته بعد العدم وأبدعت خلقه على ما هو عليه من الصنع الرائع والإبداع البارع، وذلك لامتناع وجود مصنوع بدون صانع، وحدوث بناء بدون بنّاء.

وقد أشار ذلك الأعرابي بلسان فطرته السليمة وكلمته الحكيمة إلى هذه الحقيقة الموضوعية الوجدانية بقوله:

البعرة تدل على البعير، وآثار الأقدام تدل على المسير، أفسماءٌ ذاتُ أبراج وأرض ذات فجاج لا يدلان على اللطيف الخبير؟

وحاصل الإجابة على السؤال الثاني وهو لماذا أوجد الله سبحانه هذا الكون؟ هو أنه سبحانه خلقه لخدمة الإنسان كما صرح بالغاية التي خلق من أجلها الجن والإنس بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

وبالتدبُّر الواعي المقترن بالإيمان بكونه سبحانه الغني بالغنى المطلق الذي لا يحتاج معه إلى شيء ويحتاج إليه كل شيء مع الالتفات إلى ما يترتب على إطاعته وعبادته بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه من الفوائد العديدة والسلامة من الأضرار الخطيرة.

أجل: بهذا التدبُّر الواعي والالتفات النبيه تظهر الحكمة في خلق الله سبحانه للكون بما فيه الإنسان، ويظهر بذلك الجواب على السؤال الثالث، وهو: لماذا خلق الله الجن والإنس للعبادة؟

حيث يُعرف على ضوء التفكُّر السليم أنه خلقهم للعبادة من أجل أن يتوصّلوا بها إلى ما أراد لهم أن يصلوا إليه من الكمال والسعادة باعتبار أن الخلق والإبداع من لوازم كماله المطلق، وهو يقتضي كمال مخلوقاته لأن الكامل لا يصدر عنه إلا الكامل في خلقه وصنعه، وكمال مخلوقاته سبحانه نوعان:

أحدهما: تكويني قسري لا دخل للإرادة البشرية في تحققه، وهو متمثل بإبداع الشكل وروعة الخَلْق والصورة، وهو ما صرّح به سبحانه بقوله:

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾[1].

وبقوله تعالى بالنسبة إلى خلق الإنسان وصنعه:

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِىٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾[2].

وقوله سبحانه: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾[3].

وهذا النوع من الكمال لا يكشف عن الكمال الأرقى الذي يصح اعتباره مرآةً تنعكس عليها أنوار الكمال الإلهي كما أراد الله سبحانه على ضوء الحديث القدسي المشهور القائل:

«كنتُ كنزاً مخفياً فأحببتُ أن أُعرفَ فخلقتُ الخلقَ لكي أُعرَف».

ولذلك اقتضت الحكمة الإلهية والكمال المطلق الثابت لله سبحانه، أن يخلق الإنسان حرّاً مختاراً يعبد الله سبحانه بإرادته واختياره، ويتوصّل بعبادته له إلى الكمال الاختياري الأرقى الذي يصلح لأن يكون المعبَر والكاشف عن كمال الله الأسمى ويصبح الإنسان معه مستحقاً لمنصب الخلافة والنيابة عنه تعالى بتحقيق عمران هذه الأرض التي خلقها الله له وأوجده فيها من أجل أن يجعل منها حقلاً عملياً يزرع فيه بذور التقوى وغرسات العمل الصالح لتصبح ببركة سقيها بماء الرعاية الإيمانية والعناية التقوائية، ﴿كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤۡتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾[4].

وباجتماع هذا الكمال الاختياري الأرقى مع الكمال التكويني الذي ميزه به الله سبحانه على سائر مخلوقاته حيث خلقه بأحسن تقويم وأحسن صورة

---

(١) سورة الملك، الآية: ٣.

(٢) سورة التين، الآية: ٤.

(٣) سورة غافر، الآية: ٦٤.

(٤) سورة إبراهيم، آيتان ٢٤و٢٥.

كما تقدّم، يُصبح الإنسان بمجموع هذين الكمالين قابلاً للقيام بدور الخلافة كما سبق، كما يصبح قابلاً لأن يعكس الصورة المشرقة المتفوقة للكمال الإلهي والصالحة لأن تعبّر عنه وتكشفه أمام نظر الواقع وبصر الحقيقة فتحصل الغاية المقصودة من خلق الكون وسيده، وهو هذا الإنسان الواجد لكلا الكمالين التكويني بحسن شكله وصورته والتشريعي الاختياري الحاصل بعبادته واستقامة سيرته والمراد من الغاية المستهدَفة من الخلق هو ما صرح الله به في الحديث القدسي المذكور بقوله: «**فخلقت الخلق لكي أُعرَف**».

أجل: حيث أن الله سبحانه خلق الخلق للغاية السامية المذكورة فقد أودع فيه صفة الاستعداد لتلقّي المعرفة الصحيحة والترقّي بعمله بها إلى سماء الكمال والفضيلة وشرَّع له النظامَ العادل الكامل ليتوصل بتطبيقه إلى غاية الخلق والإيجاد، وهو شرع الإسلام الذي هو نظام الحياة والأحياء عبر التاريخ كما يفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[(١)].

وهو المعبر عنه بالصراط المستقيم في قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[(٢)].

وبذلك يُعرف الجواب على السؤال السابق القائل:

ما هي الوسيلة التي تساعد الإنسان المكلف على تحصيل الهدف الذي خُلق من أجله؟ لأنه ظهر من خلال البيان المتقدم أن الدين هو الوسيلة الراجحة والناجحة التي تساعده على تحقيق هدف الخلق والإيجاد لأنهُ شُرع من قبل خالق الإنسان العالم بحقيقته، وبما يُصلحه ويَصلح له من النظم التكوينية والقوانين التشريعية، وذلك هو السر في تجاوبها وانسجامها مع الطبيعة البشرية

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

وعدم اصطدام أي حكم من أحكامها مع فطرة الإنسان وطبيعته، ولذلك عبّر الله سبحانه عنه بأنه دين الفطرة التي فطر الناس عليها حيث قال تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[1].

وأما جواب السؤال عن المصير بعد مفارقة الإنسان هذه الدار الفانية إلى الدار الأخرى الباقية فهو يظهر من الآيات الكثيرة والروايات المعتبَرة العديدة المروية عن النبي ﷺ، وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام مضافاً إلى حكم العقل واستقلاله بضرورة إعادة الله سبحانه الخلق إلى الحياة من جديد في تلك الدار الأخرى لتكون المحكمة الكبرى التي يحكم فيها الله سبحانه بالعدل بين المخلوقين ويعطي لكل ذي حق حقه وينتصف للمظلوم من ظالمه ويجازي المحسن على إحسانه بالنعيم كما وعد، والمسيء على إساءته بالعذاب الأليم كما أوعد لأنه أوفى الواعدين وأصدق القائلين.

ومن الآيات المصرِّحة بذلك قوله تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[3].

وقال سبحانه في حق الكافرين مبيّناً مصيرهم المؤلم المعاكس لمصير المؤمنين الصالحين:

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ و٨.

(٣) سورة البينة، الآيتان: ٧ و٨.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[1].

ولأهمية العدل الإلهي وضرورة اتصاف الذات الإلهية المقدسة به وعملها بمقتضاه، اعتبر من أصول الدين في المذهب الإمامي وبحث عنه في علم الكلام بصورة خاصة، ومميزة عن سائر صفاته تعالى، وتفصيل البحث حوله موكول إلى محله من علم الكلام.

وعلى ضوء مجموع ما ذكرناه حول رسالة الدين يُعرف دوره الفعال في تربية الإنسان والانطلاق به في درب الهداية والاستقامة على ضوء العقيدة الصحيحة الراسخة، وفي ظل الشريعة الحقة العادلة والكاملة، نحو هدف الكمال والسعادة في الدنيا والآخرة كما أراد الله سبحانه، وذلك لأنه يغذي فطرته السليمة بالمعرفة الحكيمة التي تزرع في حقل نفسه العقيدة الثابتة ليستضيء عقله بنور العلم والعرفان وقلبه بالعقيدة والإيمان وحياته بضوء العدل والإحسان، ولهذا وذاك فهو يعرف مصدر وجوده وهو الله سبحانه خالق الكون ومبدِع الوجود وحده لا شريك له، كما يعرف نهاية رحلته الحياتية، وهي العودة إلى الله تعالى ليلقى جزاءه العادل ويعرف أيضاً السبيلَ الموصلَ إلى السعادة الخالدة في جواره سبحانه، والطريق المؤدي إلى الشقاء الدائم وهو سبيل الهوى والانحراف عن نهج السماء وصراطها المستقيم.

وبذلك ندرك أن الإنسان الملتزم بخط السماء والمستضيء بنور الهدى في عقيدته وإيمانه وفي سلوكه وتصرفه والعارف بنهايته ومصيره والعامل بمقتضى تلك المعرفة الصحيحة بفعل ما ينفعه ويرفعه فرداً ومجتمعاً في حاضر دنياه ومستقبل آخرته مع تركه ما يضره مادياً ومعنوياً دنيوياً وأخروياً.

أجل: بملاحظة استضاءة الإنسان الرسالي بنور الهداية السماوية واستقامته

---

(١) سورة البينة، الآية: ٦.

في خط الشريعة الإلهية، وما يترتب على ذلك من السعادة والكمال والتقدُّم والنجاح في مختلف المجالات، ندرك جيداً أن هذا الإنسان الواعي، قد أخذ بأسباب السعادة الحقيقية والثروة الواقعية والرفعة الموضوعية، بميزان السمو الواقعي ومقياس الشرف الحقيقي، كما ندرك الوضع المؤلم المظلم الذي ينتهي إليه الإنسان الآخر الذي قطع صلته بالسماء وسار في درب الحياة على غير هدى وكتاب منير، وبضدها تتميز الأشياء.

وقد أشار الله سبحانه إلى مصير كلا الشخصين الملتزم والمتحلل بقوله سبحانه:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[1].

وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾[2].

وقد أشرت إلى دور الدين وأثره الفعال في سعادة الإنسان الملتزم به عقيدة وسلوكاً، بالمقطوعة الشعرية التالية:

بالدين نجني ما نريد ونقصد ... وبه نحلق للعلاء ونصعد
هو مصدر لسعادةٍ وحضارة ... يمضي بها نحو الأمام، موحد
تاريخنا الوضّاء أصدق ناطق ... يُنبي عن الحق المبين ويشهد
قد أَخرج الإسلامُ من ليل الهوى ... شعباً لأصنام الضلالة يسجد
وسما به نحو الفضيلة وارتقى ... شأناً يقوم له الزمان ويقعد
في حين سار به على نهج الهدى ... لنوال ما يجدي: النبيُّ محمدُ

(١) سورة الشمس، الآيات: ٧ ــ ١٠.

(٢) سورة الليل، الآيات: ٤ ــ ١١.

فإذا التأخرُ نهضةٌ وتقدُّم   وإذا التفرق وحدة وتودد
وبذاك أضحى الشعب أفضلَ أمة   تدعو إلى النهج القويم وترشد
لتنال ما تصبو له في حاضر   ونعيمها يوم الجزاء مخلد

قارئي العزيز: بعد أن انطلقتُ معك برحلة روحية وفكرية ممتعة في حديقة الإسلام الفاخره وتحت ظلال أشجاره الوارفة.

أحببت أن نجلس معاً تحت ظل شجرة باسقة من هذه الأشجار المعنوية المباركة ألا وهي شجرة فريضة الصلاة المقدسة لنستلهم السر الكامن في هذه الفريضة الذي اقتضى أن تعتبر من أقوى أركان الإسلام التي بُني عليها وتُجعل بذلك عموداً لهذا الدين العظيم بحيث يكون ثباته مرتبطاً بثباته وقوته، وتكون لذلك بمنزلة الحوض الذي يوجد في منزل المسلم وينظف به بدنه وثوبه خمس مرات في اليوم ليبقى نظيفاً نقياً من الأدران والأوساخ، ويترتب على هذه الأهمية البارزة والركنية القوية أن تكون معراجاً للمؤمن المصلي تعرج بروحه وعقله وقلبه إلى أعلى عليين ويُلحَق بالملائكة المقرَّبين.

كما تعتبر الميزانَ في قبول غيرها من الأعمال ليكون قبوله منوطاً بقبولها، وهو مضمون بعض الروايات الواردة في مقام بيان فضلها ومرتبتها العالية في الإسلام.

وقد رتب الدين الحنيف على هذه الأهمية القصوى عدم سقوطها عن المكلف في أي حال من الأحوال حتى ولو كان مشرفاً على الغرق لتتمثل في هذه الحالة بمجرد الحضور الذهني والتوجه النفسي إلى السماء، بالانقطاع والدعاء.

أجل يا قارئي الحبيب: عندما أحببت أن أقف معك وقفة تأمُّل وتفكُّر في السر الكامن في هذه الفريضة المباركة لنلتفت إليه تفصيلاً فنعيش في عالم النفس بالخضوع الشعوري أمام هذه الأهمية البارزة التي تميزت بها عن بقية الأركان والعبادات المعهودة.

ويترتب على هذا الخضوع الباطني خضوع عملي ظاهري بامتثال أمرها فعلاً وتحقيق هدفها تعبُّداً والتزاماً.

وارتسمت في مرآة الفكر صورة مشرقة أردت إبرازها بالبيان المعبّر والأسلوب المصوّر الذي يوحي بالاطمئنان والقناعة بذلك السر، وفي لحظة العزم والإقدام على تنفيذ هذه الإرادة الجادة، تذكرت بعض ما تحدثت به عن هذا الركن الراسخ في حقل التشريع فلا يهتز أمام كل الطوارىء وذلك في موضعين من الجزء الأول من وحي الإسلام.

الأول: تحت عنوان (دور الصلاة في خشوع القلب) صفحة ١٧٦ الطبعة الثانية و١٦٧ من الطبعة الأولى.

والثاني: تحت عنوان (العبادات والتوبة خاصة حمامات روحية) صفحة ٢٣٨ الطبعة الثانية و٢٢٨ الطبعة الأولى.

وبعد المراجعة وجدت أن ما كتبته حول هذين العنوانين كافٍ لإعطاء الصورة المناسبة للتعبير عن تلك الأهمية وإبراز الخصوصية التي اقتضت تميز فريضة الصلاة عما سواها، لذلك رجحت نقل بعض ما كتبته هناك لوفائه بالغرض المنشود وإغنائه عن صرف وقت أوسع من المدة القصيرة الكافية لنقل بعض ما كتبته سابقاً حول موضوع البحث.

وفيما يلي خلاصة ما ذكرته حول موضوع الصلاة تحت العنوان الأول (هكذا الإيمان الصادق الراسخ الثابت في أعماق تربية النفس.. يمتد بفروعه إلى سماء العلاء ويعطي الكثير الطيب من ثمر الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، ويأتي الخشوع في الصلاة ليكون ثمرة يانعة من ثمرات الشجرة الإيمانية المباركة حيث تتمثل عظمة الله سبحانه في عقل المؤمن حال صلاته له واتصاله به بصورة تفصيلية تسيطر على مشاعره وتجعله في حالة خشوع نفسي وخضوع جسمي أمام عظمته وجلاله.

وبقدر ما يقرب المؤمن من الحق ويرتبط به بعلاقة الإيمان الوثيقة يكون

بعيداً عن اللغو بكل أقسامه، ولذلك رتب الله سبحانه الإعراض عنه على الخشوع والخضوع له حال الصلاة وخارج نطاقها الشكلي.

والإعراض يحمل في طيه مفهوماً سلبياً، وهو أعمق في سلبيته من مجرد الترك للباطل، وذلك لأن الترك الخارجي قد يجتمع مع الميل النفسي للمتروك وهذا بخلاف الإعراض المتضمن للعزوف والزهد الباطني مضافاً إلى الترك الخارجي) الجزء الأول من وحي الإسلام صفحة ١٧٨ الطبعة الثانية.

وفيما يلي خلاصة ما ذكرته حول العنوان الثاني المتعلق بالصلاة وهو (دور الصلاة في تحقق الطهارة الروحية والجسمية).

(إن الصلاة حمام روحي وجسمي لاقتضائها بطبعها تنظيف الجسم والثوب مع اقتضائها نظافة الروح والنفس والضمير مما يعلق بها أثناء انطلاقها في درب الحياة، من أوساخ الخطايا باعتبار أنها في واقعها صلة النفس البشرية وارتباطها المعنوي بالمبدأ الأعلى فكرياً وروحياً وهذا يقتضي بطبعه قربها من الحق والهدى والخير، وبُعدَها في المقابل عن الباطل والضلال والشر، وهذا هو الوجه في اقتضائها النهي والانتهاء من الفحشاء والمنكر كما هو مضمون الآية الكريمة، والوجه في إيصال الصلاة إلى هذه النتجية هو أن المصلي إذا تنبّه لمعاني أذكار الصلاة ومرامي حركاتها وأفعالها وتفاعل معها نفسياً وشعورياً بحيث تكون صلة بالله وصلاة له بالروح والجسم معاً فلا بد أن تسير به في طريق التقوى والاستقامة كما أراد الله سبحانه) الجزء الأول من وحي الإسلام صفحة ٢٤٠ و٢٤١ الطبعة الثانية.

وبملاحظة مجموع ما تقدّم ندرك الوجه في ارتقاء درجة الأهمية التي أعطاها الإسلام العظيم ومشرعه الأعظم سبحانه للصلاة بحيث أوجبها على كل مكلَّف في كل حال ولم يُسقط وجوبها عنه لأي سبب من الأسباب الطارئة ما دام واجداً لأقوى وأبرز شروط التكليف وهو العقل والمعرفة التي جعل الإسلام طلبها فريضة على كل مسلم ومسلمة.

وكل ما يترتب على حالات العجز الطارئة من الناحية البدنية مع سلامة العقل، هو تبدل وظيفة المكلف الصلاتية من الحالة المتعسرة أو المتعذرة إلى الحالة الميسورة، كما شرح مفصلاً في الكتب الفقهية، وذلك لأن جوهر الصلاة يتمثل بارتباط العبد بخالقه برابطة العبودية الوثيقة ليبقى منشداً إليه ومتحركاً في إطار شريعته ودائرة مصلحته وسعادته في دنياه وآخرته.

قارئي العزيز: بعد الانتهاء من جولة الأفق التي قمنا بها معاً في أجواء الإسلام الرحبة واستلهمنا على ضوء الحديث السابق مدى قدرة هذا الدين العظيم وتمكنه من تحقيق أهداف الإنسانية وتطلعاتها في جميع مجالات حياتها، لكونه الدستور العادل الكامل الصادر من الإله الكامل العادل كما استلهمنا على ضوء الحديث الموجز أهمية أبرز أركان الإسلام وهو فريضة الصلاة ومدى فاعليتها وتأثيرها على تقوية الإيمان بالله سبحانه وتوطيد العلاقة الفكرية والروحية به لينتج من ذلك استمرار المؤمن المصلي على الاتصال التفصيلي بخالقه الذي يعبده ويصلي له وحده لا شريك له، بكل عمل يمارسه على صعيد هذه الحياة، وبكل تصرُّف يصدر منه في إطار شريعته على وجه التعبُّد والتقيُّد بمنهج السماء سواء كان تصرفاً سلبياً متمثلاً بترك ما نُهي عنه أو إيجابياً بفعل ما أُمر به.

أجل: بعد الانتهاء من هذه الجولة الممتعة في آفاق التأمُّل والاستلهام لإدراك دور الدين في إسعاد البشرية وتقدمها مع الالتفات إلى دور أحد أبرز أركانه في تحقيق هذا الهدف الكبير.

آن لنا أن نشرع بالحديث حول الموضوع الأساسي المقصود بالكتابة والتأليف وهو (فلسفة الصلاة في الإسلام) وسيكون الحديث حول هذا الموضوع في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: نتحدث فيه حول المقدمات المعهودة المطلوبة في الصلاة وهي الطهارة من الحدث المتمثلة بالغسل والوضوء والتيمم مع الطهارة من

الخبث المتمثلة بطهارة البدن والثوب ونقائهما من النجاسات المادية المعهودة، وسنبين الحكمة في اشتراط صحة الصلاة بتحقق هذه المقدمات وما يترتب عليها من الفوائد الصحية والمنافع التربوية.

الفصل الثاني: نتحدّث فيه حول كل جزء من أجزاء الصلاة لبيان الحكمة الداعية لإيجابه والفائدة المترتبة على إيجاده ابتداء من أول جزء منها وهو تكبيرة الإحرام وانتهاء بآخر جزء وهو التسليم، ويترجح الابتداء بالحديث عن جزءين مستحبين ترقت درجة استحبابهما في الشريعة الإسلامية لتلحقهما بالأجزاء الصلاتية الواجبة وخصوصاً الإقامة التي نقل عن البعض قوله بوجوبها.

الفصل الثالث: نتحدث فيه حول التعقيبات المستحبة التي يستحب مؤكداً الإتيان بها بعد الفراغ من الصلاة وهي تتمثل بقراءة بعض السور والآيات المبارَكة والأدعية المسنونة لذلك وتسبيح الزهراء عليها السلام.

وقد تقتضي المصلحة التعرُّض لذكر بعض الصلوات المستحبة وبيان ما يترتب عليها من المنافع المعجلة في هذه الحياة والمؤجلة ليوم الدين الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلب سليم.

والله سبحانه هو المسؤول أن يوفقنا لما فيه رضاه وخدمة دينه ونفع خلقه بما يعود عليهم بالصلاح والمصلحة في الدنيا والآخرة وما ذلك على رحمته تعالى بعزيز وهو حسبنا ونعم الوكيل.

حسن طراد

١٠/١١/١٤٢٠هـ / ١٦/٢/٢٠٠٠م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه نستعين

بعد التمهيد بما تقدّم للحديث حول موضوع البحث في كتاب (فلسفة الصلاة في الإسلام) نبدأ بالكلام حول هذا الموضوع في ثلاثة فصول:

الفصل الأول

هو الذي عقد للكلام فيه حول مقدمات الصلاة المعهودة التي يجب الإتيان بها قبلها نظراً لتوقُّف صحتها عليها وسيكون البحث حولها مرتباً وفق ترتبها فيما بينها بلحاظ القيمة والأثر المترتب على كل واحدة منها، ولذلك رجحنا الابتداء بالحديث حول الطهارة من الحدث قبل الحديث حول الطهارة من الخبث، وتنقسم الأولى إلى ثلاثة أقسام وهي:

الغسل.

الوضوء.

التيمم.

والثانية: لا تعدد فيها لأنها عبارة عن زوال النجاسة المادية عما يشترط طهارته منها في صحة الصلاة، وهو البدن والثوب وموضع السجود.

وعلى ضوء ما ذكرنا من مراعاة الترتيب فيها بلحاظ درجة الأهمية يكون الكلام أولاً حول الطهارة من الحدث كما يلي:

يقع الكلام أولاً حول الغسل ودوره الفعال في حصول الفرض المقصود منه.

وثانياً: حول الوضوء ودوره البليغ في حصول الغاية المقصودة منه.

وثالثاً: التيمم ودوره الإيجابي المالىء للفراغ الحاصل بترك الطهارة المائية لبعض الأعذار الشرعية.

وبعد الفراغ من الحديث حول الطهارات الثلاث المعنوية المذكورة نتحدث بما يتسع له المجال حول القسم الثاني من الطهارة المعتبرة في صحة الصلاة وهو المتمثل بالنقاء من النجاسة المادية المعلومة بالنسبة إلى بدن وثوب المصلي وموضع سجوده على تفصيل مذكور في الكتب الفقهية.

أهمية النظافة في التشريع الإسلامي

وقبل الشروع بالحديث حول هذه الطهارات المعنوية والمادية يترجح التمهيدُ بالحديث ولو موجزاً، عن أهمية النظافة في التشريع الإسلامي ودورها الفعال في حصول ما أراد الله سبحانه حصوله للإنسان المسلم بإيجابها عليه من الجمال والصحة والقوة المعنوية النفسية والمادية الجسمية فأقول: والله ولي التوفيق.

إن الله سبحانه عندما اقتضت إرادته الهادفة وحكمته البالغة ورحمته الواسعة أن يخلق الكون الفسيح لخدمة الإنسان ويخلق الإنسانَ لعبادته وحده لا شريك له، فقد أودع في هذا الكون نظاماً تكوينياً يسيطر عليه ويسيِّره قهراً وَفق مصلحة من خلق لأجله ـ وهو الإنسان ـ وسيَّره بالإرادة التكوينية لخدمته بلحاظ الجانب المادي من كيانه ووضع له نظاماً تشريعياً لينظم الجانب المعنوي والحركات الإرادية التي تصدر منه بإرادته واختياره لينال بذلك ما أراد الله سبحانه وصولَه إليه وحصولَه عليه من القوة والتقدُّم والنجاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

ويتضمن النظام التشريعي الأمرَ وجوباً أو استحباباً بكل ما يعود على الإنسان ـ فرداً ومجتمعاً ـ بالخير والسعادة ويرقى به إلى مستوى الكمال والفضيلة كما يتضمن النهيَ التحريمي أو الكراهتي عن كل ما يحرمه من ذلك كله وينتهي به إلى ضده.

وحيث أن النظام التشريعي صادر من الإله الحكيم الكامل العادل، خالق

الإنسان العالم بما يُصلحه ويَصلُح له من التنظيمات، فقد لاحظ في هذا التنظيم كلا العنصرين من كيانه وهما عنصر الروح والمادة وذلك لأن سعادته وكماله اللذين أراد الله سبحانه حصوله عليهما لا يتحققان له إلا مع وجود نظام عادل وكامل يعطي لكل عنصر من عناصر كيانه حقه فلا يظلم الجسم على حساب الروح ولا يظلم الروح على حساب الجسم بل يأخذ كلٌّ واحد منهما نصيبَه من التشريع العادل على يد الإنسان المسلم الذي أسلم أمره لله سبحانه وانقاد إليه نفسياً بالإيمان الصادق وعملياً بالتقوى والاستقامة في خط الشريعة.

ومن جملة النظم التشريعية التي وضعها الله سبحانه لخدمة الإنسان نظام الصحة وهو يتمثل بالتشريعات المنظمة لطعامه وشرابه وسائر ما يحتاجه في هذه الحياة ويتمثل التنظيم الصحي الراجع إلى الأولين (وهما الطعام والشراب) بأمره سبحانه بالكسب الحلال الحاصل من المصادر المباحة مع نهيه عن الكسب الحرام المستفاد من الموارد المحرمة، وذلك لأن أي طعام أو شراب حرام يؤثر غالباً على صحة البدن مباشرة وعلى الصحة النفسية بطريق غير مباشر نظراً لما يوجد بين البدن والروح من الترابط والتلاحم ولو فرض عدم ترتب أثر سلبي صحي على تناول بعض المآكل والمشارب لكونها نظيفة من الناحية المادية وغير فاسدة من هذه الجهة ـ أي الجهة المادية ـ ولكن يُفرض حصولها من المصدر الحرام كالغصب والسرقة والقمار ونحو ذلك.

فهذا النوع وإن كان لا يحصل منه ضرر بدني ابتداءً ومباشرة ولكن أثره السلبي الذي يحصل للنفس ينعكس سلبياً على الجسم ليصاب بالمرض المادي نتيجة إصابته بالمرض النفسي ابتداء وإذا ورد في الكلام المشهور (العقل السليم في الجسم السليم) فالعكس صحيح أيضاً لما ذكرنا من وجود التلاحم والذوبان بين الجسم والروح والنفس، فأي أثر سلبي يصيب الجانب المادي من حياة الإنسان فإنه يصيب الجانب المعنوي أيضاً إما مباشرة كالطعام والشراب الفاسدين، لأنهما يؤثران سلبياً على الجسم والروح معاً وفي وقت واحد، أو

بواسطة تأثر أحدهما ابتداء ليتأثر الجانب الثاني بواسطته، لما ذكرنا من وجود الترابط والتلاحم بين عنصرَي الروح والبدن.

وقد ورد النص على تحريم الخبائث من الطعام والشراب ونحوهما من أجل حفظ صحة الإنسان وسلامته جسمياً ونفسياً من الأضرار المادية والمعنوية.

قال سبحانه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾(١).

ومن الجوانب الصحية الملحوظة في نظام الصحة الإسلامي، طلب التوازن في تناول الطعام والشراب ويستفاد ذلك من صريح قوله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾(٢).

وتأتي الكلمات الحكيمة المشهورة المأثورة عن النبي ﷺ منسجمة مع مضمون هذه الآية الكريمة من جهة دعوتها إلى التوازن في تناول الطعام والشراب بسلوك طريق الاعتدال والتوسُّط بين التقليل المضعف والإكثار المتلف.

منها قوله ﷺ في بعض المناسبات:

«نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع».

وقولُه ﷺ: **«المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء»**.

يبين الدور الإيجابي الذي تلعبه فريضة الصيام في مجال حفظ الصحة ووقايتها من الانحراف عن خط السلامة لأن الصوم يمثل الحمية الشرعية المفروضة على كل مكلف في شهر رمضان المبارك لتقوم بدور الوقاية من

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

الإصابة بالكثير من الأمراض التي تنشأ من الإسراف في تناول الطعام والشراب كما تقوم بدور العلاج والمعافاة منه بعد الإصابة به ويفهم ذلك صريحاً من قوله ﷺ: «**صوموا تصحوا**».

وتأتي الطهارات الثلاث لتلعب دوراً طليعياً في الوقاية من الإصابة ببعض الأمراض الجلدية الناشئة من عدم الالتزام بنظام النظافة والصحة في الإسلام، وذلك لأن كل واحدة من هذه الطهارات المعهودة تقوم بدور الوقاية من الإصابة بتلك الأمراض عندما يتم الالتزام بها كما تقوم بدور العلاج بعد الإصابة.

وبعد التمهيد للحديث حول كل واحدة منها، يأتي دور الشروع بالكلام حولها ولنبدأ بالحديث.

حول الغسل

فنقول: ينقسم الغسل المشروع في الإسلام إلى قسمين: واجب ومستحب تبعاً لتنوع السبب الموجب له أو المرجح للإتيان به على وجه المحبوبية والاستحباب.

والأول الواجبُ: مقدمةً لصحة الصلاة ونحوها مما هو مشروط لصحته خمسة أغسال وهي كما يلي:

غسل الحيض، وغسل النفاس، وغسل الاستحاضة الوسطى والكثيرة، وغسل الجنابة، وغسل مس الميت الإنساني.

والثاني المستحب: أقسامه كثيرة ومذكورة في محلها من الكتب الفقهية وسنقتصر على ذكر أهمها.

الحكمة الكامنة في إيجاب غسل الحيض والنفاس والاستحاضة:

قبل ذكر هذه الحكمة الموجبة لهذا الغسل والفائدة الصحية المترتبة عليه نحتاج إلى ذكر مقدمة تمهيدية تلقي الضوء العام على الحكمة الإلهية التي لا

يتم إسلام المسلم إلا بالاعتقاد بها لكونها من الصفات الكمالية التي لا تنفك عن ذاته المقدسة ولازم اتصافه سبحانه بها عدم صدور أي قول بلا معنى وأي خلق أو تشريع بلا غاية وهدف.

وقد نصّ الله سبحانه على الحكمة والعلة الغائية الداعية لخلق هذا الكون الفسيح بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[2].

كما نصّ على الغاية التي خلق الجن والإنس من أجلها وهي عبادته وحده لا شريك له بقوله سبحانه:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[3].

ومن المعلوم أن اللازم الواضح للإيمان بضرورة اتصاف الذات الإلهية بجميع الصفات الكمالية ومنها الحكمة بمعناها المذكور هو الإيمان بوجود الحكمة في كل ما صدر عنه سبحانه من قول أو فعل يتمثل بالخلق أو التشريع، وقد كشف لنا العلم الحديث الحجاب عن السر والحكمة في إيجاد الكثير من المخلوقات، ويظهر ذلك بمطالعة كتاب توحيد المفضل الذي أملاه الإمام الصادق عليه السلام على تلميذه المفضل بن عمر الجعفي من أجل كشف شبهات الملحدين، وبيان الحكمة البالغة والأسرار الكامنة في خلق أنواع الكائنات الموجودة في هذا الكون والدالة على وجود قوة غيبية خالقة له ولكل مَن فيه وما فيه بإبداع وإتقان على وجه الوحدانية والاستقلال عن أية قوة أخرى.

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الذاريات، الآيتان: ٥٦ و٥٧.

ونظير الكتاب المذكور كتاب (علل الشرائع للصدوق «قدس سره») من جهة كشفه السر والحكمة في خلق الكثير من الكائنات وتشريع العديد من الأحكام، وتختلف الحكمة في الخلق والتشريع من جهة الوضوح والخفاء باختلاف أنواع المخلوقات والأحكام فهناك مخلوقات وأحكام واضحة الحكمة وجلية الفائدة، وفي مقابلها مخلوقات وتشريعات أخرى يكتنف سر الخلق والتشريع فيها شيء من الغموض ويزيدها غموضاً إلى درجة قد توحي للبعض من الناس بفقدها للحكمة والفائدة.

حصول[1] أضرار واضحة مع عدم وجود ما يكشف عن سر الخلق وحكمة الإيجاد بالنسبة إلى بعض المخلوقات مثل الحيات والعقارب والذباب والنمل ونحوها.

ونظيرها في غموض الحكمة بعض الأحكام الشرعية، مثل وجوب الطواف والسعي والرمي وذبح الهدي في الحج، مع عدم ترتُّب أية فائدة على ذبحه، كما هو الحاصل في هذه الأيام.

ولكن الإيمان الجازم بحكمة الله سبحانه يقتضي الإيمان بوجود الحكمة وترتب المصلحة على كل مخلوق أوجده وتشريع أنزله وخفاؤها عن البعض لا يدل على عدم وجودها واقعاً ولهذا اشتهر على ألسنة العقلاء قولهم: (إن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود) وقد أشرت إلى ذلك بأسلوب واضح ومفصّل في كتاب فلسفة الحج في الإسلام صفحة ٧٦ و٧٩ ومن جملة ما ورد حول هذا الموضوع في وسط الصفحة الثانية ذات رقم ٧٩ قولي:

وخلاصة هذا البيان الذي قدمته تمهيداً للدخول في الحديث حول السر والحكمة التي انطلق التشريع منها.

هو أن المطلوب من المكلف الذي عزم على الانطلاق في طريق تأدية

---

(١) فاعل ليزيدها.

فريضة الحج المباركة، هو أن يكون مؤمناً عن وعي واقتناع بأصول الدين المعهودة وما يتفرّع عنها ويلزمها من الصفات الكمالية والجلالية اللازمة لكمال الله المطلق، ومن أبرزها علمه بحقيقة الإنسان من حيث الخلق والطبيعة لأنه خالقه ومبدعه، ولذلك يعلم بما يُصلحه ويَصلُح له من النظام والشريعة، وعلى هذا الأساس يكون كل تشريع يضعه الله للإنسان منطلقاً من حكمة ترتبط به وتعود إليه بمقتضى كونه حكيماً لا يشرِّع بدون هدف وغاية حكيمة وحيث أنه غني بالغنى المطلق الذي يقتضي استغناءه عن كل شيء واحتياج كل شيء إليه، يتعين رجوع الحكمة المتمثلة بحصول المصلحة ودفع المفسدة إلى الإنسان الذي وُضعت الشريعة من أجله.

وبعد الفراغ من ذكر المقدمة التمهيدية التي تهيىء الجو النفسي للمكلف وتجعله مقتنعاً بوجود الحكمة وراء كل خلق وتشريع وإن لم يعرفها تفصيلاً.

أجل: بعد الفراغ من ذكر هذه المقدمة نبدأ بذكر الحكمة الكامنة وراء إيجاب الغسل على المرأة بعد نقائها من دم العادة أو النفاس أو قبل نقائها إذا كانت مستحاضة بالوسطى أو الكبرى، فنقول:

إن الطب الحديث قد أثبت أن المرأة عندما تأتيها العادة الشهرية أو الإستحاضة أو يخرج منها دم النفاس بسبب الولادة، تطرأ عليها حالة انحطاط جسمي ووهي نفسي تصبح معه كالمريضة، وأن اغتسالها بالماء المطلق الطاهر المباح يُذهب عنها تلك الحالة ويعيد لها القوة والنشاط جسمياً ونفسياً حيث يكون هذا الاغتسال بمنزلة سقي الأرض العطشى والنبات الظامىء للماء بسبب انقطاعه عنه حيث يعطيها الحياة ويجعلها مستعدة لأن تعطيها لما في طيها من البذور ونحوها مما هو مستعد للنمو والخروج من داخلها إلى الخارج كما تعطي النبات البارز على سطحها القوة والنمو ليأخذ طريقه نحو الهدف الذي خلقه الله من أجله، وقد صرح الله سبحانه بهذه الحقيقة التكوينية بقوله:

﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾[1].

وحيث أن الأثر المذكور المترتب على اغتسال المرأة بالماء الواجد للشروط المشار إليها ضمناً لا يحصل إلا مع تحقق هذه الشروط فقد أصرّ الشرع على ضرورة تحققها مقدمة لحصول الغرض المقصود من الغسل، وذلك لأنه مع فقد شرط الإطلاق بأن كان الماء مضافاً، فلا تتحقق النظافة المطلوبة والغاية المقصودة من الغسل، وكذلك إذا كان متنجساً لا يتحقق به الغرض ولا يترتب الأثر المطلوب لأن تأثُّر الماء وانفعاله بالنجاسة المادية يجعله حاملاً للمكروبات الكثيرة فيكون الاغتسال به مسبباً لخلاف الغاية المقصودة والنجاسة المعنوية الحاصلة للماء بسبب غصبه والتصرف به بدون رضا مالكه، لا تقل خطورة وضرراً من النجاسة المادية لأن المعنوية تؤثر على النفس ابتداء ومباشرة وتؤثر على الجسم بطريق غير مباشر، لما مرّ معنا سابقاً من وجود التلاحم والترابط بين الجسم والنفس فأي أثر إيجابي أو سلبي يحصل لأحدهما فهو يسري إلى الآخر، ولهذا اشتهر قولهم: العقل السليم في الجسم السليم، وبعد ملاحظة واقعية التلاحم بينهما ندرك صحة القول بأن الجسم السليم في العقل السليم والنفس السليمة من الأمراض النفسية التي تحطم كيانها وتسبب لها الضعف وعدم النهوض بالمسؤولية الملقاة على عاتق المكلف.

هذا حاصل ما أردت بيانه باختصار بالنسبة إلى الأثر الصحي المترتب على غسل العادة والنفاس والاستحاضة.

فلسفة غسل الجنابة:

وأما أثر غسل الجنابة فيمكن معرفته إجمالاً مما ذكرناه وبينا أنه السبب

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥.

لتشريع وجوب الغسل بالنسبة إلى الحالات الثلاث المذكورة، ولمعرفته بشيء من التفصيل نقول:

ذكر بعض المطَّلعين أن تحقق الجنابة بأحد سببيها المعهودَين يسبب توتراً في الأعصاب وفتوراً في الجسم وضعفاً في قوته ولا سيما الدماغ والنخاع والأعصاب ولهذا لا يستطيع الجنب التفكير بعمق والإحصاء بدقة وإنما يميل ويرغب في النوم والاستلقاء حتى يستعيد نشاطه وحيويته لأن الطاقة المستهلكة من الجسم لا تعود بسرعة ولكنه إذا اغتسل وغسل جسمه بالماء وأزاح عن بدنه المواد التي أُفرزت من مسامات بدنه، استعاد قوته ونشاطه وحيويته فوراً وأرجع إلى أعصابه الهدوء والتوازن والنشاط.

وقد استحب أن يتوضأ المرء حينما يريد أن يباشر زوجته ثانياً بعد مباشرتها أولاً وقبل الاغتسال، وقد علل ذلك في الرواية بأنه يُخشى على الطفل الذي قد يُنجب من المباشرة الثانية من الجنون، فإن الإنسان إذا جامع ولم يغتسل اعتراه الوهن والفتور، وهذا الضعف والارتخاء في الأعصاب يتركان وهناً وضعفاً على المادة المنوية فإذا علقت ببويضة المرأة وتكوَّن منها الجنين مع هذا الضعف والفتور خيف عليه من الجنون واختلال الدماغ لأنه سرعان ما يتسرب الوهن إلى القسم الذي يكوِّن الأعصاب والدماغ من المادة المنوية وأما إذا توضأ وغسل وجهه ويديه ومسح على رأسه ورجليه فقد استعاد الشيء القليل من القوة والحيوية ففي الحديث الشريف:

«إذا لم يتوضأ وجامع بعد الجماع لا يأمن الجنين من الجنون»[1].

وقد أعرب الإمام الثامن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن فلسفة غسل الجنابة بأسلوب موجز مفيد حيث قال:

---

(١) نقل بالمضمون مع قليل من التصرف عن كتاب (الصلاة آدابها وآثارها) لسماحة العلامة السيد محمد الغروي صفحة ٣١ و٣٢.

«علة غسل الجنابة النظافةُ وتطهير الإنسان مما آذاه وتطهير سائر جسده لأن الجنابة خارجة من كل جسده فلذلك وجب عليه تطهير جسده كله»[1].

فلسفة غسل مس الميت البشري:

ذكر بعض المطَّلعين على فلسفة غسل مس الميت البشري ـ على ضوء الطب الحديث ـ أن الإنسان إذا مات وبرد جسمه انتشرت على سطحه مكروبات كثيرة وبسرعة فائقة فإذا مسه إنسان بعد برودة جسمه وقبل تغسيله، سرت تلك المكروبات بالعدوى من جسم الميت إلى جسم الحي الماس، ولا يقتل تلك المكروبات إلا الاغتسال بالماء.

وإنما حصروا وجوب غسل المس بحالة برودة جسم الميت وقبل تغسيله، لأن المكروبات لا تنتشر إلا بعد برودته وقبل تغسيله فقبل البرودة لا توجد مكروبات أصلاً وبعد تغسيله لا تبقى مكروبات لأن تغسيله بالماء وبالكيفية والكمية المعهودة وبإضافة السدر إلى الماء في تغسيله للمرة الأولى مع إضافة الكافور إليه في تغسيله الثاني، وبتغسيله بالماء القراح للمرة الثالثة.

أجل: إن تغسيله بهذه الكيفية وتلك الكمية يقضي على تلك المكروبات فلا يبقى هناك ما يوجب غسل المس.

وبتخصيص وجوبه بمس الميت البشري يُعرف أن السبب الموجب له غير موجود إذا كان الميت غير بشري.

فلسفة الوضوء وآثاره الإيجابية في الحياة الصحية:

بعد الفراغ من بيان فلسفة غسل العادة الشهرية والنفاس والاستحاضة والجنابة وغسل مس الميت البشري وما يترتب عليه من الفوائد الصحية الجسمية والنفسية، يأتي دور بيان فلسفة الوضوء، وهو الطهارة الصغرى

---

(١) وسائل الشيعة الباب الثاني من أبواب الجنابة ح١ ص٤٦٦ وج١ من كتاب الطهارة.

الرافعة للحدث الأصغر الموجب للوضوء والرافع له إذا وقع بعده، ويكفي أن أنقل ما ذكره سماحة العلاّمة الجليل السيد محمد الغروي حول فلسفة الوضوء ومستحباته، في كتابه الصغير حجماً والكبير مضموناً وعلماً وهو كتاب (الصلاة آدابها وآثارها) حيث قال ما مضمونه:

قد تنتاب الإنسانَ طوارىء وحالاتٌ بدنية أو نفسية فتعالَج بالماء لأن الماء يزيل قسطاً كبيراً من العوارض التي يُصاب بها الإنسان بين حين وآخر وذكر تفصيل ذلك بقوله في كتابه المذكور:

إن البول والغائط والنوم والريح تؤثر أثراً طفيفاً على البدن وتخل بالتوازن السائد على الأعصاب وتبعث على الكسل والخمول فإذا غسلنا أطراف البدن في الوضوء استرجعت الأعصابُ توازنها واستعاد الجسمُ نشاطَه وحيويته وزالت الأوساخ والجراثيم التي تتطاير في الهواء وقد تعلق بالأعضاء المكشوفة من بدن الإنسان.

ويتجلّى دور الوضوء في الطهارة والنظافة حينما يلاحظ الوضوء مع مستحباته من المضمضة والاستنشاق والسواك، ويراد بالسواك دلك الأسنان بالأصابع أو عود الأراك أو ما تعارف عليه المجتمع في هذه الأيام.

فائدة السواك الصحية:

وقد بيّن الرسولُ الأعظمُ ﷺ أهمية السواك بقوله ﷺ:

«لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند وضوء كل صلاة».

ثم تابع سماحة السيد الغروي حديثه حول موضوع الوضوء وأهميته فقال: لقد كشف العلم الحديث في هذا العصر أن في فجاج الأسنان مادة نافعة تحفظ اللثة والأسنان وتعين على الهضم وعلى عمل غدد الريق وتحتاج إلى التنظيف فإذا أُهملت انقلبت إلى مادة خبيثة سامة تفسد الأسنان وتسيء إلى غدد الريق وتسمم البدن وتغير نكهة الفم وتُحدث التهاباً في اللوزتين

والحلق والمريء وتبعث على سوء الهضم في المعدة والكبد والأمعاء.

ونقل السيد حفظه الله في المقام وصيةً للنبي ﷺ، خاطب بها الإمام علياً عليه السلام بقوله:

«يا علي عليك بالسواك فإن في السواك مطهرة للفم ومرضاة للرب ومجلاة للعين».

فائدة المضمضة والاستنشاق الصحية:

ثم بيّن فائدة بعض مستحبات الوضوء وهو المضمضة والاستنشاق فقال: وأما المضمضة فهي مستحبة في الإسلام وهي وضع قدر قليل من الماء في الفم ثم إدارته ثم لفظه خارج الفم فاعلاً ذلك ثلاث مرات وبها يجذب الإنسان لما تخلف من فضول الطعام بين الأسنان.

وأما الاستنشاق فهو تقريب الماء من الأنف وسحبه إلى الداخل وبذلك ينظف داخل الأنف من القناة والشعيرات المتشابكة التي تنقي الهواء المندفع إلى الرئتين من الكدر والأوساخ.

وبعد بيان فوائد بعض مستحبات الوضوء بما نقلناه من كتابه فرع عليها بقوله:

فالعبادات الإسلامية التي تبتدىء باستعمال الماء في الوضوء أو الغسل مع لزوم طهارة الثياب والملابس خير سبيل أمام الإنسان الذي يُزمع على جولة عقلية ونفسية في الصلاة فإن أثر هذه الرحلة عبر الطهارة والنظافة بالغ ودقيق إذ أن الروح تنشرح والدماغ يستعد للتفكير والتعمُّق والتركيز ويدب في الإنسان قدر أكبر من النشاط[1].

وبعد هذا البيان نقل سماحته كلاماً للإمام الرضا عليه السلام يتضمن بيان

(١) كتاب (الصلاة آدابها وآثارها) صفحة ٦١ و٦٢ و٦٣ طبعة أولى دار التعارف.

فلسفة الوضوء بقوله عليه السلام: «إنما أمر بالوضوء وبدأ به لأن يكون العبد طاهراً إذا قام بين يدي الجبار عند مناجاته إياه مطيعاً فيما أمره نقياً من الأدناس والنجاسة مع ما فيه من ذهاب الكسل وطرد النعاس وتزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبار»[1].

فلسفة التيمم ودوره في الصحة البدنية والنفسية:

بعد الفراغ من الحديث حول فلسفة الطهارة المائية الرافعة للحدث الكبير بالغسل والصغير بالوضوء.

يأتي دور الحديث حول فلسفة الطهارة الترابية المتمثلة بالتيمم ودوره الإيجابي في الصحة الجسمية والنفسية فنقول:

قد عرفتَ من خلال الحديث التمهيدي السابق أن أي تشريع يصدر من الله الحكيم سبحانه لا بد أن ينطلق من حكمة ومصلحة راجعة إلى شخص المكلف، ولذلك نؤمن بوجود مصلحة قوية مترتبة على الطهارة الترابية الحاصلة بالتيمم بالتراب، وما هو بحكمه من أجزاء الأرض التي يصح التيمم بها بعد وجود العذر الشرعي المسوغ لها بدلاً عن الطهارة المائية.

وقد أثبت الطب الحديث أن في التراب وما يلحق به خصوصية ذاتية تقضي على كل الجراثيم والمكروبات التي تصل إلى البارز من جسم الإنسان، كما أن للماء المطلق مثل هذه الخصوصية ولكن بدرجة أقوى، ولذلك قدمت الطهارة المائية على الطهارة الترابية، وقد تسأل عن سبب تخصيص مكان التيمم بالنصف الأعلى من الوجه وبباطن الكفين ضرباً وبظاهرهما مسحاً مع أن تعليل وجوبه بإزالة ما يصل إلى ظاهر بدن الإنسان من المكروبات بالهواء أو المماسة يقتضي توسعة مكان التيمم ليشمل كل بارز من الوجه والكفين كما كان كذلك بالنسبة إلى الوضوء.

---

(١) وسائل الشيعة الباب الأول من أبواب الوضوء ج١ ح٩ ص٢٧٥ طبعة طهران.

ويُعرف جواب هذا السؤال أو التساؤل مما ذكرناه في المقدمة التمهيدية التي ذكرنا فيها أن كل تشريع يصدر من المولى الحكيم تابع ونابع من حكمة ومصلحة تقتضيه، وكما أن أصل التشريع تابع لأصل وجود الحكمة كذلك سعة الحكم المشرَّع وضيقه تابعان لعلته وحكمته في السعة والضيق، ولذلك نستكشف من تحديد مكان التيمم بالمساحة المحددة من الوجه والكفين، أن إيصال ووصول ما يُتيمم به إلى المكان الواجب تيممه مباشرة بالضرب عليه بباطن الكفين أو بواسطة المسح على أعلى الوجه وظاهرهما ـ أي ظاهر الكفين ـ كافٍ[1] لتحقق الغرض والهدف الصحي للبدن والتربوي للنفس باعتبار أن إذعان المكلف لتشريع وجوب التيمم بكيفيته وخصوصيته إيماناً وتسليماً، وامتثال الأمر به فعلاً وانقياداً يعود على النفس بالفائدة التربوية الكبرى، حيث ترقى إلى المستوى الرفيع من العبودية الخالصة والواعية لقيمة التشريع ودوره الفعال في سعادة البشرية وتقدمها في مختلف المجالات من خلال إيمانها بحكمة الإله المشرع العظيم الحكيم الذي لا يصدر منه خلق أي كائن بلا هدف ولا تشريع أي حكم بدون غاية وحكمة.

وإذا كان النظام العسكري المشرَّع من قبل الإنسان يوصي الجندي بالخضوع لنظام الجندية وعدم الاعتراض إلا بعد التنفيذ والامتثال وذلك بقول واضع هذا النظام: نفّذ ثم اعترض.

فإن المناسب لنظام جندية السماء أمر الجندي الملتزم به بالتنفيذ وعدم الاعتراض والمعارضة مطلقاً، لأن ذلك يتنافى مع نظام العبودية الذي يوجب على الجندي العبد الخضوع المطلق لإرادة سيده وخالقه الذي لا يأمره إلا بما فيه مصلحته وسعادته ولا ينهاه إلا عما فيه مفسدته وشقاوته في دنياه وآخرته.

---

(١) خبر أن في قولنا: أن إيصال ووصول إلخ.

ولهذا قال المرحوم السيد أحمد صافي النجفي مستنكراً حصول المعارضة والاعتراض على ما يصدر من الله سبحانه من خلق وتشريع:

يعترض العقل على خالق   من بعض مخلوقاته العقل؟

والذي يؤكد تأثير استعمال التراب في التيمم وقضاءه على المكروبات والجراثيم التي تصل إلى البارز من وجه الإنسان وكفَّيه، هو ما ورد في الفقه من وجوب تطهير الإناء المتنجس بولوغ الكلب وشربه السائل منه ثلاث مرات بشرط مزج الماء بالتراب في المرة الأولى.

وهذا إذا كان الماء قليلاً وأما إذا كان كثيراً بالغاً مقدار الكر أو كان جارياً فيكفي لتطهيره غسله مرتين بأن يغسل مرة واحدة بالماء وحده بعد غسله في المرة الأولى بالماء الممزوج بالتراب.

وفيما يلي نص المسألة التي بينت كيفية تطهير الإناء المتنجس بولوغ الكلب وكمية الغسلات:

(الآنية إن تنجست بولوغ الكلب فيما فيها من ماء أو غيره مما يصدق معه الولوغ، غسلت بالماء القليل ثلاثاً أولاهن بالتراب ممزوجاً بالماء وغسلتين بعدها بالماء وإذا غسلت في الكثير أو الجاري تكفي غسلة واحدة بعد غسلها بالتراب ممزوجاً بالماء)[1].

وذلك لأن شرب الكلب أي سائل من الإناء ينقل إليه مكروباً فتاكاً وقد أثبت الطب الحديث أن هذا المكروب لا يُقضى عليه ويطهر الإناء منه إلا إذا غسل بالتراب الممزوج بالماء في المرة الأولى.

فلسفة اشتراط طهارة البدن والثوب وموضع السجود في صحة الصلاة:

بعد الفراغ من بيان الحكمة في اشتراط صحة الصلاة في الطهارة من الحدث ودورها في الصحة الجسمية والنفسية بالتفصيل السابق، يأتي دور بيان

---

(١) (الجزء الأول منهاج الصالحين صفحة ١١٩ مسألة ٤٥٦ دار البلاغة بيروت).

الحكمة في اشتراط صحتها بالطهارة والنقاء من النجاسة المادية فنقول:

قد عُرفت الحكمة في اشتراط الطهارة من النجاسة المادية في صحة الصلاة مما ذكرناه في وجه اشتراط الطهارة من النجاسة المعنوية وهي الحدث الكبير الموجب للغسل والصغير الموجب للوضوء.

وذلك لأن النجاسة المادية المعهودة كلها مكروبات وجراثيم، ولذلك حرم الشارع المقدس أكل أعيانها وشربها كما حرم أكل وشرب كل متنجس بها انطلاقاً من المبدأ العام الذي يتأثر به التشريع الحكيم الصادر من المولى الحكيم الرحيم وهو تحريم كل ما يوجب الضرر الكبير على النفس أو على الغير إذا كان محقون الدم ويعبر عن هذا المبدأ بالمفسدة بمعناها العام ويقابله مبدأ المصلحة المقتضي لوجوب ما يعود على الإنسان فرداً ومجتمعاً بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

ومن المعلوم أن كل واحد من المبدأين المذكورين لا يقتضي الحكم الإلزامي وهو الوجوب والحرمة، إلا إذا كان قوياً بدرجة لا يرضى المولى بتعرض الإنسان لأن يُحرم من المصلحة القوية أو يقع في المفسدة الخطيرة، ولذلك يتصدى بمقتضى حكمته ورحمته لأن يضع التشريع الدافع إلى تحصيل تلك المصلحة الكبيرة والتشريع المانع من الوقوع في تلك المفسدة الخطيرة، وقد اقتضت رحمته سبحانه أن يؤكد الأمر الباعث نحو الخير والفضيلة والنهي الزاجر عن الشر والرذيلة، بإصدار الوعد بالثواب والمكافأة على امتثال التكليف وخصوصاً الإلزامي المتمثل بالوجوب والتحريم والوعيد والإنذار بالعقاب على المخالفة والانحراف عن خط العبودية.

وأما إذا كان كل واحد من المبدأين ضعيفاً لا يقتضي الحكم الإلزامي ولكنه يقتضي الحكم الترخيصي وهو الاستحباب والكراهة، فالمولى الحكيم يشرع الحكمين المذكورين ليبقى المكلف متحركاً في إطار الشريعة الإلهية بفعله ما أُمر به ولو استحباباً، وتركه المنهي عنه ولو بالنهي الكراهتي ما دام الأول مشتملاً على المصلحة والثاني على المفسدة.

ويبقى فرض ثالث تترجح الإشارة إليه إكمالاً للفائدة وهو فرض كون العمل في نفسه خالياً من المصلحة والمفسدة وفي مثل هذا المورد يجعل المولى الحكيم الحكم المناسب وهو الإباحة بمعناها الخاص وهي التي يتساوى في موردها الطرفان من جهة خلو كل واحد منهما عما يقتضي الحكم الإلزامي أو الترخيصي.

والحكم المتعين صدوره من المولى الحكيم في هذا الفرض هو الإباحة كما ذكرنا لعدم وجود ما يقتضي غيرها لما هو المعلوم من تبعية الأحكام للمصالح والمفاسد الكامنة في متعلقاتها، ولذلك فهي تتلون بلون المبدأ الذي تنطلق منه فإن كان قوياً اقتضى الحكم الإلزامي وهو الوجوب الناشىء من المصلحة القوية أو التحريم الناشىء من المفسدة القوية.

وإن كان ضعيفاً نشأ منه حكمان ترخيصيان وهما الاستحباب والكراهة كما تقدم.

وإذا خلت صفحة العمل من كلا المبدأين: المصلحة والمفسدة، يتعين حينئذ جعل التخيير والإباحة، ويعبر عنها بالإباحة اللااقتضائية لأنها ناشئة من عدم وجود مبدأ يقتضي الحكم الإلزامي أو الترخيصي.

ويقابل الإباحةَ اللااقتضائية الإباحة الاقتضائية وهي التي تنشأ عن مصلحة تقتضي جعلها ومثالها الواضح جعل الترخيص للمكلف بالترك في مورد احتمال الوجوب في مقابل إيجاب الاحتياط عليه بالفعل، وجعل الترخيص له بالفعل، في مورد احتمال الحرمة، في مقابل إيجاب الاحتياط عليه بالترك والمصلحة التي تنشأ منها الإباحة والترخيص هي مصلحة التسهيل على المكلف ورفع الحرج عنه بإيجاب الاحتياط عليه انطلاقاً من مبدأ اليسر الذي هو الطابع العام في تشريع الأحكام ويفهم ذلك بصراحة من قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

وقوله سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

وقد ذكر ذلك أستاذنا المحقق آية الله الشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر (قده) في بحث الخارج مفصلاً، وفي حلقاته مختصراً، واقتضت المصلحة التعرض لذكره في المقام من أجل تعميم الفائدة وإيصالها إلى مَن لم تصله بوسيلة أخرى، وقد أشرت إليه في أكثر من حديث من أحاديث الجزء الأول من كتاب (من وحي الإسلام).

وقد ظهر أن اختلاف نوع مبدأ الحكم من جهة تأثيره في النفع والضرر واختلاف درجة نفعه أو ضرره في القوة والضعف هو الذي اقتضى اختلاف نوع الحكم الناشىء منه من جهة كونه إلزامياً يُلزم المكلف بالفعل وهو الوجوب أو الترك وهو الحرمة أو ترخيصياً يرخص بالترك مع الأمر بالفعل وهو المستحب وبالفعل مع النهي عنه وهو المكروه.

أجل: إن اختلاف مبدأ الحكم في نوعية تأثيره واختلاف درجة هذا التأثير في القوة والضعف هو الذي كان السبب في اختلاف الأحكام التكليفية وانقسامها إلى خمسة أقسام، وهي الأربعة المذكورة أي: الوجوب والحرمة والاستحباب والكراهة، ويضاف إليها الإباحة اللااقتضائية الناشئة من عدم وجود ما يقتضي أحد الأحكام الأربعة المذكورة فتصبح خمسة أقسام.

وخلاصة ما ذكرناه حول تأثير الطهارة ونقاء البدن والثوب من النجاسة المادية، هو أن أعيان النجاسات المذكورة في الفقه وما تنجس بها من الأجسام الملاقية لها برطوبة، قد أثبت الطب الحديث كونها مصدر الكثير من المكروبات والجراثيم، وأراد الله سبحانه برحمته الواسعة وحكمته البالغة أن

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.

يسلّم الإنسان من أضرارها وأخطارها الكثيرة فأوجب عليه تطهير بدنه وثوبه منها حال الصلاة.

وحيث أن الصلاة تتكرر منه في اليوم الواحد عدة مرات، يكون لازم التزامه بطهارتهما حال إتيانه بها، ابتعاده عن مصدر تلك المكروبات وسلامته من أضرارها.

وإذا ضم إلى ذلك الواجب وهو طهارة البدن والثوب حال الصلاة أهم مستحب في الإسلام، وهو محافظته على النظافة ونقاء بدنه وملابسه وكل ما يتعلق بحياته من الأوساخ المادية في كل وقت فإنه بذلك يحقق هدف إلزامه بالطهارة حال الصلاة وهو الاعتياد على النظافة والاستمرار عليها بحيث تصبح جزءاً من حياته وعنواناً لشخصيته القوية السليمة من الأمراض والمحبوبة لله سبحانه لتقربها إليه بأحب الأعمال وأفضل الخصال، وهو النظافة التي عبر عن أهميتها في الإسلام بأنها من الإيمان، كما ورد في الحديث المشهور.

ونستكشف مدى اهتمام التشريع الإسلامي بالنظافة من أمره بالغسل استحباباً لأسباب كثيرة وحصرت بالأسباب الثلاثة وهي: الزمان والمكان والفعل، حيث ورد في الشريعة الغراء استحباب الغسل في أزمنة معينة منها يوم الجمعة، وغسل هذا اليوم من أهم الأغسال المستحبة، وقد ذهب بعضهم إلى وجوبه، ومنها غسل يوم العيدين ويوم[١] عرفة ويوم[٢] التربوية والليالي الخاصة من ليالي شهر رمضان المبارك.

ومن الأغسال المستحبة المرتبطة بالمكان الغسل لدخول الحرم ولدخول مكة المكرمة ولدخول الكعبة المشرفة ولدخول حرم الرسول ﷺ ولدخول المدينة المنورة.

---

(١) هو اليوم التاسع من ذي الحجة.

(٢) هو اليوم الثامن من ذي الحجة.

ومن الأغسال المستحبة المرتبطة بالأعمال: الغسل للإحرام ولزيارة بيت الله الحرام، والغسل لزيارة الإمام الحسين عليه السلام. وهناك أغسال أخرى مستحبة لبعض الأعمال قبل الإتيان بها ذكرها السيد الأستاذ آية الله العظمى السيد الخوئي (قده) مع الأغسال المذكورة وذكر نوعاً آخر من الغسل المستحب وهو الذي يستحب الإتيان به لمس الميت بعد تغسيله[1].

ويستفاد من بعض الروايات استحباب الوضوء في نفسه ولمجرد الكون على الطهارة ويتأكد هذا الاستحباب عندما يقوم المكلف ببعض الأعمال المحبوبة لله سبحانه مثل قراءة القرآن وإعطاء الدرس النافع ولأخذه وللتاجر حين قيامه بأعمال تجارته وللعامل حين قيامه بعمله.

والسر في محبوبيته لله سبحانه بالدرجة المؤكدة لاستحبابه هو تأثيره على مجموع كيان الإنسان بالطهارة والنقاء والنظافة والصفاء جسمياً وروحياً، وتؤكد ذلك القصة المشهورة المنقولة عن والدة الشيخ الأنصاري (قده)، وحاصلها أنها سئلت عن سبب النبوغ والبروز العلمي الذي توفق له ولدها هذا فأجابت السائل مبينةً سبب ذلك بقولها:

(لا تعجبوا من ذلك لأنني ما وضعته مرة على صدري لأرضعه إلا وكنت على وضوء).

ومعنى ذلك باختصار أن التزامها بالوضوء وكونها على حال طهارة بدنية ونفسية سبّب لها ذلك الصفاء الروحي والنقاء النفسي وانتقل ذلك مع الحليب إلى طفلها ليتغذى جسمياً بنفس الحليب ونفسياً بتلك الحالة النورانية والإشراقة الروحية التي كانت تحصل لها ببركة التزامها بالوضوء (وإذا ظهر السبب بطل العجب).

وبعد بيان السر في اشتراط صحة الصلاة بطهارة البدن والثوب نحتاج إلى

---

(١) منهاج الصالحين ج١ صفحة ٩٣ و٩٤.

بيان السر في اشتراط طهارة موضع السجود في صحتها دون مواضع بقية أعضاء السجود إذا لم تكن النجاسة قابلة للانتقال منها إلى أحد هذه الأعضاء فنقول:

لعل السر في ذلك والله سبحانه هو العالم، هو أن وضع أشرف مكان من جسم الإنسان وهو جبهته، على ما يصح السجود عليه حال قيام المكلف بأفضل عمل يقربه من الله سبحانه، يقتضي أن يكون لموضع السجود خصوصية تميزه عن بقية المواضع ليحصل التناسب بين شرف الجبهة الساجدة وشرف موضع السجود وتأتي الطهارة من النجاسة المادية لتكون هي الخصوصية التي تبرز بها قيمة ومنزلة موضع السجود بالنسبة إلى بقية المواضع.

الطهارة الباطنية المعنوية متممة أو مكملة للطهارة الظاهرية المادية:

بعد الفراغ من بيان السر والحكمة في اشتراط صحة الصلاة بالطهارة والنقاء من النجاسة المادية بإزالتها بالماء غسلاً وتطهيراً وبالطهارة من الحدث برفعه بالغسل أو الوضوء أو التيمم.

يترجح الحديث عن الطهارة المعنوية الباطنية ودورها في صحة الصلاة وسائر الأعمال العبادية أو في زيادة ثوابها وارتفاع درجة القائم بها عند الله سبحانه.

والمراد بالطهارة الباطنية صفاء النفس والقلب ونقاؤهما من الصفات الذميمة المبعِدة عن الله تعالى وهي نوعان:

الأول: ما يسبب بطلان العمل العبادي ومثاله الواضح الرياء لأنه يقتضي، فقد أبرز الشروط المعتبرة في صحة العبادة وهو الإخلاص في النية وقصد التقرُّب لله سبحانه.

الثاني: ما لا يوجب البطلان ولكنه يوجب قلة الثواب ومصاديقه كل الصفات المنافية للصفات الكمالية التي يُتوقع من المؤمن المصلي أن يتحلى بها كدروس تربوية مستلهمة من مدرسة الصلاة وسائر العبادات.

والصفات النفسية المنافية للصفات الكمالية كثيرة، أبرزها الحسد والحرص المؤدي للاهتمام بالقضايا المادية الدنيوية بدرجة تجعله زاهداً في الأمور الأخروية والصفات الكمالية المحمودة.

ومن الصفات الذميمة التكبُّر على الآخرين والأنانية البغيضة والبخل اللئيم والجبن اللعين ونحوها من الصفات المنافية لكمال الإيمان وكرامة الإنسان.

وللتوضيح نشبه التجمل بالصفات الكمالية بتوفير بعض الأمور الخارجية المحبوبة لله سبحانه المقربة منه بذاتها مثل نظافة البدن والثوب ونقائهما من الأوساخ المادية الخارجية والتطيب والتختم باليمين المعتبر من علامات المؤمن والغسل المستحب والإتيان بالصلاة في المسجد ونحوه من الأماكن التي يستحب الإتيان بالصلاة فيها، والإتيان بها أول الوقت والإتيان بها جماعة.

فهذه الخصوصيات المحبوبة إذا اقترنت بالصلاة سببت زيادة ثوابها وإذا فقدت وحلّت محلها أضدادها، يترتب على ذلك نقصان الثواب ولا يترتب البطلان واستحقاق العقاب، ولذلك يعبر عن هذه الخصوصيات المستحبة بأنها شروط كمال وليست شروط صحة.

وكذلك ما هو محل البحث وهو رجحان تجمُّل المؤمن في كل أحواله وأفعاله بالصفات الكمالية ويتأكد الاستحباب حال وقوفه بين يدَي الله سبحانه بصلاته ودعائه ومناجاته حيث يتطابق باطنه بصفائه ونقائه مع ظاهره الذي طُلب منه أن يجمله بالنظافة الواجبة المشروطة في صحة صلاته والمستحبة المشروطة في كمالها وزيادة ثوابها.

والسر في رجحان اتصاف الإنسان وتجمُّله بالصفات الكمالية عموماً وحال تلبُّسه بالصلاة خصوصاً، هو أن هذا التجمُّل هو المقصود الأساسي والهدف الرئيسي من كل العبادات وخصوصاً الصلاة لأن الله سبحانه لم يخلق

الإنسان للعبادة إلا من أجل التوصل بها إلى الكمال والسعادة كما شرحت ذلك مفصلاً في أكثر من حديث من أحاديث الجزء الأول من وحي الإسلام، وأبرزها حديث (فلسفة العبادة بمعناها العام وعبادة الحج خاصة) صفحة ٢٨، وذلك لأنه عندما يتصف بتلك الصفات الكمالية الظاهرية والباطنية يبرز بذلك نجاحه في مدرسة العبادة بصورة عامة والصلاة بصورة خاصة، باستيعابه دروسها التربوية وتطبيقها حال وجوده في نطاق هذه المدرسة وبعد خروجه منها بالفعل والممارسة العبادية وبقائه في نطاق غايتها والهدف المقصود منها.

وقد صرّح الله سبحانه بهذه الحقيقة الإيمانية وأن العبادات الخاصة المعهودة وسائل ومقدمات لنتائج نافعة ورافعة لكيان الإنسان فرداً ومجتمعاً، دنيا وآخرة.

وذلك بالعديد من آيات كتابه الكريم، منها قوله سبحانه في مقام بيان الغاية الأساسية المقصودة من إيجاب الصلاة:

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢].

وقوله تعالى في سياق الحديث عن فريضة الحج وأثرها الإيجابي في استقامة سلوك الملتزم بها، في خط التقوى والعمل الصالح:

﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٣].

وقوله تعالى في مقام إيجاب فريضة الزكاة وبيان دورها التربوي وما

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

يترتب على تأديتها من طهارة للذات ونقائها من درن البخل وللمال من الحق المعلوم الذي تعلق به للسائل والمحروم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

إن التدبُّر والنظر بعين العقل الواعي والبصيرة المنفتحة إلى مضامين الآيات المذكورة، يوحي للناظر المتبصِّر بأن هذه العبادات التي تحدثت عنها الآيات لم يوجبها الله سبحانه لذاتها شكلاً وصورة وإنما أوجبها من أجل أن تكون وظائف رياضية روحية توصله إلى الهدف الأسمى والغاية الفضلى التي أراد الله سبحانه من المتعبد الواعي وصوله إليها وحصوله عليها على وجه الدوام والاستمرار، ولا تنحصر غايتها بحدود فعلها وزمان ومكان الإتيان بها فالصلاة بشكلها العادي التعبدي أوجبها الله سبحانه على المكلف من أجل أن تبدأ بالصلة والاتصال بالله تعالى بالعقل تفكراً وبالقلب خشوعاً وبالجسم سجوداً وركوعاً، وتتكرر هذه العملية لتصبح جزءاً من كيانه وتنطلق معه في رحاب دنياه الداخلية فلا يحصل منه في إطار هذه الدنيا أي تفكير وتخطيط وعزم إلا في إطار ما يرضي الله تعالى ويقربه منه زلفى ولذلك يصبح باطنه مسجداً داخلياً يعبد الله فيه بكل حركة فكرية ونفسية اختيارية تصدر منه وفق إرادة الله تعالى.

فالتفكُّر في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار من أجل التوصل به إلى العقيدة الصحيحة كما أراد الله تعالى، عبادة باطنية وصلاة داخلية يُتقرب بها إلى الله تعالى كما يُتقرب إليه بالصلاة الظاهرية الخارجية.

وكذلك حب النفس للغير في الله وبغضها للغير الآخر في الله ومن أجله كحركة عاطفية ناشئة من التدبُّر العقلي فيمن ينبغي له الحب والبغض بالذات أو بواسطة مَن يستحق ذلك بالذات وهو الله سبحانه، هو أيضاً عبادة باطنية

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

وصلاة داخلية وكل تصرف خارجي يصدر من المكلف وينطلق من تلك العبادة الباطنية، مثل إطاعة الله تعالى بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه وتخيره بين الفعل والترك في مورد الإباحة الخاصة، كل ذلك يكون عبادة خارجية وصلاة ظاهرية يُعبد الله بها في المسجد الأرحب والمعبد الأوسع وهو أرض الله سبحانه كلها باستثناء ما يوجد مانع شرعي من التصرُّف به منها.

وهكذا الصيام لم يوجبه الله سبحانه بكيفيته المعهودة المتمثلة بالإمساك الخارجي عن تلك المفطرات المعدودة ضمن الأيام المحدودة إلا من أجل أن يتوصل به المكلف الصائم إلى الإمساك الداخلي أيضاً عن كل نية سيئة وصفة ذميمة تدفعه للانحراف عن خط التقوى والاستقامة في درب الهدى والفضيلة.

وذلك لأن الإمساك الداخلي عن ذلك وتهذيب النفس وتجملها بصفة الانضباط وقوة الإرادة المسيطرة على الميول والنزوات الذاتية لتسير بها في منهج التقوى وسبيل الاستقامة في كل التصرفات على صعيد هذه الحياة.

هو(١) الغاية الأساسية المقصودة من تشريع فريضة الصيام.

ويستفاد ذلك من آية الصيام التي بيَّن الله فيها أنه لم يكتب هذه الفريضة على الأمة المحمدية الأخيرة وعلى الذين من قبلهم إلا من أجل التوصل بها إلى الصيام العام المتمثل بالإمساك التام عن كل حرام في جميع الشهور والأيام.

وجاءت السنة المطهرة لتكشف عن هذه الغاية مؤكدة ما ورد في الكتاب الكريم.

منها ما روي عن النبي ﷺ في الحديث المشهور عنه وهو

(١) هذه الجملة هي خبر أن الواقعة في الجملة السابقة المتضمنة لقولنا: وذلك لأن الإمساك الداخلي عن ذلك إلخ.

قوله ﷺ: «**رب صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش**».

فقد بيّن الرسول الأعظم ﷺ أن الصوم غير مطلوب لذاته بل لغايته التي شُرع من أجلها وهي التقوى التي صرح سبحانه بكونها المستهدفة من الصوم في آخر الآية المشار إليها بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وكذلك صرح ﷺ بالغاية المقصودة من تشريع فريضة الصلاة بقوله: «**من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً**»[1].

وهذا البيان أتى ليكون كاشفاً عن فلسفة تشريع وجوب الصلاة ومؤكداً لمضمون قوله تعالى في الآية السابقة:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[2].

ونفس الحديث الذي ذكرناه لبيان فلسفة تشريع الصلاة والصوم ينسحب على الفريضة المالية المتمثلة بفريضتي الزكاة والخمس لأن الشارع المقدس لم يوجبها بشروطها ومقدارها المحدد إلا من أجل أن تتحول تأدية هذه الفريضة بدافع الوجوب إلى ملكة راسخة وصفة كرم ثابتة تدفع صاحبها للبذل والعطاء استحباباً كلما اقتضت المصلحة ومست الحاجة.

والفرق بين دفع المال وبذله في المكان المناسب بدافع امتثال الأمر الوجوبي وبذله بدافع امتثال الأمر الاستحبابي، هو أن الباعث في الأول يكون الغالب فيه هو الاندفاع بعامل خوف العقاب بخلاف البذل بدافع الاستحباب فإن هذا العامل يكون مفقوداً فيه، ويقوم مقامه عامل الرغبة في نيل الثواب أو الميل لنيل رضا الله تعالى، والباعث الثاني أفضل من الأول والثالث أفضل منهما لأنه مظهر للعبودية الخالصة والعبادة الواعية المعبر عنها بعبادة الأحرار كما عبر عن الثانية بعبادة التجار، وعن الأولى بعبادة العبيد والنوع الثالث

---

(١) نهج الفصاحة ج٢ ص٢٨٢ نقل عن كتاب مفتاح الخلاص ص٦١.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

الأفضل كان عبادة أهل البيت عليهم السلام والسائرين على نهجهم سابقاً ولاحقاً.

وقد صرح الإمام علي عليه السلام بنوع العبادة التي التزم بها مع الله سبحانه وذلك في مناجاته التي خاطب الله بها قائلاً: «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»(١).

وحيث أن فريضة الحج تعتبر مجمعاً وملتقى لنوعين من العبادة.

الأول: منهما العبادة البدنية المتمثلة بالصوم والصلاة.

والثاني: العبادة المالية المتمثلة بالخمس والزكاة، فإن الحديث السابق عن هذين النوعين يعتبر حديثاً عن الفريضة المشتملة عليهما وبياناً للغاية الأساسية المستهدفة منها وهي التقوى والعمل الصالح على ضوء بعض الآيات الواردة في سياق الحديث عن الحج.

ومنها: الآية الآمرة بالتزود بالتقوى، وقد مر ذكرها في صفحة ٥٨.

ومنها: الآية التي تتحدث عن بعض شعائر الحج وهو الهدي، وذلك بقوله سبحانه: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾(٢).

وخلاصة الحديث حول الطهارة والنظافة المعنوية الباطنية هي أنها مكملة للطهارة والنظافة الظاهرية حيث يكون باطن المؤمن المصلي وظاهره متساويين بالنقاء والصفاء وهذا التطابق بين الباطن والظاهر هو من أبرز أهداف العبادة بصورة عامة والصلاة بصورة خاصة لأنه يكون منتجاً لصحة الصلاة إذا كانت الطهارة الداخلية كالخارجية شرطاً لصحتها وهي الطهارة والنقاء من نجاسة الرياء المعنوية ونحوه من مبطلات العبادة أو كانت شرطاً لزيادة ثوابها حيث تكون شرطاً لكمالها.

---

(١) طهارة الروح للشهيد مطهري ص٧٢ نقلاً عن البحار ج٤١ ص١٤ الباب ١٠١ مع اختلاف ضئيل.

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٧.

ويتمثل هذا النوع من النقاء والطهارة الباطنية المؤثر في زيادة أجر العبادة بالصفات الحميدة والأخلاق المجيدة المحبوبة لله سبحانه والمسببة لزيادة القرب منه.

وتلك الأخلاق السامية هي المعبَّر عنها بأخلاق الله سبحانه في الحديث المشهور القائل: **«تخلّقوا بأخلاق الله»**.

والطهارة الباطنية والنظافة الداخلية المتمثلة بهذه الأخلاق الجميلة والصفات النبيلة هي المتممة للطهارة والنظافة الظاهرية الحاصلة للبدن والثوب وموضع السجود ويستفاد ذلك مما روي عن النبي ﷺ في الحديث المشهور وهو قوله ﷺ:

«إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم»[1].

فلسفة الإتيان بالأذان والإقامة قبل الصلاة:

بعد الفراغ من الحديث حول المقدمات المشروطة في صحة الصلاة وهي الطهارة من الحدث التي تتحقق بالغسل والوضوء والتيمم مع الطهارة من الخبث الراجعة إلى بدن المصلي وثوبه وموضع سجوده، يأتي دور الحديث عن مستحبَّين مشهورين وهما الأذان والإقامة، ويتأكد الاستحباب في الإقامة، الأمر الذي دفع بعضَهم إلى القول بوجوبها، وهما وإن كانا خارجين عن موضوع الحديث في الفصل الأول الذي عقد للكلام حول مقدمات الصلاة التي تتوقف صحتها عليها إلا أن شبههما بالمقدمات من جهة موضع الإتيان بهما، وهو الزمان السابق على الصلاة، اقتضى أن يلحقا بها ـ أي بالمقدمات ـ وبالتحدث عنهما قبل الشروع بالحديث عنها أي عن الصلاة وأجزائها فنقول:

إن الفائدة المترتبة على الإتيان بهما بالكيفية والكمية اللتين شرعتا بهما

---

(١) جامع السعادات ج٣ صفحة ٣١٠.

يمكن استفادتها إجمالاً على ضوء المبدأ العام الذي نبّهنا عليه أكثر من مرة في مقدمة هذا الكتاب وبعض الأحاديث التي مرّ ذكرها حول المقدمات المشروطة في صحة الصلاة، وهو أن الله سبحانه حكيم عليم ورحيم لا يصدر منه خلق إلا لحكمة ولا تشريع إلا لمصلحة تعود إلى المكلف وبذلك نؤمن بوجود مصلحة هامة وحكمة بالغة اقتضت تشريع استحباب الإتيان بالأذان والإقامة قبل الشروع بالصلاة.

ومن الممكن استلهام الجانب التفصيلي من هذه الحكمة من خلال التدبُّر بمعاني ومضامين فصول كل واحد من هذين المستحبين البارزين، وحيث يوجد تداخل بينهما بالنسبة إلى أكثر فصولهما، يكون الحديث عن الفصول المشتركة بينهما مغنياً عن إعادته في مقام الحديث عن كل واحد منهما بخصوصه وبعنوانه ويقتصر على ذكر وجه الزيادة في فصول التكبير في الأذان على فصوله في الإقامة حيث يبدأ الأذان بأربعة وتبتدىء الإقامة باثنين ويختم الأذان بتكبيرتين والإقامة بواحدة مع اشتمالها على فصل: قد قامت الصلاة مرتين وتجرد الأذان عن هذا الفصل.

وما أذكره في مقام بيان الحكمة والمصلحة المترتبة على الإتيان بهما قبل الصلاة، بعضه مستفاد من بعض النصوص الواردة في المقام وبعضه مستلهَم مما ذكره بعض علمائنا الأعلام والبعض الآخر استلهمته من مضمون فصولهما بلحاظ الجو الروحي الذي يُرددان فيه والموضع الذي اقتضت الحكمة الإلهية تقييدهما به والبعض الأخير الراجع إلى استلهامي وفهمي الخاص، وإن كان غير مستفاد من نص خاص أو من قاعدة عامة شاملة لمحل الكلام والاستلهام بل كان من نوع الاستحسان العرفاني المنسجم مع الذوق الإيماني الذي يقربه من أهداف الشريعة الغراء ويبعده عن شبهة التشريع وإدخال ما هو خارج عن الشرع فيه باعتبار أن ما نستلهمه من الحكمة والمصلحة منسجم مع الجو العام الذي حصل تشريعهما فيه وكان تعليل فصولهما به بدافع احتمال ورجاء أن

يكون هو المنطلق للتشريع والهدف المقصود منه ولم يكن بداعي الجزم لتحصل شبهة التشريع المحرم.

وقبل الشروع بالحديث حول كل فصل من فصول الأذان والإقامة لبيان الحكمة المستهدفة منه أحببتُ أن أنبّه على شيء وهو أنني عندما عزمت على الكتابة حول موضوع الصلاة وفلسفة تشريعها في الإسلام وما يتعلق بها من مقدمات سابقة عليها وتعقيبات لاحقة لها وأجزاء تتألف منها، قمت بمراجعة مجموعة من المصادر القديمة والجديدة التي تحدثت حول نفس هذا الموضوع واستفدت منها الكثير من الفوائد والأسرار التي كانت المنطلق للتشريع والغايات التربوية المستهدفة منه ورجحت التوسط في مقام البيان بين الأسلوب الذي اتبعت فيه التوسعة بالحديث والعمق في المضمون، والأسلوب المقابل الذي اعتمد فيه الإيجاز بالبيان والوضوح الزائد عن المتعارف بالنسبة إلى موضوع الصلاة التي هي أبرز وأقوى أركان الإسلام التي بني عليها، وقد عبّر عن هذه الأبرزية بالنسبة إلى الصلاة بأنها عمود الدين وأن قبول غيرها من العبادات وعدم قبوله دائر مدار قبولها وعدمه.

كما أنني تركت ذكر الكثير من الروايات الواردة حول موضوع الصلاة وأسرار تشريعها، وذلك بسبب اشتمالها على عبارات مجملة ومطالب عميقة فإذا فسرت ألفاظها ووضحت مطالبها أدّى ذلك إلى الإطالة والإسهاب الذي آثرنا تركه.

وإذا تركت على إجمالها وعمقها قلّ المستفيدون منها. لهذا وذاك اقتصرت على ذكر مضمونها بالبيان الواضح المتوسط.

وبالمناسبة أحب التنبيه على أمر آخر، وهو عدم التقيُّد بذكر مصدر الكثير من الروايات اعتماداً على شهرة نقلها في الكتب وتداولها على ألسنة المتحدثين بحيث أصبحت كالأمثلة المشهورة المحفوظة ويضاف إلى ذلك واقعية مضامينها وانسجامها مع روح التشريع الإسلامي المشرق على

صفحات كتاب الله الكريم وسنّة نبيه العظيم صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين.

ونفس الطريقة اتبعتها في الكتب الثلاثة السابقة وهي: الجزء الأول من وحي الإسلام، وفلسفة الصيام في الإسلام، وفلسفة الحج في الإسلام، حيث تحررت فيها من التقيُّد بذكر مصادر الكثير من الروايات باستثناء بعضها الذي لم يشتهر نقله.

وبعد الفراغ من ذكر هذه المقدمة نشرع بالحديث حول فصول الأذان والإقامة من أجل استلهام الدروس التربوية والنفحات الروحية من فصول كل واحد منهما فنقول وعلى الله التوكل وبه الاستعانة ومن توفيقه يكون الاستلهام والاستفادة:

أول فصل من فصول الأذان يطالعنا بهذا العنوان الكبير الكبير، وهو عنوان (الله أكبر) الذي يرسم في لوح ذهن المرتل لهذا النشيد السماوي الروحي الرائع أو السامع له من غيره صورةَ العظمة والجلالة التي حلّقت في سماء السمو والرفعة وظلّت تحلّق وتحلّق بدون الانتهاء إلى حدٍّ محدود أو أفق مسدود، وينتج عن ارتسام هذه الصورة المطلقة المشرقة حصول الخشوع في القلب والانجذاب النفسي نحو تلك الذات العظيمة المقدسة بعامل رجاء الثواب والرحمة وباعث الخوف من العقاب والنقمة، وبذلك يحصل التوازن النفسي لدى المؤمن المصلي حال وقوفه بين يدَي الله تعالى في صلاته ثم تنطلق معه هذه الحالة ليبقى عليها وتبقى معه في كل تصرفاته الإرادية الاختيارية التي يمارسها على صعيد هذه الحياة.

وبذلك تتحقق الغاية الأساسية التي شرعت من أجلها الصلاة وهي نهيها له عن الفحشاء والمنكر وانتهاؤه عنهما بهذا الزجر التعبدي الذي أراد الله سبحانه أن يوجهه إلى المكلف بواسطة الصلاة الواعية الناهية عن كل ما يضر والباعثة نحو كل ما ينفع ويرفع الإنسان فرداً ومجتمعاً دنياً وآخرة.

وإبراز العنوان المذكور وهو عنوان (الله أكبر) بصيغة التفضيل ليكون بالنسبة إلى الله سبحانه تفضيلاً مطلقاً غير محصور بجهة ولا مقيّد بصفة وتكون نتيجة الالتفات التفصيلي إلى هذا المعنى الكبير الثابت لله الأكبر هي أن يرى المكلف المصلي من عداه وما سواه، لا شيء أمام أعظم الأشياء ومبدِع الأرض والسماء وما فيهما من عجائب الموجودات وغرائب المخلوقات فإن كان ما سواه كبيراً باعتبار من الاعتبارات فالله سبحانه هو أكبر من كل كبير وأقدر من كل قدير وأغنى من كل غني وأعظم من كل عظيم.

لذلك يكون كل عظيم أمام عظمته حقيراً، وكل غني أمام غناه المطلق فقيراً، وكل قوي أمام قدرته المطلقة الكاملة ضعيفاً وهكذا.

وذلك لأن كل صفة من صفات الامتياز والتفوُّق التي يترفّع بها البعض ويتكبّر على غيره هي مستمدة من الله سبحانه لأنه مصدر كل خير وأصل كل نعمة.

قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾(١).

والمتوقَّع ترتبه على التنبه والالتفات إلى هذه العظمة العظيمة والقدرة المطلقة بالنسبة إلى المصلي هو توجهه في الدرجة الأولى إلى صاحبها طالباً منه تحقق مطلوبه وهو حصول محبوب أو دفع مكروه ويكون توجهه إلى أية جهة أخرى عاقلة مريدة مختارة كالإنسان أو جامدة فاقدة لهذه الخصوصيات، لمجرد كونها وسيلة وآلة بيد الإرادة الإلهية.

فإذا أراد الله سبحانه حصول مطلوبه بواسطتها تحقق ذلك، وإذا أراد العكس كانت النتيجةُ العكس، والمؤمن الواعي الواثق بحكمة الله ورحمته

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.

يبقى على ثقته ولا يصاب باليأس والقنوط ويفسر عدم حصول مطلوبه بوجود حكمة إلهية مقتضية لذلك وإن كانت مجهولة لديه ويعبر عن تسليمه لإرادة الله سبحانه ورضاه بقضائه بقوله بلسان الحال أو المقال ما ذكره الإمام عليه السلام في دعاء الافتتاح: «ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور» كما يردد قول النبي سليمان عليه السلام:

﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[1].

عندما يتوفق بعناية الله سبحانه لنيل أمنيته الراجحة وغايته المشروعة.

واعتماد الوسيلة المشروعة للتوصل بها إلى الهدف المشروع هو التوكل الممدوح في الإسلام والسعي من أجل تحقيق الغاية المنشودة بدون إعداد الوسيلة المناسبة لها هو التواكل المذموم.

وإذا كان الاعتماد على الوسيلة وحدها بدون ربطها بالله سبحانه سبب الأسباب يكون توكله ناقصاً أبتر ينتهي بصاحبه إلى الفشل غالباً، وإذا قدر له النجاح وحصول المطلوب فهو نجاح بميزان الدنيا ولا يكون له منه في الآخرة من نصيب.

وهذا إذا لم يكن هدفه المنشود له حراماً، وأما إذا كان كذلك فهو مضافاً إلى حرمانه من رضا الله وثوابه يتعرّض إلى سخطه وعقابه وهذا كله هو حاصل ما ينبغي أن يقال حول الفصل الأول من فصول الأذان ونفس الشيء يقال بالنسبة إلى الفصل الأول من فصول الإقامة.

ويبقى الكلام في الوجه والحكمة التي اقتضت تكرار الفصل الأول أربع مرات في الأذان ومرتين في الإقامة.

والذي يمكن أن يكون الحكمة في ذلك هو إرادة الله سبحانه ترسيخ

---

(١) سورة النمل، الآية: ٤٠.

مضمونه في ذهن التالي الناطق بهذا الفصل، وذهن السامع له بإصغاء وتوجه باعتبار أن تكرار اللفظ سواء كان مفرداً أو جملة يقتضي بطبعه ترسيخ معناه في الذهن، وهذا يكشف عن مدى اهتمام الشارع المقدس في تثبيت مضمون هذا الفصل وبقية الفصول في الذهن وعياً وفي القلب إيماناً واقتناعاً يؤدي إلى اهتمام المكلف وتجاوبه مع محتوى هذه الفصول ليحققه على الصعيد العملي.

ولنفس هذه الغاية كان التأكيد اللفظي والمعنوي المذكور في علم النحو.

وقد جرت سيرة الأدباء على التكرار في نثرهم وشعرهم عندما يكون لأحدهم هدف بياني وغرض حيوي ويقصد لفت نظر الآخرين إليه ليتعاملوا مع هدفه وغرضه بما يراه مناسباً له من جهة العناية والاهتمام.

وقد جارى القرآن الكريم وجرى على هذا الأسلوب في بعض السور نظراً لنزوله بلغة العرب فاقتضى ذلك مراعاة أسلوبهم البياني الذي يساعد على تجاوبهم مع الفكرة التي يريد منهم اقتناعهم بها وتجاوبهم معها نظرياً وعملياً.

وبعد هذا الكلام المبيِّن لوجه الحكمة في تكرار الفصول الحاصل في كل من الأذان والإقامة، نحتاج لبيان الوجه والحكمة في تكرار الفصل الأول في الأذان أربع مرات وتكراره مرتين في الإقامة.

فنقول والله سبحانه هو العالم بأسرار تشريعه: لا يبعد أن يكون الوجه في ذلك هو إرادة ترسيخ مضمون هذا الفصل في الذهن للغاية التي مرت الإشارة إليها باعتبار أن زيادة التكرار تؤدي إلى زيادة رسوخ المعنى في الذهن.

وحيث أن الإقامة واقعة بعد الأذان مباشرة فتكون قوة الرسوخ الحاصلة بتكرار الفصل الأول من الأذان أربع مرات، مغنية عن زيادة التكرار في الفصل الأول من الأقامة وهو فصل (الله أكبر) المشترك بينهما أي بين الأذان والإقامة.

وهنا نحتاج إلى بيان أمرين:

الأول: نبين فيه الوجه في أصل ذكر الشهادة والاعتراف لله بالوحدانية بعد ذكر الفصل الأول من الأذان والإقامة.

والثاني: نبين فيه الوجه والحكمة في تكرار هذا الفصل في كليهما، أما الثاني وهو الوجه في تكرار الفصل الثاني فقد ظهر وجهه مما ذكرناه في وجه تكرار الفصل الأول في كليهما.

وأما الأمر الأول وهو الوجه والحكمة في طلب الإتيان بالفصل الثاني بعد الأول مباشرة فلا يبعد أن يكون هو اقتضاء الإيمان بمضمون الفصل الأول للاعتراف بوحدانية هذا الإله الأعظم الأكبر من كل مَن عداه وما سواه على الإطلاق، لأن هذه الأكبرية والأعظمية المطلقة لله لا تكون إلا مع فرض عدم وجود شريك له في ذلك كما هو واضح.

وأما الوجه في ذكر الفصل الثالث المتضمن للاعتراف للنبي ﷺ بالرسالة فهو كون هذا الاعتراف وهذه الشهادة متممة للشهادة لله سبحانه بالوحدانية ولذلك لا يحكم بإسلام أي شخص إلا بالاعتراف بمضمون مجموع الشهادتين وهما الشهادة لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة.

وتوضيح ذلك هو أن الشهادة لله سبحانه بالوحدانية ليست من زاوية الإيمان بوحدانية الله وتفرُّده بالخلق والإيجاد فقط بل من زاوية الإيمان بتفرُّده واستقلاله بالخلق والإيجاد وبالاتصاف بجميع الصفات الكمالية على وجه التفرُّد بمعنى عدم وجود مشابه ومشارك له في أية واحدة منها.

ومن جملة هذه الصفات الكمالية: العدل وهو الأصل الثاني من أصول الدين كما هو الصحيح على ضوء معتقد العدلية المتمثلة بالشيعة والمعتزلة.

ومن الصفات الكمالية: الحكمة، ومعناها أن المتصف بها لا يصدر منه قول بلا معنى ولا خلق أو تشريع بدون غاية وهدف وقد صرح الله سبحانه

الدين كما هو الصحيح على ضوء معتقد العدلية المتمثلة بالشيعة والمعتزلة.

ومن الصفات الكمالية: الحكمة، ومعناها أن المتصف بها لا يصدر منه قول بلا معنى ولا خلق أو تشريع بدون غاية وهدف وقد صرح الله سبحانه بالغاية التي خلق الكون من أجلها وهي خدمة الإنسان ونفعه بالمعنى العام للنفع والخدمة كما صرح بالغاية التي خلق الجن والإنس من أجلها وهي عبادته وحده لا شريك له، وحيث أنها لا تتحقق إلا بإنزال رسالة سماوية تحصل عبادته بتطبيقها والعمل بها، وهي لا تصل إلى المكلفين بها إلا بواسطة الرسول الذي اعترفوا بكونه مبعوثاً ومرسَلاً من قبله تعالى.. لذلك كان الاعتراف برسالة الرسول ﷺ، متمماً للاعتراف لله سبحانه بالوحدانية وبالحكمة المقتضية لخلقهم لغاية العبادة لأنه بدون الاعتراف والشهادة له بالرسالة وكونه مرسلاً من قبله تعالى من أجل تحقق العبادة، لا يترتب أي أثر إيجابي عملي على الاعتراف والشهادة لله سبحانه بالوحدانية بالمعنى الموضح المذكور.

وأما الشهادة الثالثة المتضمنة للاعتراف بولاية الإمام علي عليه السلام وأبنائه الطاهرين، فليست من فصول الأذان والإقامة المنقولة عن النبي وأهل بيته عليهم السلام، ولذلك لا يجوز الإتيان بها باعتقاد أنها من فصولهما المشروعة المنصوص عليها، لأن ذلك يدخل في التشريع المحرم.

وأما الإتيان بها فيهما لا بعنوان كونها جزء منهما وفصلاً من فصولهما بل بعنوان آخر، وهو عنوان رجحان واستحباب الإتيان بذكر الإمام علي عليه السلام ووصفه بكونه أمير المؤمنين في كل مورد يؤتى فيه بالشهادة لله بالوحدانية وللنبي محمد ﷺ بالرسالة.

أما الإتيان بها بهذا العنوان فلا بأس به على ضوء ما ورد في كتاب الاحتجاج عن الإمام الصادق عليه السلام حول هذا الموضوع حيث ورد فيه ما يلي:

«إذا قال أحدكم لا إله إلا الله محمد رسول الله فليقل علي أمير المؤمنين»[١].

وهناك روايات أخرى تدل على استحباب ذلك في أي مورد يؤتى فيه بالشهادتين الأوليين بلا فرق بين مورد الأذان والإقامة وغيره وليست ناظرة إلى موردهما بالخصوص، ولكن الكثيرين من أبناء الطائفة طبّقوا الرواية المذكورة وما شابهها بالمضمون على مورد الأذان والإقامة واشتهر ذلك بينهم حتى تخيل البعض منهم أن هذه الشهادة أي الشهادة الثالثة كالأولى والثانية من حيث كونها مثلهما في الجزئية والفصلية، ولذلك اقتضت المصلحة التنبيه على ذلك حتى لا يقع البعض في مشكلة التشريع من حيث لا يدري.

ولأهمية هذه المسألة رجحت نقل ما ورد في كتاب اللمعة وشرحها المزجي للشهيد الثاني والمتن المشروح للشهيد الأول (قدس الله سرهما)، وفيما يلي كلام الماتن الشهيد الأول (قده) مع شرحه المزجي للشهيد الثاني(قده) بعد ذكر فصول كل من الأذان والإقامة بالكيفية المعلومة والكمية المعهودة.

(فهذه جملة الفصول المنقولة شرعاً ولا يجوز اعتقاد شرعية غير هذه الفصول في الأذان والإقامة كالتشهد بالولاية لعلي عليه السلام وأن محمداً وآله خير البرية أو خير البشر، وإن كان الواقع كذلك فما كل واقع حقاً يجوز إدخاله في العبادات الموظفة شرعاً المحدودة من الله تعالى فيكون إدخال ذلك فيها بدعة وتشريعاً كما لو زاد في الصلاة ركعة أو تشهداً أو نحو ذلك من العبادات وبالجملة فذلك من أحكام الإيمان لا من فصول الأذان)[٢].

---

(١) نقل هذه الرواية عن الكتاب المذكور المرحوم الحجة السيد محمد كلانتر في تعليقته على اللمعة وشرحها نقلاً عن البحار ج١٨ ص١٦٢ من أبواب الأذان والإقامة طبع الكمباني.

(٢) الجزء الأول من شرح اللمعة تعليق المرحوم الحجة السيد كلانتر (قده) ص٢٤٠ ط أولى.

وما دمنا بصدد البحث عن فلسفة الأذان والإقامة وبيان ما يمكن أن يستفاد من فصولهما من الدروس الإيمانية المعمقة للعقيدة والتربوية المؤثرة في استقامة السلوك مع الله سبحانه بالعبادة والتقوى، ومع خلقه بإعطاء كل ذي حق حقه سواء كان واجباً أم مستحباً.

وقد رسم لنا الإمام زين العابدين عليه السلام طريق الاستقامة مع الله سبحانه مباشرة ومع غيره من خلاله بواسطة صحيفته السجادية كما رسم لنا طريق معرفة الحقوق وأصحابها تمهيداً لتأديتها لهم بواسطة رسالة الحقوق التي ألّفها للغاية المذكورة.

أجل: ما دمنا بصدد الهدف المذكور بالنسبة إلى الأذان والإقامة يكون من المناسب لذلك التعرُّض لبيان الوجه في استحباب ذكر الإمام علي عليه السلام ووصفه بكونه أمير المؤمنين في كل مورد يؤتى فيه بالشهادة لله سبحانه بالوحدانية وللنبي محمد صلى الله عليه وآله بالرسالة على ضوء الرواية المتقدمة المتضمنة لذلك ويؤكد بيان الوجه في رجحان القِرآن بين الشهادتين الأولیين والشهادة الثالثة في أي مورد من الموارد، التزام[1] الكثيرين من أبناء الطائفة بذلك في مورد الإتيان بالأذان والإقامة، واشتهر ذلك بينهم حتى توهم البعض منهم كون الشهادة الأخيرة من فصولهما، وقد دفعنا هذا التوهم بالبيان المتقدم.

وبقي علينا بيان الوجه في رجحان عطف الشهادة الثالثة الأخيرة على الشهادتين السابقتين عليها فنقول:

إن الوجه الذي أطمئن بكونه مصدر هذا الرجحان هو لفت النظر والتنبيه على أن الاعتراف للإمام علي عليه السلام بالإمامة وإمارة المؤمنين بعد سيد المرسلين مع الاعتراف بإمامة أبنائه بعده هو متمم للشهادة لله بالوحدانية

---

(١) فاعل ليؤكد الواقع في أول السطر السابق.

ولمحمد ﷺ بالرسالة، وذلك لأن الشهادتين الأولى والثانية إيمان واعتراف وهما لا يترتب عليهما الغرض المقصود والغاية المنشودة لله سبحانه من خلقه للجن والإنسان، وهي عبادته وحده لا شريك له كما يريد، وفي كل العصور كما أراد، حيث اقتضت حكمته ورحمته أن يبعث رسوله الأخير بالرسالة الأخيرة الخاتمة لتكون رحمة للعالمين.

أجل: إن الغاية المقصودة لله سبحانه وهي عبادته وحده لا شريك له لا تتحقق إلا مع وجود أشخاص بعد الرسول الأعظم ﷺ يكونون مثله بالأفضلية المطلقة من جميع معاصريهم بكل الصفات الكمالية مع الاتصاف بالعصمة المانعة من الخطأ والسهو والنسيان فضلاً عن المعصية والمخالفة المتعمدة، كما كان الرسول ﷺ كذلك.

وهذا وذاك من أجل أن تتم الحجة لله سبحانه على خلقه.

وحيث أن الخصوصيتين المذكورتين وهما الأفضلية المطلقة والعصمة المشرقة مختصة بالإمام علي عليه السلام وأبنائه الطاهرين ابتداء بالحسن الزكي وانتهاء بالمهدي عليه السلام.

على ضوء ما يستفاد من آية التطهير الواردة في حق الخمسة أهل الكساء، وآية الأمر بإطاعة أولي الأمر مع الأمر بإطاعة الله والرسول في سياق واحد وعلى نهج واحد، مضافاً إلى الروايات العديدة التي تنص على قيادتهم الشرعية بعد الرسول وأبرزها وأشهرها لدى الفريقين حديثا الثقلين والسفينة.

أجل: حيث أن الخصوصيتين المذكورتين هما شرطان أساسيَّان لشرعية القيادة والنهوض بأعباء مسؤولية الخلافة بعد الرسول الأعظم ﷺ وكانا محصورَين بالإمام علي وأبنائه عليهم السلام على ضوء واقع سيرتهم الغراء الناطقة بذلك مع شهادة النصوص القرآنية والسنتية المشار إليها.

ناسب ذلك التنبيه عليه وترسيخ هذه الحقيقة في الذهنية العامة للأمة

الإسلامية لتعرف قادتها الشرعيين الذين تتحقق عبادة الله كما يريد بإطاعتهم التي أمر أبناءها بها وأوجبها عليهم بنفس الأسلوب الذي اتبعه في مقام أمرهم بإطاعته سبحانه وإطاعة رسوله ﷺ مطلقاً بدون توقف وتحفظ وهذا دليل على عصمة الأئمة الاثني عشر الذين فسرت كلمة أولي الأمر بهم، على ضوء الرواية المشهورة التي سأل جابر بن عبدالله الأنصاري فيها عن المراد بكلمة أولي الأمر الواردة في آية الأمر بإطاعة الله ورسوله وأولي الأمر وذكر النبي ﷺ في مقام الإجابة على سؤاله أن المراد بهذه الكلمة الأئمة الاثنا عشر الذين أولهم الإمام علي عليه السلام وآخرهم الحجة المهدي محمد بن الحسن العسكري (عج).

وخلاصة هذا الحديث الذي قدمته بصدد بيان الوجه والسر في رجحان ذكر الإمام علي عليه السلام بالإمامة والإمارة في كل مورد يذكر فيه الله سبحانه بالوحدانية والنبي محمد ﷺ بالرسالة، هو أن الوجه المرجح لذلك والداعي لاهتمام أبناء الطائفة به هو لفت النظر والتنبيه على أهمية القيادة الشرعية التي تمثلت بإمامة الإمام علي وأبنائه المعصومين عليهم السلام بعده.

وذلك لأن الاعتراف بقيادتهم متمم للاعتراف برسالة الرسول المتممة للاعتراف بوحدانية الله سبحانه باعتبار أن قيادة عترة الرسول ﷺ هي في واقعها امتداد لقيادته فيكون الإيمان بها إيماناً واعترافاً باستمرار نبوته وبقاء دعوته ويقابل ذلك عدم الاعتراف بها وهو يؤدي غالباً ـ كما أدى بالفعل ـ إلى الالتزام بقيادة غيرهم من القادة المعاصرين لهم، وهو مخالف لأمر الله سبحانه بإطاعتهم ومودتهم، وقد نشأ من هذه المخالفة المخالفاتُ العملية الكثيرة الحاصلة من اتباع المنهج المخالف لنهجهم المترجم لخط الله سبحانه ورسوله ﷺ وهو الإسلام الكامل العادل الذي أنزله سبحانه عليه ليكون رحمة للعالمين ودستوراً شاملاً ومنهجاً خالداً للناس أجمعين، ونتيجة ذلك أن تكون الإطاعة والعبادة بمعناها العام عبادة لغير الله سبحانه وذلك

خلاف ما أوجبه سبحانه على كل مكلف من التوحيد في العبادة المتمم للتوحيد في العقيدة.

(حي على الصلاة) نداء لكل كيان الإنسان للوفود على الرحمٰن:

بعد الفراغ من التنبيه على الوجه الذي اقتضى رجحان ذكر الإمام علي عليه السلام بإمارة المؤمنين في كل مورد يؤتى فيه بالشهادة لله بالوحدانية وللنبي محمد صلى الله عليه وآله بالرسالة نرجع للحديث حول بقية الفصول الواردة في كل من الأذان والإقامة، وأول فصل يوافينا بعد الإتيان بالشهادتين الأوليين الدخيلتين في كل واحد منهما، وبعد الشهادة الثالثة بالنسبة إلى الشخص الذي أحبّ عطفها عليهما عملاً بالروايات المرجحة لذلك هو فصل (حي على الصلاة) ومعنى (حيَّ) في اللغة العربية طلب الإقبال على الأمر الذي طُلب من المخاطب الإقبال عليه بتوجه واهتمام.

وتفترق هذه الكلمة عن غيرها مما يرادفها مثل كلمة أقبل ونحوها، بأنها تحمل في طي مفهومها طلبَ الإقبال الكلي والتوجه التام المستوعب لتوجه العقل وإقباله بالتدبر والتفكر وتوجه القلب بالرغبة والخشوع والنفس بالخضوع لإرادة الله العظيم الذي ارتسمت في صفحة الذهن صورة عظمته المطلقة من خلال الالتفات لمعنى جملة (الله أكبر) الذي أوحى له بوحدانيته وتفرده بكل الصفات الكمالية، ومن جملتها صفة الحكمة المقتضية لأن يكون خلقه الكون لغاية حكيمة، وهي خدمة الإنسان ولأن يكون خلقه الإنسان لغاية سامية أيضاً تناسب عظمته وحكمته وهي عبادته وحده لا شريك له وقد صرّح بذلك في الكثير من آيات كتابه الكريم.

وحيث أن هذه الغاية لا تتحقق بدون إنزال رسالة كاملة على رسول معصوم لا ينطق ولا يصدر منه أي تصرُّف عن الهوى ليتحقق هدف العبادة بالعمل بمقتضاها، كان الاعتراف والشهادة للرسول بالرسالة والسفارة من قبل

الإله متمماً للاعتراف له سبحانه بالوحدانية والتفرُّد بكل الصفات الكمالية كما هو واضح.

وبهذا البيان يظهر السر في التسلسل والترابط بين الإيمان بكونه سبحانه أكبر من كل كبير وأعظم من كل عظيم، وما يترتب على الإعلان عن الإيمان بذلك من الاعتراف له والشهادة بالوحدانية مع الشهادة للنبي محمد ﷺ بالرسالة.

وتأتي الشهادة الثالثة لتكون صادرة عن المؤمن الموحد بقصد التعبير عن مشاعر الحب والولاء للإمام علي وأبنائه المعصومين تجاوباً مع مضمون الروايات المرجحة للإتيان بذكر الإمام عليه السلام ووصفه بكونه أمير المؤمنين من أجل تأكيد الاعتراف بمضمون الشهادة الثانية، وليس بدافع كونها من فصول الأذان والإقامة كما بينا ذلك مفصلاً فيما سبق.

ويؤكد ذلك أن تلك الروايات المرجحة للإتيان بالشهادة الثالثة في كل مورد يؤتى فيه بالشهادتين، ليست ناظرة إلى مورد الأذان والإقامة على وجه الخصوص، غاية الأمر أن الكثيرين من أبناء الطائفة التزموا بذكرها بعدهما في موردهما أي مورد الأذان والإقامة، فحصلت الشبهة عند البعض واعتقاد كونها من الفصول الأساسية لهذين الشعارين ويأتي الفصلان التاليان للفصل المذكور ليلفت كل واحد منهما النظر وينبه على أهمية الصلاة ودورها الإيجابي في نجاح الإنسان المصلي وفلاحه في هذه الحياة وفي الدار الأخرى وحيث كانت مصدراً للفلاح والنجاح بالمعنى الشامل لكل نجاح يدركه المؤمن المصلي ببركة صلاته واتصاله بمصدر الخير والعطاء وهو الله سبحانه، كانت بهذا الاعتبار خيرَ عمل وأفضلَ عبادة يمارسها المكلف على صعيد هذه الحياة لأنها في نفسها مصدر للكثير من الفوائد والمصالح الفردية والاجتماعية الروحية والمادية الدنيوية والأخروية كما سيأتي توضيحه خلال

الحديث عن فلسفة وفائدة كل جزء من أجزائها ابتداء بالنية والتكبير وانتهاء بالتشهُّد والتسليم. ويأتي تكرار الفصل الأول وهو جملة (الله أكبر) مرتين مع تكرار فصل (لا إله إلا الله) مرتين في الأذان، ليكون فصل التكبير مؤكداً لفصله الأول الذي كرر أربع مرات كما كرر فصل (لا إله إلا الله) الأخير ليكون مؤكداً للفصل الثاني وهو المتضمن للشهادة لله بالوحدانية.

وقد بيّنا سابقاً السر والفائدة المترتبة على تكرار اللفظ المفرد أو الجملة وبالإشارة إلى ما يمكن أن يستفاد من الأسرار والحكم من الفصول المشتركة بين الأذان والإقامة نستغني عن الإشارة إلى ما يستفاد منها من زاوية كونها جزء من الإقامة لعدم اختلاف معناها المقصود منها في كلا هذين الشعارين المستحبين.

ويبقى علينا بيان ما يستفاد من الفصل الواقع قبل الأخير في الإقامة وهو فصل (قد قامت الصلاة) المكرر مرتين مع بيان الوجه في الاقتصار على ذكر الفصل الأخير منها وهو (لا إله إلا الله) مرة واحدة بينما ذكر مرتين في الأذان فنقول: الظاهر أن المراد من ذكر هذا الفصل مرتين في الإقامة هو تحصيل الالتفات التفصيلي لدى الناطق به أو السامع له المستعد للشروع في الصلاة كما هو شأن المأمومين المصغين لصوت المقيم لصلاة الجماعة، وذلك من أجل أن يقف بكل كيانه بين يدَي الله سبحانه على حالة خشوع وخضوع فكري ونفسي عندما يلتفت تفصيلاً إلى عظمة من يصلي له، وكانت هذه الظاهرة العبادية المباركة هي السائدة لدى أئمة أهل البيت عليهم السلام وإن كانت الروايات نسبت ذلك إلى بعضهم حيث نسب إلى الإمام الحسن وابن أخيه السجاد عليهما السلام أن كل واحد منهما كان يصفر وجهه وترتعد فرائصه بمجرد شروعه بالوضوء وعندما يُسأل عن سبب حصول هذه الحالة له يقول في مقام الإجابة: «أتدرون بين يدَي مَن أريد أن أقف؟ أريد أن أقف بين يدَي جبار السموات والأرض».

وقد ظهر الوجه في تكرار الفصل المذكور مما ذكرناه في وجه تكرار أكثر فصول الأذان والإقامة.

وأما ختام فصول الإقامة بفصل (لا إله إلا الله) فلا يبعد أن يكون الوجه فيه هو ترسيخ مضمون الفصل الثاني من فصول الأذان والإقامة وهو المتضمن للشهادة لله بالوحدانية وتتأكد أهمية ترسيخ هذا المضمون بالنسبة إلى الإقامة باعتبار أن الفصل الأخير الذي يأتي بعده وبلا فاصل الشروع بالصلاة والمصلي ملتفت تفصيلاً لخصائص العظمة الإلهية وأبرزها تفرُّده بالخلق والإيجاد والاتصاف بجميع الصفات الكمالية واستحقاقه العبادة والإطاعة بالذات وحده لا شريك له، ويقتصر على ذكر هذا الفصل مرة واحدة ليكون ذلك منسجماً مع مضمونه التوحيدي فيحصل التطابق بين عبارته الدالة عليه ومضمونه المعبر عنه بها، وتكراره وإن كان يعطي خصوصية التأكيد والترسيخ كما تقدم أكثر من مرة ولكن ملاحظة خصوصية التطابق بين عبارته ومضمونه، أولى بالرعاية والاهتمام لأهميتها في ذاتها من جهة ولحصول الغرض المقصود من التكرار وهو التأكيد بتكرار فصل الشهادة لله بالوحدانية في كل واحد من الأذان والإقامة مع تكرار نفس هذا الفصل في الأذان مرتين وحيث أن الإقامة تكون مسبوقة بالأذان غالباً بالنسبة إلى أكثر المصلين فالتكرار الحاصل في هذا الفصل ـ أي فصل لا إله إلا الله ـ في الأذان يكون بمنزلة حصولها في آخر فصولها ـ أي فصول الإقامة ..

هذا حاصل ما جال في ذهني وأنا أبين الوجه والسر في كل خصوصية من خصوصيات الأذان والإقامة، وقد ذكرت سابقاً وأكرر لاحقاً أن الأسرار والحكم الكامنة وراء أصل تشريع كل من الأذان والإقامة والدروس التربوية التي يمكن أن تستلهم من فصول كل واحد منهما، لا يعلم بواقعها إلا علاّم الغيوب سبحانه والراسخون في العلم وهم: النبي ﷺ بالوحي، وكل واحد من الأئمة المعصومين بالإلهام، ولذلك كان بيانها والكشف عنها من باب

الاستظهار واستلهام المعاني والخصوصيات من الجو الفكري والروحي الذي انطلق التشريع متأثراً به ومراعياً له كما يستلهم المفسر للقرآن الكريم بعض المعاني من آياته المباركة من الجو الذي نزلت فيه والهدف الذي صدرت لتحقيقه.

وما تحدثت به حول أسرار الأذان وما يمكن استلهامه من فصوله ناظر إلى الأذان الذي يستحب الإتيان به مع الإقامة قبل الشروع بأي فرض من فروض الصلاة.

فلسفة تشريع أذان الإعلام

بعد بيان ما يمكن استفادته من السر والحكمة في تشريع الأذان والإقامة اللذين يستحب الإتيان بهما قبل الشروع بالصلاة اليومية، يترجح بيان الحكمة الكامنة وراء تشريع أذان الإعلام والفوائد المترتبة عليه وسمي بأذان الإعلام باعتبار أن مشروعية الإتيان به عند دخول أي وقت من أوقات الصلاة الثلاثة من أجل أن يكون إعلاماً وإخباراً بدخول هذا الوقت ليستعد المكلف للإتيان بكل فريضة من الفرائض الخمس في وقتها المحدد لها ويستحب له المبادرة إلى الإتيان بها في أول وقتها، وهو الفجر الصادق لصلاة الصبح، والظهر ويسمى بالزوال، لفريضتَي الظهر والعصر، والمغرب لفريضتَي المغرب والعشاء.

والوجه في استحباب المبادرة المذكورة، هي كونها من مصاديق الاستباق والمسابقة إلى الخير والمسارعة إلى أسباب الرحمة والمغفرة، وكلاهما من الأمور الراجحة والمستحبة شرعاً والمحبوبة عرفاً والمأمور بها بصراحة في الكتاب والسنة.

من **الأول** قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

ومن **الثانية** ـ أي السنة ـ ما روي عن النبي ﷺ من قوله:

«أفضل الأعمال الصلاة في أول وقتها»(١).

ويؤكد ذلك كراهية تأخير الصلاة عن أول وقتها بدون عذر مقبول وربما أدى ذلك إلى الحرمة واستحقاق العقوبة إذا كان التأخر ناشئاً من الاستخفاف وعدم المبالاة بشأن أعظم فريضة مشرعة من قبل أعظم مشرع، باعتبار أن الاستخفاف بها يكون استخفافاً بمشرعها كما لا يخفى على صاحب الذوق السليم والفهم المستقيم.

ويستفاد ذلك مما ورد في تفسير قوله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾(٢).

حيث فسرت كلمة ﴿سَاهُونَ﴾ بالذين يؤخرون صلاتهم عن أول وقتها بدون عذر مقبول وسبب معقول.

ويؤكد ذلك ما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام من قوله:

«لا تَنال شفاعتُنا مستخفّاً بصلاته».

هذا ونستطيع أن نستلهم أهمية الاهتمام بفعل العمل المقرّب من الله سبحانه ورضوانه بصورة عامة ويتأكد الرجحان والمحبوبية بالنسبة إلى الموقت منه وتقوى درجة المحبوبية إذا كان العمل القربي الموقت مثل الصلاة التي هي عمود الدين وقربان كل تقي.

أجل: نستطيع أن نستلهم أهمية الاهتمام بالأحكام الشرعية بالمبادرة إلى امتثالها أول وقت الإمكان بالنسبة إلى غير الموقت وأول دخول وقتها بالنسبة إلى الموقت منها، بملاحظة العناوين الراجحة المنطبقة عليه، أي على

---

(١) نزهة الأفكار لفضيلة الشيخ محمود الصالح ج١ ص٨١.

(٢) سورة الماعون، الآيتان: ٤ و٥.

الاهتمام والمبادرة، وأبرزها كاشفية ذلك عن احترام الشرع المقدس وشرعه الأعظم مع احترام النظام وتقدير الوقت وخصوصيته المميزة التي اقتضت تقييد العمل المطلوب به.

وحيث انتهى بنا الحديث إلى الوقت وتقييد بعض الأعمال به، ناسب ذلك تقديم كلمة حول الوجه والسر في تقييد هذا البعض به، أي بالوقت، وبذلك نكمل الحديث عن الأذان الإعلامي الذي شرع من أجل الإعلام والإخبار عن دخوله لأن تشريعه لغاية الإعلام به يدل على أهميته في نظر الشارع المقدس، ويمكن اكتشاف هذه الأهمية على ضوء ما يستلهم من طبيعة تشريعه وأهمية دوره في تنظيم الأمور الشرعية واستفادة المكلف منه درساً تربوياً في حفظ النظام بصورة عامة وصون الوقت من الضياع والفوضى المؤدية للكثير من النتائج السلبية.

ولبيان الوجه والحكمة في تقييد بعض الأعمال المطلوبة للمولى بوقت معين في مقابل غيره من الأعمال التي لم تقيد بذلك بل تعلق الطلب بها مطلقاً من هذه الجهة، أي جهة الوقت، نقول:

يمكن معرفة الوجه في ذلك ـ إجمالاً ـ على ضوء الإيمان بحكمة الله سبحانه المقتضية لعدم صدور أي تشريع بدون حكمة، وأي خلق لأي كائن بدون غاية، وبذلك نستكشف عدم ترتب الغاية المقصودة من تشريع الحكم بدون إيجاد العمل الذي شرع له هذا الحكم، في ذلك الوقت المعين وذلك بسبب دخالته في ترتب غايته وهذا هو الوجه في تقييد الفرائض الصلاتية بأوقاتها المعينة المحددة وتقييد الصيام بشهره الخاص وتقييد مناسك الحج في أيام محدودة ومعدودة، وهكذا بقية الواجبات المقيدة بوقت معين من الأوقات وبذلك ندرك ضمناً الوجه في عدم تقييد بعض الواجبات الأخرى بوقت معين، وهو عدم توقف ترتب غايتها على إيجادها فيه (وبضدها تتميز الأشياء).

وبهذا الاعتبار يكون الإطلاق والتقييد في التشريع تابعاً لنوع الحكمة المقتضية له فإذا كانت تترتب مطلقاً بمجرد وجود العمل في الخارج، كان جعل الحكم له مطلقاً غير مقيد بأي قيد زائد على طبيعة العمل، وإذا كانت لا تتحقق إلا مع توفر قيد معين اقتضى ذلك تقييد الحكم المجعول له بذلك القيد سواء كان زماناً أم غيره.

وهذا البيان يلقي الضوء على أصل التقييد لمعرفة الحكمة المقتضية له ولو إجمالاً، وبعد هذا نحتاج إلى الحديث حول هذا الموضوع بشيء من التوضيح والتفصيل، وذلك ببيان الوجه في تقييد فرائض الصلاة الخمس بأوقاتها الثلاثة في مقابل تقييدها بوقت واحد أو وقتين أو بأكثر من ثلاثة مع الإشارة إلى الدروس التربوية التي يمكن أن تستفاد من هذا التقييد وتعبد المكلف به وإلى الخصوصية المميزة التي اقتضت اتخاذ الأذان الإعلامي الوسيلة الوحيدة للإعلام بدخول أوقات الصلاة دون غيره من الوسائل الأخرى التي يمكن أن تقوم بهذا الدور.

إذن فهنا ثلاثة نقاط تحتاج إلى البيان والتوضيح.

النقطة الأولى: يبين فيها الوجه في اختيار هذه الأوقات الثلاثة لفرائض الصلاة الخمس.

النقطة الثانية: تبين فيها الدروس التربوية التي يمكن أن تستفاد من تعبُّد المكلف والتزامه بهذا التعبُّد والتقيُّد إيمانياً مع العمل بمقتضاه وتطبيقه عملياً.

النقطة الثالثة: يبين فيها الوجه في اختيار الأذان بخصوصه ليكون الوسيلة الإعلامية المميزة لدخول الوقت.

أما النقطة الأولى فحاصل ما يمكن أن يكون الوجه في اختيار هذه الأوقات الثلاثة لتأدية فرائض الصلاة الخمس هو ملاحظة الجانب المادي من كيان الإنسان وما يتطلب الجسم من فترة للراحة وتناول ما يحتاجه من الطعام

ونحوه بشكل منتظم ومنسجم مع ملاحظة الجانب الروحي والنفسي من هذا الكيان باعتبار أن التشريع الإسلامي العادل الكامل الصادر عن الإله الكامل العادل يلاحظ دائماً في كل تشريعاته مجموع الكيان البشري ليعطي لكل ذي حق حقه في إطار الفرد كما يلاحظ ذلك في إطار الأسرة والمجتمع، وحيث أن الإسلام دين العمل والبناء فهو يريد للإنسان أن يكون نشيطاً متمتعاً بالقوة والحيوية والنشاط الروحي والجسمي، لذلك اختار له الوقت الأول مطلع الفجر الصادق ليكون المنطلق لممارسة جهاده وعمله وتأتي فريضة الصبح لتكون الحركة الرياضية الأولى التي تبعث في روحه القوة المستمدة من مصدر الحول والقوة وهو الله سبحانه الذي يقف بين يديه في محطة التعبئة الأولى بصلاته الأولى ليستمد منه بها زاده الفكري والروحي معبراً عن هذا التزود بقوله مخاطباً له تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

وتأتي حركات الصلاة الرياضية لتعطي الجسم حقه من القوة والنشاط، وإذا التفتنا إلى ما يترتب على مقدمات الصلاة المطلوبة قبلها وأهمها الطهارة من الخبث والطهارة من الحدث المتمثلة بالغسل أو الوضوء غالباً، من الحيوية والنشاط الروحي والجسمي، ندرك جيداً ما يستفيده المصلي من صلاته هذه في محطتها الأولى من المنافع البدنية والروحية، ويضاف إلى الفائدة البدنية المذكورة فائدة أخرى يطلب من المكلف توفيرها لجسمه وهي تغذيته بما يقويه بتناول وجبة الطعام الأولى تجاوباً مع حاجته الجسمية لذلك، بعد تخلل الفاصل الزمني بين هذه الوجبة ووجبة العشاء السابقة حيث أن الشارع المقدس يطلب من المكلف مراعاة هذه الحاجة لجسمه من أجل أن ينطلق في ميدان جهاده العملي وهو قوي نشيط جسمياً وروحياً.

وبتأدية كلتا الوظيفتين التشريعية بالصلاة والطبيعية بتناول طعام الصباح يكون المكلف قد أعطى لشخصه حقه المادي والروحي وهذا ما أراده الدين منه وكلفه به ليكون قوياً جسمياً ونفسياً.

وقد ورد الحث على ذلك في العديد من الآيات الكريمة والروايات المباركة.

كما ورد الحث على بقاء المكلف مستيقظاً بعد تأدية فريضة الصبح حتى مطلع الشمس وذلك من أجل ملء فراغ هذا الوقت بالأمور العبادية وينال الثواب المضاعف على ضوء بعض الروايات الواردة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[1].

حيث ورد في التفسير أن المراد من كلمة ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ﴾ صلاة الصبح، ومعنى كلمة ﴿مَشْهُودًا﴾ أن هذا الوقت تشهده أي تحضر فيه أولاً ملائكة الليل وتسجل للمكلف ثواب أعماله التي قام بها فيه على أنها من أعمال الليل وبعدها تشهده ملائكة النهار لتسجل له ثواب أعمال النهار وذلك بملاحظة كون هذا الوقت أي وقت ما بين الطلوعين محسوباً من الليل والنهار لكونه وسطاً وبرزخاً بينهما، ويضاف إلى الفائدة الأخروية المذكورة، وهي فائدة مضاعفة الثواب فائدة أخرى وهي زيادة الرزق لأن هذا الوقت هو وقت توزيع الأرزاق فالشخص الذي يبقى مستيقظاً فيه ينال نصيبه منه، أي من الرزق، والذي ينام فيه يُحرم من ذلك، ولعل ذلك هو السر في كراهة النوم في هذا الوقت لأنه يؤدي لأن يحرم الشخص نفسه من زيادة الثواب والتوسعة في الرزق.

وبعد تأدية المكلف صلاة الصبح وتغذية روحه ونفسه بالتدبُّر في مضامين أقوالها ومرامي أفعالها مع تقوية بدنه بحركاتها الرياضية وبما تناوله من الطعام والشراب في محطته الزمانية الأولى، ينطلق غالباً في درب البناء والعمل المقرب له من الله سبحانه والنافع له في الدنيا والآخرة. ويستمر على انطلاقته هذه حتى يصل إلى المحطة الزمانية الثانية وهي وقت وجوب صلاة الظهرين

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.

وهنا يحتاج لأن يتزود مرة أخرى من فرضي الظهر والعصر ما يغذي به عقله بالتدبُّر والتفكر ونفسه بالخشوع والخضوع ويقوي بدنه بحركاتهما الرياضية وخصوصاً الركوع والسجود وفي هذا الوقت نفسه يغدو بحاجة إلى تناول وجبة طعام الغداء ليحصل التلاقي بين التغذية النفسية بالعبادة والجسمية بتناول الطعام والشراب، وحيث أن التغذية الثانية مطلوبة من المكلف شرعاً وطبعاً يكون قيامه بها من مصاديق العبادة بمعناها العام الشامل لكل عمل اختياري يمارسه المكلف بإرادته وفق إرادة الله سبحانه، ويترتب على تأدية الفرضين المذكورين في وقتهما مضافاً إلى الثواب الجزيل تكفير السيئات التي سجلت عليه أثناء ممارسته أعماله النهارية وشؤونه الحياتية نتيجة عدم العصمة، ويستفاد ذلك مما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾[(١)].

أن الصلوات الخمس تكفر ما يحصل بينها من الخطايا والذنوب وما ذكرناه في توجيه الوقت الثاني بالنسبة إلى فريضتي الظهر والعصر ينطبق على تحديد وتقييد فريضتي المغرب والعشاء بوقتهما الثالث حيث يقف الإنسان بكل كيانه وسيارة نفسه المتعبة عند المحطة الزمانية الثالثة من أجل التعبئة والتغذية الروحية والجسمية معاً.

والوجه في تحديد الفرضين الأخيرين بالوقت الثالث الأخير في غاية الوضوح لأنه ينسجم غاية الانسجام مع حاجة الإنسان الطبيعية إلى أن يُخلد إلى الراحة والسكون بعد تحمله التعب خلال مسيرته النهارية الشاقة وتأتي تأديته لفريضتَي المغرب والعشاء في وقتهما المحدد لهما، لتعطيه مقداراً من الراحة الجسمية بحركات الصلاة الرياضية مضافاً إلى ما تعطيه من الراحة النفسية بما يستلهمه من معاني أذكارها ومضامين أقوالها، من الثقة القوية والاطمئنان الثابت بحكمة الله سبحانه ورحمته وأنه لم يوجب عليه الصلاة له

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

والاتصال به فكرياً وروحياً إلا من أجل أن يستمد منه الحول والقوة التي تساعده على إدراك أهدافه المشروعة والتغلُّب على الابتلاءات التي تقف في طريق وصوله إلى غايته وإدراكه أمنيته المحبوبة له والمشروعة من قبله تعالى.

والنتيجة المترتبة على تلك الثقة الواعية والاطمئنان الواثق هي تسليمه الأمر إلى الله سبحانه وترك المصير والعاقبة لإرادته وحكمته فإذا اقتضت إرادته وشاءت حكمته أن يتحقق له ما طلبه منه سبحانه بعد فرض رجحانه ومحبوبيته له وبعد إيجاد المقدمات الطبيعية التي يتوقف عليها وجوده خارجاً، قابل ذلك بالشكر مردداً قول النبي سليمان عليه السلام:

﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾[1].

وإذا اقتضت حكمته تعالى عدم تحقق مطلوبه رغم رجحانه في ذاته وتوفير مقدماته، قابل ذلك بالصبر والرضا مردداً قول الإمام عليه السلام في دعائه:

«ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور»[2].

وهذا كله بالنسبة إلى التغذية الروحية والتقوية الجسمية التي يحصلها المؤمن المصلي المؤدي لصلاته الواجبة في وقتها الثالث وهو وقت المغرب حيث يحصل لنفسه الغذاء الروحي المعنوي بما يستلهمه من صلاته الواعية من الدروس التربوية السامية.

كما يحصل لجسمه القوة بحركاتها الرياضية المقوية وفي نفس هذا الوقت ـ أي وقت صلاة المغرب والعشاء ـ يصبح جسمه بحاجة إلى تناول الوجبة الثالثة من الطعام بسبب تخلل الفاصل الزمني بينها وبين الوجبة الثانية مع قيام الإنسان غالباً بأعمال بدنية بعد تناول وجبة الغداء مباشرة أو بعد تخلل فترة استراحة.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٢) دعاء الافتتاح.

ومن المعلوم أن الحركة الجسمية تسبب سرعة هضم ما تناوله من الطعام ليصبح بحاجة إلى تناول الوجبة الثالثة (العشاء) التي يقترن وقتها غالباً بوقت الوجبة الغذائية الروحية التي يحصلها المصلي بتأدية صلاته في وقتها الثالث الأخير.

وبملاحظة التقارب والتقارن بين وقت احتياج جسم الإنسان إلى التغذية والتقوية الجسمية، ووقت احتياج نفسه وروحه إلى التغذية والتقوية المعنوية، في أوقات الصلاة الثلاثة وهي وقت الفجر للصبح ووقت الزوال للظهرين ووقت المغرب لصلاة العشاء والمغرب.

ندرك الحكمةَ في تحديد أوقاتها الثلاثة المذكورة لا بالأقل أو الأكثر، والحكمة في التقارن والتوافق بينها وبين أوقات احتياج الجسم للتغذية والتقوية.

أجل: قد شاءت الحكمة الإلهية أن يحصل التوافق والاتفاق في الوقت ذاتاً وكماً بين حاجتَي الروح والجسم حيث كان كل واحد من الأوقات الثلاثة ظرفاً لتناول كل واحد منهما غذاءه المناسب له.

فوقت الفجر الصادق هو وقت تناول الروح غذاءها بصلاته ـ أي صلاة الفجر ـ كما أنه ظرف لتناول الجسم غذاءه المناسب له في هذا الوقت، وكذلك وقت الظهرين ويعبر عنه بالزوال هو وقت تناول الروح غذاءها المعنوي بفريضتي الظهر والعصر، وهو نفسه وقت لتناول الجسم غذاءه المادي المعبر عنه بطعام الغداء، ووقت العشاءين هو وقت لتناول الروح غذاءها المعنوي بتأدية فريضتي المغرب والعشاء، وهو نفسه وقت لتناول الجسم غذاءه المعبَّر عنه بطعام العشاء.

وتأتي النوافل الصلاتية الموقتة بأوقاتها المحدودة المرتبطة بالفرائض المعلومة لتكون بمنزلة الفواكه والأطعمة الثانوية التي لا يتوقف عليها حفظ

حياة الإنسان وإنما تزيده قوة ونشاطاً كما هو الشأن بالنسبة إلى الفواكه المادية والكماليات البدنية.

وخلاصة القول في توجيه تقييد بعض الواجبات ببعض الأوقات هو أن هذا النوع من الواجبات المسمى بالواجب الموقت يكون لإيجاده في وقت معين دخل في ترتب غرضه عليه فيأمر المولى الحكيم بإيجاده فيه تمهيداً لحصول الغرض المقصود منه فيكون هذا القيد الزماني وهو الوقت الذي قيد الواجب به باشتراط صحته وترتب الأثر عليه بإيجاده فيه مثل سائر القيود الأخرى التي يكون لها دخل في ترتب الأثر على الواجب الذي قيد بها.

وذلك مثل تقييد الصلاة واشتراط صحتها بالتوجه إلى القبلة وبالستر والطهارة من الحدث والخبث وبهذا الاعتبار كان الإتيان بها ـ أي بالصلاة ـ في وقتها المحدد لها شرطاً في صحتها كما كانت القيود المذكورة شرطاً لها.

ويأتي دور الأذان الإعلامي ليكون الوسيلة الإعلامية المفضلة التي تخبر وتعلن عن دخول كل وقت من الأوقات الثلاثة التي مر ذكرها، وذلك من أجل أن يستعد المكلف للإتيان بواجب صلاته في وقته المحدد له بنظام إلهي حكيم يمرن المكلف على الانتظام في حياته العملية فيجعل لكل عمل يمارسه وقته المناسب له ثم يلتزم بتنفيذ ذلك ويأتي بكل عمل في وقته وبذلك يحفظ وقته من الضياع وحياته العملية من الفوضى.

ويعتبر وضع هذا النظام وذلك الانتظام الذي يلتزم به المكلف المسلم نتيجة تأثره بالنظام الإلهي وتجاوبه معه بالالتزام النفسي والتطبيق العملي من أهم الدروس التربوية التي يستطيع أن يستلهمها من مدرسة النظام والتنظيم في الإسلام.

وقد عرفنا الحكمة الكامنة وراء تقييد المشرع الحكيم الأعظم فرائض الصلاة الخمس بأوقاتها الثلاثة كما عرفنا الحكمة في تشريع الأذان الإعلامي، وبقي علينا أن ننبه على الحكمة التي اقتضت تخصيصه وتعيينه للقيام بهذا

الدور دون سواه من الوسائل الإعلامية التي استعملها غير المسلمين للإعلان عن الوقت أو الأمر الذي يهمهم فنقول والله ولي التوفيق:

إن الخصوصية التي تميز بها الأذان الإعلامي عن غيره من الوسائل التي استُعملت عند غير المسلمين أو التي يمكن استعمالها من قبلهم أي من قبل المسلمين.

تعتبر في نظر المنطق الديني والذوق الإسلامي من أبرز الخصوصيات المميزة والمرجحة له على غيره، وذلك لأن لكل فصل من فصوله التي مر الحديث عنها معناه الديني ورمزه الروحي الذي يهز المشاعر ويوقظ العقول فيكون منبهاً للإنسان المسلم بكل كيانه الحسي المادي باستماعه صوت المؤذن المدوي في الآفاق، والمعنوي الروحي بنفوذ معنى ذلك الصوت إلى داخل عقله وقلبه فيبعث فيهما الوعي واليقظة لينهض بكل وجوده لتلبية نداء ربه للقيام بواجبه في وقته بوعي يحرك الفكر بالتأمُّل والتنبُّه لعظمة من يريد تلبية ندائه مع خشوع يملأ القلب بالانفتاح عليه والاستلهام من مدرسة هذه العبادة الخاشعة لكل الدروس النافعة والرافعة في الدنيا والآخرة.

وبذلك يتجلى الفرق الواضح بين الأذان كوسيلة إعلامية شرعها الله سبحانه لغاية تنبيه الإنسان وإعلامه بدخول وقت واجبه، وسائر الوسائل الإعلامية المشروعة من قبل البشر للإعلام بدخول وقت مناسبة دينية أو غيرها حيث أن الإعلان الشرعي بلفظه ومعناه يهز كل كيان الإنسان المسلم بعنصريه المادي الحسي والمعنوي الروحي لينهض بكل طاقاته وبكل وعي ونشاط لتلبية نداء مولاه وامتثال تكليفه الذي لم يوجهه إليه إلا ليعود بالخير والسعادة عليه.

وأما الوسائل المادية البشرية المتبعة من قبل التابعين لغير الإسلام فهي أشبه بألفاظ مهملة غير موضوعة لمعنى يُعتد به ولذلك لا تحرك من الإنسان سوى الجانب المادي بسماع صوتها وصداها ولا تنفذ إلى داخله لتحرك الجانب المعنوي منه كما يحصل بالإعلام الشرعي الإسلامي.

ومع غض النظر عن هذا الفرق الواضح بين الإعلامين الشرعي والبشري فالترجيح يكون في نظر المؤمن الواعي للإعلام الشرعي الإلهي وذلك لصدوره من الإله الحكيم العليم الذي لا يشرع للإنسان إلا ما يكون راجحاً ومفيداً له من جميع الجهات ولا بد أن يكون أرجح وأصلح مما يشرعه الإنسان في أي مجال من المجالات، باعتبار أن كل تشريع يستمد قيمته وأرجحيته من قيمة مشرعه فبقدر ما يكون أعلم بمصلحة المشرَّع له يكون تشريعه أرجح وأنجح في الميزان الشرعي والمنطق الديني وحيث أن الله سبحانه هو خالق الإنسان ومبدع الأكوان فيكون أعرف بحقيقته وأعلم بما يؤدي إلى مصلحته فيأمره به ليوصله إليها كما أنه أعلم بما يؤدي إلى مفسدته فينهاه عنه ليسلمه منها.

وبذلك كان التشريع الإسلامي متفوقاً على كل التشريعات والتنظيمات المنسوبة إلى الأديان السابقة والنظم الوضعية اللاحقة لأن الأولى إما منسوخة بالشريعة الجديدة الخاتمة الأكمل والأشمل أو ممسوخة محرفة عما نزلت عليه من قبل السماء، والثانية مشرعة من قبل الإنسان الجاهل بحقيقة المشرَّع له فلا يعرف ما يُصلحه ويَصلُح له من التنظيمات وقد بينت ذلك في أكثر من بحث من بحوث الجزء الأول من وحي الإسلام، وكذلك في الجزء الثاني حول فلسفة الصيام في الإسلام، والكتاب الثالث حول فلسفة الحج في الإسلام.

هذا وقد شاءت الحكمة الإلهية والرحمة السماوية أن ترغِّب المؤمنين المصلين في الاهتمام بشعارَي الأذان والإقامة ببيان ما يترتب على الإتيان بهما قبل الصلاة، من الأجر الجزيل والثواب العظيم، وذلك بما ورد عن أهل البيت عليهم السلام من الروايات المباركة حول هذا الموضوع.

منها: ما روي عن بلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وآله من قوله:

وسمعتهُ ـ أي الرسول صلى الله عليه وآله ـ يقول: «**مَن أذّن في سبيل الله صلاة واحدة إيماناً واحتساباً وتقرُّباً إلى الله عزّ وجل غفر الله له ما سلف من ذنوبه ومَنَّ عليه**

بالعصمة فيما بقي من عمره وجمع بينه وبين الشهداء في الجنة»[1].

ومنها: ما روي عن الإمام الصادق من قوله عليه السلام: «إذا أنت أذّنت وأقمت صلّى خلفك صفان من الملائكة، وإذا أقمت إقامة بغير أذان صلّى خلفك صف واحد»[2].

ومنها: ما روي عن بلال أنه قال:

ورُوي أن الملائكة إذا سمعت الأذان من أهل الأرض قالوا: هذه أصوات أمة محمد بتوحيد الله تعالى فيستغفرون الله لأمة محمد حتى يفرغوا من تلك الصلاة[3].

وهناك أحاديث كثيرة وردت في ثواب الأذان وورد أقل منها في ثواب الأذان والإقامة معاً وهي موجودة في الجزء الرابع من الوسائل واقتصرت على ذكر القليل منها رغبة في الاختصار قدر الإمكان.

---

(١) الوسائل ج٤ ص ٦١٥ ح١٧.

(٢) الوسائل ج٤ ص٦٢٠ ح٢.

(٣) الوسائل ج٤ ص ٦١٦ ح١٩.

الفصل الثاني

في أجزاء الصلاة وما يعتبر في صحتها

بعد الفراغ من بيان الوجه في استحباب الإتيان بالأذان والإقامة قبل الصلاة وما يترتب على فصول كل واحد منهما من الفوائد الروحية وما يمكن أن يستلهم منها من الدروس التربوية التي تساهم في تعميق العقيدة واستقامة السلوك في درب التقوى والفضيلة.

أجل: بعد الفراغ من ذلك يأتي دور الشروع بالحديث حول فلسفة كل جزء من أجزاء الصلاة ابتداء بالنية والتكبير وانتهاء بالتشهُّد والتسليم ويُعطف على ذلك بيان الفوائد الروحية والدروس التربوية التي يمكن استفادتها من بعض التعقيبات المستحبة التي سنتعرض لذكرها بعد الفراغ من الحديث حول الموضوع الأصلي وهو فلسفة الصلاة في الإسلام ودورها الإيجابي في سعادة المؤمن الملتزم بها إيماناً وعملاً، فنقول وعلى الله التوكل وبه الاستعانة:

إن أول واجب ركني من واجبات الصلاة يتعيّن الشروع بالحديث عنه أولاً لأهميته وركنيته وثانياً لتقدمه الطبيعي على بقية الواجبات الصلاتية، هو قصد التقرُّب لله سبحانه وحده بفعل الصلاة بمعنى أن يكون الباعث الأساسي للإتيان بها هو قصد التقرُّب إليه تعالى وحده لا شريك له، فيعرف من ذلك أن قصد التقرُّب لله سبحانه لا يكفي وحده بل لا بد من اقترانه بالإخلاص والتجرد من أي باعث آخر يكون انضمامه إليه مبطلاً لمفعوله ومانعاً من ترتب أثر الصحة عليه، أي على قصد التقرب له سبحانه.

وتفصيل ذلك أنه إذا انضم إلى قصد التقرُّب لله سبحانه ـ باعث آخر ـ

مرة يكون هذا الباعث الآخر هو الرياء وأخرى يكون غيره، فإذا كان هو الرياء فلا إشكال ولا خلاف في اقتضائه البطلان حتى ولو كان حاصلاً على وجه التبعية لقصد التقرُّب.

وإذا كان غيره ففيه تفصيل بين كونه الباعث الأصلي نحو الصلاة أو غيرها من الواجبات العبادية بمعنى أن يكونَ هو المحرك الأساسي والباعث الشرعي وهو قصد التقرب لله، كان تابعاً له في الباعثية والتحريك بحيث لو فرض عدم وجود ذلك الباعث لما كان قصد التقرُّب لله كافياً للباعثية والتحريك، وفي هذا الفرض يحكم ببطلان الصلاة ونحوها من الواجبات العبادية بسبب فقد شرط الصحة وهذا الفرض كسابقه من جهة الاتفاق على البطلان وعدم الصحة وإذا كان الباعث الآخر مساوياً للباعث الشرعي في درجة الباعثية والتأثير بمعنى أن يكون كل واحد من الباعثين الشرعي وغيره سبباً مستقلاً في التأثير بحيث إذا تجرّد عن الدافع الشرعي كان وحده كافياً لتحريك المكلف نحو العمل، ففي هذا الفرض وقع الخلاف بين الفقهاء فحكم البعض بالصحة والبعض الآخر بالبطلان وهو المناسب للاحتياط، وخصوصاً بالنسبة إلى الصلاة التي هي عمود الدين وأبرز أركانه التي بُني عليها.

وسيقع الكلام حول موضوع النية القربية المعتبرة في صحة العمل العبادي في عدة جهات:

الجهة الأولى: يبين فيها الوجه في اعتبار قصد القربة في صحة العمل العبادي دون غيره من الأعمال الأخرى الشاملة للمعاملات والإيقاعات ويعبر عن مجموعها بالمعاملة بالمعنى العام وهو ما لا يكون عبادة مشروطة بقصد التقرُّب لله سبحانه.

الجهة الثانية: يبين فيها الفائدة النفسية التربوية المترتبة على تقييد المؤمن العابد لله سبحانه بقصد التقرب إليه بما يمارسه من الأعمال العبادية كالصلاة

والصوم والحج والزكاة ونحوها من الواجبات العبادية.

الجهة الثالثة: يبين فيها الفوائد المعجلة المترتبة على الالتزام بهذا القصد والتعبد على مستوى الحاضر في هذه الدنيا وعلى مستوى المستقبل في تلك الدار الآخرة بعد الرحيل إلى جوار الله تعالى.

أما الوجه والحكمة في اعتبار قصد التقرُّب لله سبحانه في صحة الأعمال العبادية، وهو ما وعدنا ببيانه في الجهة الأولى، فقد عرف مفصلاً بما ذكرناه في مقام بيان الفلسفة والحكمة الكامنة وراء التعبُّد بتلك الأعمال التعبُّدية التي اشترط في صحتها قصد التقرُّب بها لله سبحانه، وأبرزها الصلاة والزكاة والصوم والحج، وذلك في خطبتين من خطب الجزء الأول من وحي الإسلام حيث تحدثت في الأولى حول فلسفة العبادة بمعناها العام صفحة ٢٨ من الطبعة الأولى و٣٤ من الطبعة الثانية، كما تحدثت في الثانية حول فلسفة العبادة في الإسلام صفحة ١٥٦ من الأولى وصفحة ١٦٥ من الثانية.

وحاصل ما ذكرته في هاتين الخطبتين حول فلسفة التعبُّد واشتراط قصد القربة لله سبحانه في صحة العبادة بمعناها الخاص وهي التي لا تصح إلا إذا أُتي بها بقصد التقرب لله سبحانه.

هو أن التزام المؤمن المتعبد بهذا الشرط واستمراره عليه في مقام العمل والامتثال يرسخ إيمانه بالله سبحانه ويقوّي علاقته النفسية به فيظل منشداً إليه ومرتبطاً به بكل تصرفاته التي يمارسها على صعيد هذه الحياة بمعنى أنه لا يفعل إلا ما يسمح له بفعله ولا يترك إلا ما يجوز له تركه وهذا هو روح العبادة بمعناها العام التي خلق الإنسان من أجلها.

وبذلك يُعرف أن للعبادة بمعناها الخاص دورين وأثرين:

أحدهما: ذاتي لها يترتب عليها لذاتها وبعنوانها الخاص بها.

والثاني: له بُعد عام لانعكاسه إيجابياً على سائر التصرفات ليجعل كل واحد منها صلاةً لله تعالى يتقرّب بها إلى الله زلفى، وذلك لأن قوة العلاقة

الإيمانية التي تنتجها العبادة بمعناها الخاص وخصوصاً الصلاة التي يؤديها المؤمن خمس مرات كل يوم تقوّي علاقة العبودية بذات الإله المعبود وتشد المؤمنَ العابدَ إليها بكل تصرفاته الاختيارية ليبقى متحركاً في نطاق شريعته وفلك إرادته وذلك يقتضي بطبعه ابتعادَه عن المخالفات الشرعية التي تقطع صلته بها وتحرفه عن خطها القويم وصراطها المستقيم وهذا ما عناه الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1].

وإذا دقّقنا النظر في نهي الصلاة عن المنكر وانتهاء المصلي بهذا النهي، وعرفنا أن ذلك عبارة أخرى عن التقوى التي يراد بها فعل الواجبات مع ترك المحرمات، نعرف أن الغاية الأساسية المقصودة من إيجاب الصلاة على المكلف هو التوصل بها إلى العبادة العامة المتمثلة بالتقوى بمعناها المذكور.

وقد نصّ الله سبحانه على أن الغاية المقصودة من الصيام هي التقوى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

والتأمُّل في مضمون الآيات الواردة في سياق الحديث عن فريضة الحج يوحي بأن الغاية المقصودة من تشريعها هي التقوى.

من هذه الآيات قوله تعالى:

﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3].

ويؤكد ذلك الآيةُ الأخرى التي تتحدث عن الغاية المقصودة من إيجاب بعض شعائر الحج وهي قوله تعالى:

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[4].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٤) سورة الحج، الآية: ٣٧.

وخلاصة الحديث حول الوجه في اشتراط صحة العبادة الخاصة بقصد التقرُّب بها إلى الله سبحانه هو أن الالتزام بهذا الشرط في العبادة الخاصة وخصوصاً الصلاة يؤدي إلى تقوية الإيمان بالله سبحانه وهي تثمر الالتزام العام بامتثال جميع الأحكام الشرعية بفعل المأمور به وترك المنهي عنه وذلك هو التقوى التي هي روح العبادة بمعناها العام التي خلق الله الإنسان من أجلها.

وقد صرح الله سبحانه بهذه الحقيقة الإيمانية بقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(١).

ويضاف إلى هذه الفائدة العامة الفوائدُ الخاصة المترتبة على فعل الصلاة بعنوانها الخاص كما سيتضح ذلك مفصلاً عند الحديث حول فلسفة كل واجب من واجباتها وكل جزء من أجزائها بحوله تعالى وتوفيقه وبهذا انتهى الحديث حول الجهة الأولى وبعدها نتحدث في الجهة الثانية حول الفائدة النفسية التربوية المترتبة على الإتيان بالعمل العبادي بقصد التقرُّب من الله ونيل رضاه وهي تغذية الشعور والإحساس التفصيلي بالعبودية الخاشعة الخاضعة أمام عظمة الإله المعبود بحق، والسيد المطلق والمالك الحقيقي لكل كيان الإنسان والمصدر الأساسي لكل خير ونعمة تحصل له كما هو صريح قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾(٢).

والنتيجة العملية لهذا الشعور الحي والإحساس الواعي هو بقاء الإنسان المؤمن الذي يعيش هذه الحالة الإيمانية ويحس بها من أعماق وجدانه الإيماني، على حالة خشوع وخضوع عقلي بالانحناء أمام عظمة هذا الخالق المبدِع المهيمن المسيطر على كل شيء، والغني بالغنى المطلق عن كل شيء، والقديم الأزلي والباقي السرمدي الذي كان ولم يكن هناك أي مخلوق

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٣.

ثم خلق الكون بما فيه ومن فيه وبعد ذلك ينتهي كل موجود بعد العدم إلى الزوال ويبقى وحده سبحانه مستقلاً بالسرمدية والخلود كما كان مستقلاً بالقِدَم والأزلية قبل الخلق والإيجاد وقد صرّح سبحانه بهذه الحقيقة التكوينية الواقعية بقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[1].

وقد ورد هذا المضمون في مناجاة بعض أهل البيت عليهم السلام ونقله المرحوم المقدس حجة الإسلام الشيخ حسين معتوق (قده) عن الكفعمي في كتابه النفيس منهج الدعوات صفحة ٨٩ الطبعة الثانية، وهو كما يلي: يا ذا الذي كان قبل كل شيء ثم خلق كل شيء ثم يبقى ويفنى كل شيء.. إلخ.

ويترتب على الخضوع العقلي والانحناء الذاتي أمام عظمته سبحانه الخضوع النفسي والخشوع القلبي أمام هذه العظمة وبصورة مستمرة ومستقرة حتى بعد الفراغ من الصلاة والانطلاق من قيودها العملية وصورتها الشكلية وذلك لأن المصلي بوعي وإدراك لفلسفة الصلاة وأهدافها التربوية يبقى دائماً مع روح هذه العبادة بالانفعال والتجاوب الفكري والعاطفي مع دروسها المربية وإيحاءاتها الباعثة نحو الهدف الأصيل، والغاية السامية التي شرعت الصلاة من أجل تحقيقها على الصعيد العملي، وهي غاية التقوى واستقامة السلوك في منهج الشرع القويم وصراطه المستقيم، ولتوضيح هذا المعنى أقول:

إن لكل واحد من الصلاة الخاشعة والمصلي الواعي جسماً وروحاً، أما جسمه وروحه فمعلومان، وأما جسمها فهو صورتها وشكلها الظاهري المتمثل بأفعالها وأقوالها، وأما روحها فهي التقوى التي تتمثل بذوبان إرادة المصلي العابد في إرادة الإله المعبود بحيث لا تكون له إرادة وراء إرادته كما لا يوجد له حول وقوة مستقلة عن حوله وقوته، والصلاة المطلوبة لله سبحانه

---

(١) سورة الرحمٰن، الآيتان: ٢٦ و٢٧.

هي التي تذوب روحها في روح المصلي كما تذوب روحه في روحها ليصبحا معاً روحاً واحدة منصهرة في بوتقة العبودية الخالصة المخلصة.

ونتيجة هذا الذوبان والانصهار بين هاتين الروحين هي أن يبقى المصلي على صلة بالله سبحانه وصلاة له بكل فعل أو ترك مطلوب لله تعالى كما تبقى الصلاة بروحها معه في كل تصرفاته الاختيارية ليصبح كل واحد منها صلاة مقربة من الله زلفى.

وبذلك يظهر الفرق والتمييز بين الصلاة الكاملة الفاعلة والصلاة الناقصة العاجزة عن الفاعلية والتأثير المطلوب، فالأولى هي التي تبقى مع المصلي بروحها الذائبة في روحه، حتى بعد فراغه منها، وخروج جسمه من حدود جسمها وصورتها ونتيجة هذه المصاحبة تأثيرها على سلوكه ليبقى متصلاً بالله سبحانه ومصلياً له بالصلاة العامة وهي روح الصلاة الخاصة، وذلك باستقامته في خط التقوى بكل تصرفاته وعدم انحرافه عنه تحت أي تأثير، ولو فرض حصول انحراف جزئي نتيجة عدم العصمة فسرعان ما يعود إلى نهج الاستقامة ومن باب التوبة بسبب الترابط والالتحام الحاصل بين روحه الخاشعة وروح الصلاة الكاملة الفاعلة.

وأما الصلاة البتراء الناقصة فقد عُرف المراد منها لأنها ضد الأولى الكاملة (وبضدها تتميز الأشياء).

حيث يُفهم من المقابلة بينهما أن المراد من الثانية هو الصلاة التي يقف التلاقي والاجتماع بينها وبين المصلي، وينحصر في إطار الجسم والصورة، حين قيامه بها بدون حصول التقاء وارتباط بين روحيهما وإن حصل فهو ضعيف ينقطع بمجرد افتراق جسميهما بفراغه منها وخروجه من حدود صورتها وشكلها الظاهري.

وهذا هو السر في عدم نهيها لصاحبها عن الفحشاء والمنكر ليكون بسبب عدم نهيها له وانتهائه عنهما مصداقاً لقول النبي ﷺ المشهور عنه وهو

حديثه الشريف القائل: «**مَن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد عن الله إلا بعداً**».

ويلتقي مع هذا الحديث بالمحتوى والمضمون حديث النبي ﷺ الآخر الذي بيّن به نتيجة الصوم الناقص الذي يقف به الصائم الجاهل بحكمته وغايته الجوهرية وهي التقوى على صورته وشكله التقليدي المتمثل بالإمساك عن تلك المفطرات المعددة ضمن الأيام المحدودة وأكثرها مباحات ليطلق لنفسه الأمّارة بالسوء العنان في ميدان الأهواء والمخالفات الشرعية حتى وهو صائم وفي شهر الصيام، ومن المعلوم أن هذا النوع من الصيام الأبتر لا يترتب عليه سوى الجوع والعطش ليكون مصداقاً للحديث النبوي الذي مرت الإشارة إليه وهو قوله ﷺ ما حاصله:

«**رُبَّ صائم ليس له من صومه غير الجوع والعطش، ورُبَّ قائم ليس له من قيامه غير التعب والسهر**».

ولا يخفى أن آخر هذا الحديث يلتقي بمضمونه مع الحديث النبوي السابق الوارد في حق الصلاة الناقصة التي لا تنهى عن الفحشاء والمنكر وهو قوله ﷺ: «**مَن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد عن الله إلا بُعداً**».

وقد أشار شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء الحكماء أبو العلاء إلى مضمون الحديثين المذكورين الواردين في الصلاة والصوم الناقصين وذلك بقوله:

صلِّ وصم وطف بمكة ناسكا   سبعين لا سبعاً فلستَ بناسك
جهل الدِيانة من إذا عرضت له   أهواؤه لم يُلف بالمتماسك

وبعد الفراغ من بيان الوجه في اعتبار قصد القربة شرطاً في صحة العبادة بصورة عامة والصلاة خاصة في الجهة الأولى.

وبيان الفائدة النفسية التربوية المترتبة على اعتبار هذا الشرط في صحة الصلاة في الجهة الثانية.

يأتي دور الكلام في الجهة الثالثة لبيان الفائدة المترتبة على التزام المكلف بهذا الشرط إيمانياً مع تطبيقه عملياً في حاضر هذه الدنيا وما يترتب عليه من السعادة الخالدة في الآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلب سليم وعمل صالح فنقول:

إن الفائدة المترتبة على الالتزام بهذا الشرط إيمانياً وتنفيذه عملياً في هذه الدنيا هي أن يعيش الإنسان المؤمن الملتزم بنهج السماء إيماناً وعملاً، حالة الاطمئنان النفسي والثقة القوية بالنجاح والفلاح في هذه الحياة، بكل خطوة يخطوها على طريق الهدف الراجح في الميزان الشرعي مهما كان نوع هذا الهدف ما دام مشروعاً وما دام هو ـ أي المؤمن ـ قد أعدّ لهدفه عدته اللازمة له.

وذلك لعلمه بأن العبادة التي خلق الله سبحانه الإنسان من أجلها عبارة عن الموقف العملي الذي يُطلب منه اتخاذه تجاه الشارع المقدس وشريعته السمحاء على وجه التعبُّد والانقياد لإرادة الله التشريعية ولذلك يكون الهدف الذي يرسمه لنفسه في هذه الحياة منسجماً مع وظيفته العملية المطابقة للشريعة الإلهية، وحيث شاءت الحكمة الإلهية أن تدرك المسبباتُ بأسبابها الطبيعية الموصلة بطبيعتها إليها، فهو يتجاوب مع هذه الحكمة ويعد لهدفه المشروع عدته اللازمة له، ويتوكل على الله سبحانه ويلجأ إليه بالتوسل والدعاء لإنجاح سعيه وتحقق هدفه فإذا شاءت حكمته واقتضت رحمته ذلك كتب لسعيه النجاح وتحقق مطلوبه وإذا شاءت تأجيل حصوله إلى مستقبل الدنيا أو مستقبل الآخرة لكون ذلك هو الأصلح له ـ أي للمؤمن المتوكل ـ في علمه تعالى، تحقق ما أراده سبحانه من التأجيل ولم يحصل ما أحبّه المؤمن من التعجيل، وفي كلتا الحالتين يكون مع الله سبحانه، إما بالشكر له ـ على توفيقه وإنجاح سعيه ـ كما في الفرض الأوَل أو بالصبر والرضا بما قدّره الله له من تأجيل حصول المطلوب واستجابة الدعاء كما في الفرض الثاني، وهو في

كلا الموقفين ناجح ورابح لنيله في الأول ثواب الشكر مع ظفره بأمنيته المعجلة، ولنيله في الثاني ثواب الصبر والتسليم لإرادة الله سبحانه.

وبهذا البيان يتضح الوجه في تأثير التوجه إلى الله سبحانه والتنبُّه لعظمته وجلالته وحكمته ورحمته عندما يأتي المؤمن بالعمل الراجح وخصوصاً الصلاة، بقصد التقرُّب إليه ونيل الرضا منه في[1] حصول حالة الاطمئنان النفسي والثقة القوية بنجاحه وفلاحه في كل تصرفاته المشروعة من قبل الله والمحبوبة له، بلحاظ النتيجة الإيجابية المترتبة عليها إما في حاضر الدنيا أو في مستقبل الآخرة.

وبملاحظة ما ذكرناه سابقاً وكررنا ذكره لاحقاً حول هذا الموضوع يُعرف السر في القوة المعنوية التي يتمتع بها المؤمن نتيجة تمتعه بالقوة الإيمانية التي يستمدها من العبادة الواعية بصورة عامة ومن الصلاة الخاشعة بصورة خاصة حيث يقف بها يومياً خمس مرات بين يدي العظمة الإلهية والرحمة السماوية ليستمد منها الحول والقوة التي تصحبه وتنطلق معه في كل الأحوال والظروف لتكون الوسيلة في انتزاع النصر والتغلب على العدو المادي البشري إذا اصطدم به دفاعاً عن المبدأ والكرامة والوطن والعزة، أو هجوماً ابتدائياً عندما تقتضي المصلحة الإسلامية العليا ذلك.

كما تكون الوسيلةَ للثبات على المبدأ وعدم الهزيمة المعنوية أمام العدو الذي قد تتوفر له الوسائل العسكرية المتفوقة بالكم والكيف ويؤدي ذلك إلى الانتكاسة في حق المسلمين بسبب عدم التكافؤ بالنسبة إلى الأسباب المادية كما حصل ذلك في بعض المعارك التاريخية وقال أحد[2] أبطال الجبهة الإسلامية يومذاك ما حاصله:

---

(١) متعلق بكلمة تأثير الواقعة في وسط السطر الخامس.

(٢) هو عمار بن ياسر (رحمه الله).

والله لو ضربونا بسيوفهم حتى أوصلونا إلى سعفات هجر لبقينا على إيماننا بأننا على حق وهم على باطل.

فلسفة تكبيرة الإحرام ودورها التربوي في حياة الإنسان:

إن أول جزء ركني يجب على المكلف إتيانه بعد النية بمعناها التفصيلي السابق هو تكبيرة الإحرام وسيكون الحديث حول هذا الجزء في ثلاثة جهات:

الجهة الأولى: يبين فيها المراد من هذا الشعار الإسلامي المبارك القليل بلفظه ومبناه والكثير الكبير بمضمونه ومحتواه.

الجهة الثانية: يبين فيها مدى تأثيرها الإيجابي على بقية أجزاء الصلاة وما هو بحكمها مما يتوقف عليه صحتها أو كمالها.

الجهة الثالثة: يبين فيها الفوائد التربوية التي يمكن أن تستفاد منه.

أما الجهة الأولى فقد ورد في الجزء الثالث من جامع السعادات صفحة ٣٤٣ تفسير جملة (الله أكبر) بقوله:

وإذا كبّرت تكبيرة الإحرام تذكّر أن معناه أنه تعالى أكبر من أن يوصف أو أكبر من كل شيء أو أكبر من أن يُدرك بالحواس أو يُقاس بالناس فانتقل منه أي من التكبير إلى غاية عظمته وجلاله واستناد ما سواه إليه بالإيجاد والاختراع من كتم العدم، وينبغي أن تكون على يقين بذلك حتى لا يكذب لسانك قلبُك فإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله تعالى عندك فالله يشهد أنك كاذب، وإن كان الكلام صدقاً كما شهد على المنافقين في قولهم إن النبي رسول الله.

وإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله تعالى وأنت أطوع له منك لله ولأمره فقد اتخذته إلهك وكبّرته فيوشك أن يكون قولك (الله أكبر) كلاماً باللسان المجرد، وقد تخلف القلب عن مِساعدته وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرمه تعالى وعفوه.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «فإذا كبرت فاستصغر ما بين السموات العلى والثرى دون كبريائه فإن الله إذا اطلع على قلب العبد وهو يكبر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره فقال: يا كذاب أتخدعني فوعزتي وجلالي لأحرمنك حلاوة ذكري ولأحجبنك عن قربي والمسرة بمناجاتي»(١).

وعلق الزاقي في جامعه على الحديث المذكور بقوله: فاعتبر أنت قلبك حين صلاتك فإن كنت تجد حلاوتها، وفي نفسك سرورها وبهجتها وقلبك مسرور بمناجاته وملتذ بمخاطبته فاعلم أنه تعالى قد صدقك في تكبيرك وإن سُلبت لذة المناجاة وحُرمتَ حلاوة العبادة فاعلم أنه تعالى كذبك في تكبيرك وطردك عن بابه وأبعدك عن جنابه فابك على نفسك بكاء الثكلى وبادر إلى العلاج قبل أن تدركك الحسرة العظمى.

وحاصل ما يريد الزاقي (قده) الكشف عنه بكلامه، وبما نقله عن إمامه عليه السلام هو أن شعار (الله أكبر) ونحوه من الشعارات الدينية المقدسة التي طُلب من المكلف أن ينطق بلفظها بلسانه ويعبر بها عما ارتسم في لوح ذهنه من الصورة المشرقة المشيرة إلى الكمال المطلق والعظمة العظيمة بمعناها الشامل المستوعب لكل أنواع الكمال الذي ليس له حد محدود ولا سقف مسدود.

إنما طلب منه ـ أي من المكلف ـ ذلك من أجل تحقق الحضور الفعلي لهذه الجلالة المطلقة، وتلك العظمة المتألقة، في العقل بالوعي والإيمان الراسخ، وفي القلب بالخشوع والانفعال الإيجابي بذوبان النفس المطمئنة في الذات الإلهية المقدسة بالحب والانجذاب الواعي لتذوب إرادة العبد في إرادة

---

(١) نقله في جامع السعادات الجزء الثالث صفحة ٣٤٣ و٣٤٤، عن مصباح الشريعة المنسوب للإمام الصادق عليه السلام الباب ١٣ صفحة ١٤١ هذا في الطبعة السابقة وأما في الطبعة اللاحقة الثانية منشورات الأعلمي فهو موجود في باب ٣٩ صفحة ٨٧ و٨٨.

سيده الحقيقي ومالكه الواقعي فلا تصدر منه أية حركة إيجابية أو سلبية إلا في إطار إرادة هذا المالك الحكيم الرحيم الذي لم يكلفه بتطبيق أحكام شريعته والقيام بواجب عبوديته إلا من أجل أن يوصله بذلك إلى الخير والكمال والسعادة في الدنيا والآخرة ويُبعده عن موجبات أضداد هذه المعاني الكريمة.

ويتأكد ذلك الانجذابُ نحو الذات الإلهية العظيمة والذوبانُ في إرادتها الحكيمة بعد الانتقال مباشرة من النطق بصيغة التكبير إلى التلفظ بالبسملة المشتملة على اسم الجلالة المبارك المقترن بوصفي الرحمٰن الرحيم حيث يوحي ذلك للمؤمن الواعي بأن عظمة الله سبحانه وكبرياءه وكونه أكبر من كل كبير وأقدر من كل قدير وأغنى من كل غني، وهكذا لا يزيده إلا رحمة ورفقاً به وإحساناً إليه وتفضلاً عليه.

وبما ذكرناه ونقلناه من العبارات الشارحة للمعنى المقصود من جملة (الله أكبر) ندرك أن معنى هذه الجملة هو مضمون خبري له تحقق في ظرف الواقع ولوح الحقيقة ويكون النطق بها إخباراً صادقاً مطابقاً للواقع المخبر عنه.

ومن المعلوم أن هذه المطابقة التي يُنتزع منها عنوان الصدق المقرب من الله تعالى، إنما تكون إذا كان لمضمون الجملة المذكورة تحقق في عقل وقلب الناطق بها بالإيمان الثابت والتصديق الصادق ويُعرف ذلك بآثاره الكاشفة عنه المتمثلة بالخضوع المطلق والانقياد الكلي لإرادة الله سبحانه وحده لا شريك له ولازم ذلك عقلاً عدم التأثر بأي عامل وراء هذه الإرادة العظيمة الحكيمة مهما كان نوع هذا العامل وذلك لأنه إذا كان كبيراً معنوياً فالله الذي آمن بوحدانيته وعظمته المطلقة أكبر من كل كبير.

وإذا كان قادراً على التأثير والتغيير في تصرف العبد وصرفه عن منهج السماء إلى طريق آخر معاكس فالله تعالى ـ في عقيدة المؤمن ـ أقدر من كل قدير وهكذا.

ونتيجة هذه الحقيقة الإيمانية الثابتة هي استقامة سلوك العبد المصلي لله

سبحانه في خط عبوديته وعبادته له وحده لا شريك له وعدم تأثره سلباً بأي مؤثر آخر وراء الإرادة الإلهية.

ولو فرض حصول هذا التأثر والتأثير السلبي للعامل الآخر المادي المنافي للعامل الإلهي السماوي، كان ذلك كاشفاً عن فقد الباعث المبدئي أو ضعفه أمام المحرك المادي المقابل، وكلا الفرضين(١) منافٍ لمضمون صيغة التكبير، ولذلك لا يكون مطابقاً لواقع ذهنية ونفسية الناطق بها المعترف بحسب الظاهر بواقعية هذا المضمون، ولهذا كان كاذباً في الميزان الإيماني لعدم مطابقته لواقع اعتقاده، وإن كان صادقاً في ذاته لمطابقته للواقع الموضوعي الخارجي.

ولذلك وصف الله سبحانه المنافقين المعترفين بحسب الظاهر برسالة الرسول ﷺ بأنهم كاذبون في اعترافهم وشهادتهم له بذلك لأنهم يدَّعون بهذه الشهادة أنهم مؤمنون بالرسالة قلباً وواقعاً كما أنهم مؤمنون بها لساناً وظاهراً.

وحيث أن هذه الدعوى كانت مخالفة لواقع اعتقادهم، وصفهم الله سبحانه بأنهم كاذبون، وإن كان ما شهدوا به واعترفوا بوقوعه ثابتاً في الواقع.

وبهذا البيان ظهر الوجه في وصف الناطق بصيغة التكبير بلسانه والمخالف لمضمونها ـ بسلوكه ـ بكونه كاذباً.

ونحتاج بعد هذا لبيان الوجه في استحقاقه العقوبة الإلهية المتمثلة بحرمانه من حلاوة ذكر الله سبحانه والقرب المعنوي من ساحة رضاه ورضوانه ومن المسرة بمناجاته المؤدية لرحمته وغفرانه فنقول:

يظهر الوجه في ذلك من قوله تعالى مخاطباً ذلك الناطق المنافق: يا كذاب أتخدعني.. إلخ، فالعقوبة تكون على تعامله مع الله سبحانه بمعاملة المخادعة التي لا مجال لها مع علاّم الغيوب والمطلع على ما في الضمائر

---

(١) وهما فرض فقد العامل الإلهي المبدئي أو ضعفه.

والقلوب. وبالمقارنة يظهر اتحاد موقف هذا المنافق المخادع مع موقف أولئك المنافقين الذين تحدّث الله سبحانه عنهم بقوله:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[1].

ومن مجموع ما تقدم يظهر الوجه في زيادة البعد عن الله سبحانه بالنسبة إلى المصلي الذي لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر كما هو المستفاد من الحديث المشهور الوارد عن أهل البيت عليهم السلام حيث ورد فيه ما يلي: «مَن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد عن الله إلا بُعداً».

وذلك لأنه بعد اعترافه بأن الله الذي يصلي له هو أكبر من كل كبير وأعظم من كل عظيم، من خلال نطقه بصيغة التكبير (الله أكبر) المتضمنة لذلك كما تقدم مع الاعتراف بكونه الرحمٰن الرحيم المالك ليوم الدين والحساب لمجازاة كل مكلف بما يستحق على ما قدّمه بين يديه من عمل، إما بالخير إن قدّم خيراً أو بالشر إن قدّم شراً. قال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[2].

ويضاف إلى ذلك إعطاؤه الوعد والعهد بحصر العبادة به وقصرها عليه وكذلك الاستعانة بقوله مخاطباً الله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فإذا لم يعمل بمقتضى اعترافه بمضمون صيغة التكبير، ولم يفِ بوعده وعهده، كان بذلك كاذباً بالنسبة إلى اعترافه بكونه تعالى أكبر من كل كبير وناكثاً للعهد ومخلفاً بالوعد، وهذه المخالفات بمجموعها تسبب له زيادة بُعده عن الله سبحانه ورحمته وقربه من غضبه وعقوبته.

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٨ ــ ١٠.

(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ و٨.

هذا حاصل ما بيّنّاه في الجهة الأولى، وهو تفسير المراد من صيغة (الله أكبر) مع التعليق عليه بما تقدّم مفصلاً، وبعد ذلك يأتي دور الحديث في الجهة الثانية لنبين دور مضمون هذه الصيغة ومدى تأثيره في التفاعل والتجاوب مع مضمون كل مفردة من مفردات الصلاة وأجزائها الباقية ابتداء بالقراءة ومروراً بالركوع، وبعده السجود وبعدهما التشهُّد والتسليم ويلحق بهذه الأجزاء الواجبة بعض المستحبات المطلوبة بعد الصلاة أو أثناءها كالقنوت وسنقتصر في حديث الجهة الثانية على بيان دور التفاعل مع مضمون صيغة التكبير في التنبُّه للحالة التي يطلب من المصلي أن يكون عليها وللخصوصية التي يترجح له الالتفات إليها بوعي وتدبُّر ليكون بهذا وذاك على حالة إقبال على الله سبحانه بصلاته بقدر ما يكون ملتفتاً لمضامين أقوالها وأفعالها وسائر خصوصياتها.

وبعبارة أوجز وأوضح: المقصود بيانه في الجهة الثانية هو دور التفاعل مع مضمون صيغة التكبير في التنبه لمضامين بقية أجزاء الصلاة من أجل أن يعيشها وعياً في عقله وخشوعاً في قلبه كما يعيشها حركة في الجسم ونطقاً باللسان، وبذلك يكون مصلياً لله سبحانه بكل كيانه المادي الظاهري والمعنوي الباطني.

وأما ما يستفاد من كل واحد من سائر الأجزاء الواجبة أو المستحبة فهو ما سنبينه بعد ذلك إنشاء الله تعالى.

وحاصل ما أردنا لفت النظر إليه والتنبيه عليه في الجهة الثانية هو أن التفاعل مع مضمون صيغة التكبير حين النطق بها يمضي مع المصلي ويصحبه في طريق إتيانه ببقية أجزاء الصلاة وأول جزء منها يأتي به بعد صيغة التكبير هو سورة الفاتحة.

ونتيجة التفاعل مع مضمون هذه الصيغة هي التنبُّه والالتفات التفصيلي لمضمون كل كلمة ينطق بها من كلماتها وبذلك تحصل له حالة الخشوع

القلبي والانجذاب الروحي نحو الذات المقدسة بالحب والمودة التي تثمر له الانقياد والإطاعة.

وبهذا وذاك تحقق صلاته غايتها المقصودة وهي نهيها له وانتهاؤها بها عن الفحشاء والمنكر.

وهذا بخلاف المصلي الذي ينطق بصيغة التكبير بلسانه ولا يعي مضمونها بعقله ولا ينفعل به بعاطفته ووجدانه، فصلاة مثل هذا الشخص تكون ناقصة بتراء لا تدفع نحو البر والمعروف ولا تمنع عن الفحشاء والمنكر وذلك لأنها مرت على لسانه نطقاً وعلى بدنه حركة ولم تنفذ إلى داخله لتؤثر على عقله بالوعي وعلى قلبه بالخشوع وعلى نفسه بالانقياد والخضوع، ومن المعلوم أن هذه الفريضة المقدسة لم تعتبر عموداً للدين وأحد أركان الإسلام إلا من جهة تأثيرها الإيجابي الفعال على مجموع كيان الإنسان لتشده بدناً وروحاً إلى الله سبحانه وتربطه به وذلك يتوقف على نفوذ مضامينها إلى عقله لتنوره بالوعي وإلى قلبه لتجذبه بالخشوع وإلى نفسه لتصبح نفساً مطمئنة متحركة في طريق التقوى والإطاعة، ومحركة لبدن صاحبها لينطلق معها في نفس الطريق.

وقد ذكرتُ سابقاً أن الصلاة كصاحبها لها روح وجسم ويراد بجسمها شكلها الظاهري المتمثل بأقوالها وأفعالها ويراد بروحها التقوى فإذا التحمت روحها بروحه لتصبح روحاً تقية طاهرة فهي تحرك جسمه في طريق الاستقامة والرشاد وتنأى به عن سلوك طريق الانحراف والفساد وهذا هو معنى نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وأما إذا فقدت صلاته روح التقوى وكانت بذلك ميتة فإن لازم ذلك هو موت روحه معنوياً بسبب انفصال غذاء التقوى عنها فإذا صلّى وهو على هذه الحالة يكون مصلياً بجسمه الفاقد لروح التقوى وذلك بسبب موته معنوياً وعدم تحركه في طريق الاستقامة وسبيل الفضيلة.

كما أن الموت المادي الجسمي يسبب عدم تحرك الجسم في طريق الحياة.

وبمجموع ما ذكرناه ينتهي الحديث في الجهة الثانية التي ألقينا الضوء فيها على ما يمكن أن يترتب على التفاعل مع مضمون صيغة التكبير من الأثر الإيجابي المنشود بالنسبة إلى بقية أجزاء الصلاة.

وبعد الفراغ من الحديث في هذه الجهة يأتي دور الحديث في الجهة الثالثة لنبين ما يمكن أن يترتب على التجاوب مع مضمون هذه الصيغة من الفوائد التربوية وما يلازمها ويترتب عليها من المنافع الروحية والأخلاقية الرسالية في إطار الفرد والمجتمع فنقول وعلى الله التوكل وبه الاستعانة:

إن أول فائدة: تربوية تترتب على التجاوب الفكري والشعوري مع مضمون صيغة التكبير هي الحضور الدائم لتلك العظمة الإلهية في عقل وشعور الإنسان المصلي ليظل دائماً وباستمرار على حالة تكبير وإجلال وتقديس للذات الإلهية المقدسة ومعنى ذلك هو ذوبان وسريان مضمون هذه الصيغة من لفظها المنطوق به إلى عقله بالوعي والإدراك وإلى عاطفته بالتجاوب والانفعال الإيجابي من أجل أن يبقى لهذا الوعي، وذلك التجاوب أثره المعجل بالنسبة إلى بقية أجزاء الصلاة كما ذكرنا، ومن أجل أن يبقى مضمونها ـ أي مضمون صيغة التكبير ـ منطلقاً مع شخصية المؤمن المصلي وملازماً لحياته العملية ملازمة النور والحرارة للشمس، وتكون نتيجة هذه الملازمة هي بقاؤه على حالة صلةٍ بالله وصلاة له بكل تصرف اختياري يمارسهُ على صعيد هذه الحياة.

وهذه النتيجة الإيجابية هي الغاية الأساسية المقصودة من التكليف بالعبادات الخاصة التي لا تصح إلا مع الإتيان بها بقصد التقرُّب لله سبحانه.

وقد عبّر الإمام علي عليه السلام عن هذا الحضور الدائم والشعور الملازم لحياة المؤمن المصلي وإدراكه الواعي بقوله ما مضمونه:

«ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه ومعه وقبله وبعده».

وقريب منه قول ولده الحسين سيد الشهداء في دعاء يوم عرفة:

«متى غبتَ حتى تحتاجَ إلى دليل يدل عليك ومتى بعدتَ حتى تكونَ الآثارُ هي التي توصل إليك؟ عميت عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً».

وخلاصة ما تقدّم بيانه أن الفائدة الأولى التي تترتب على التأثر الفكري والتجاوب العاطفي مع مضمون صيغة التكبير (الله أكبر) هي الحضور الدائم والشعور المستمر بعظمة الله وجلاله وذلك يقتضي بطبعه استقامة سلوك العبد في منهج التقوى وعدم انحرافه عنه تحت أي تأثير.

الفائدة الثانية: وما يتلوها من الفوائد المترتبة على التجاوب الفكري والشعوري مع مضمون صيغة التكبير يأتي تفصيلاً وتطبيقاً للفائدة الأولى وذلك لأن المصلي الذي تأثّر فكرياً وعاطفياً بمضمون هذه الصيغة وأنشد إلى ذات الله سبحانه حباً وقرباً وإلى شريعته عملاً وتطبيقاً.

يكون انشداده إلى الذات المقدسة وامتثاله لأحكام شريعته المباركة منطلقاً معه في كل ميادين الحياة ومجالات العمل بوظيفة العبودية، فهو بعد أن يؤدي واجبه نحو نفسه بتعلمه ما يجب عليه تعلمه عيناً من أصول دينه المعهودة وأحكام رسالته الواقعة محل ابتلائه في عباداته ومعاملاته، وبعمله بما تعلمه منها.

ينتقل وينطلق إلى ساحة المجتمع الصغير وهو أسرته ليقوم بما يجب عليه نحو أفرادها، فإذا كان له أبوان معها بادر للقيام بواجب البر والإحسان إليهما كما أمره الله سبحانه وعطف عليهما بقية أفراد الأسرة بتأدية الواجب المادي والمعنوي نحو زوجته وأولاده.

وبعد قيامه بما يجب عليه في إطار المجتمع الصغير (الأسرة) ينطلق إلى ساحة المجتمع الكبير ليؤدي ما يجب عليه أو يستحب له القيام به نحو أفراده.

وأول فرد يلتقي به على صعيد تأدية وظيفته الشرعية الاجتماعية هو جاره

الذي أوصاه الإسلام به وطلب منه أن يؤدي له حق الجوار المنصوص عليه في الشريعة الغراء تفصيلاً وبعد تأدية حق الجوار نحو جاره يتوجه نحوه تكليف أوسع لتأدية حقوق بقية أفراد المجتمع وهي حق الأخوة في الإسلام وبعده حق الأخوة في الإنسانية لأن الإنسان أخو الإنسان أحبّ أم كره، كما هو مضمون حديث مروي عن النبي محمد ﷺ.

وتتسع دائرة الحقوق لتشمل الحيوان والنبات وسائر المخلوقات وذلك بقيامه بالوظيفة الشرعية الثابتة في حقه تجاه أي كائن من الكائنات الموجودة في ساحة وجوده وفرض توجه تكليف وتحديد موقف عملي في حق المكلف تجاه أي واحد منها أي من تلك الكائنات.

ويعرف ذلك إجمالاً على ضوء الحديث المشهور القائل ما مضمونه: إن لله في كل واقعة حكماً، ولازم ذلك أن يكون لكل موضوع حكمه المناسب له وهو يختلف باختلاف الملاك الذي يقتضيه وقد شرحت ذلك مفصلاً في بعض أبحاث الجزء الأول من وحي الإسلام.

وكذلك يختلف الحكم والوظيفة العملية الثابتة في حق المكلف باختلاف العنوان المنطبق فعلاً على الموضوع فإن كان أولياً كان له حكمه وإن كان ثانوياً كان له حكم آخر ولا مجال لشرح ذلك مفصلاً في محل الكلام.

وإنما تعرضت لذلك باختصار من أجل بيان إمكانية توجه تكليفٍ وثبوت وظيفة شرعية وموقف عملي في حق المكلف في أي مجال من المجالات ومع أي كائن من الكائنات التي ينفتح الإنسان المؤمن عليها وينجذب بدافع القرابة التكوينية إليها وبذلك ندرك أن نتيجة انفتاح المؤمن المصلي على الكون ومَن فيه وما فيه من الكائنات على اختلاف أنواعها، هي إحساسه بوجود قرابة تكوينية وصلة واقعية تربطه بها وتشده بسلك الشعور الحي إليها ليرى نفسه أنه يعيش ضمن أسرة تكوينية مشاركة له في المبدأ والبداية وفي الهدف والغاية لأن المبدأ والمصدر لوجود الكائنات كلها هو الله سبحانه

والهدف والغاية المقصودة من خلق الكون وكل مَن فيه وما فيه من المخلوقات هي الانقياد والتحرك وَفق إرادة الله سبحانه التكوينية من أجل تحقق الهدف المقصود منها وهو خدمة الإنسان ومساعدته على تحقيق غاية إيجاده وهي عبادة الله سبحانه بالعبادة الاختيارية الصادرة منه بالتحرك الإرادي وفق إرادته تعالى التشريعية المترجمة بأوامره ونواهيه سبحانه.

وهذا بالنسبة إلى الجزء المعنوي من كيان الإنسان المتمثل بالعقل والإرادة والقدرة حيث يكون انقياده لإرادة الله التشريعية حاصلاً منه بإرادته واختياره كما هو واضح.

وأما الجزء المادي من كيانه المتمثل بالجسم فهو كسائر الكائنات الأخرى الفاقدة للعقل والإرادة والاختيار من جهة كونه خاضعاً للإرادة الإلهية التكوينية والنظام التكويني العام المسيِّر لسائر الموجودات بدون إرادة منها واختيار لها.

وبما ذكرنا يُعرف أن القاسم المشترك بين الإنسان وسائر الكائنات غير العاقلة، هو الجانب المادي منه المتمثل بالجسم كما ذكرنا وذلك من جهة كونه مشاركاً لها بالانقياد القهري للنظام التكويني العام المسير لها في طريق الغاية المخلوقة من أجلها.

وحيث أن العبادة الاختيارية الحاصلة من الإنسان لله تعالى بإرادته واختياره أفضل من العبادة القهرية الحاصلة من جانبه المادي ومن سائر المخلوقات غير العاقلة ـ كانت هي ـ أي العبادة الاختيارية الغايةَ المنشودة المستهدفة لله سبحانه من خلق الجن والإنس وقد صرح سبحان بذلك بقوله:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

كما عبّر سبحانه عن العبادة بمعناها العام الشامل لمطلق التحرك سواء

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

كان قهرياً، وهو الحاصل من الكائنات الفاقدة للعقل والإرادة أم اختيارياً حاصلاً بالإرادة والاختيار وهو الحاصل من الجن والإنس كما ذكرنا.

أجل: عبّر سبحانه عن العبادة بمعناها العام المذكور بالسجود والتسبيح في العديد من الآيات الكريمة وفي بعضها ورد التعبير بالصلاة مع التسبيح.

من جملة الآيات التي عبّرت بالسجود قولهُ تعالى:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[(١)].

وقولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[(٢)].

ومن الآيات التي عبّرت بالتسبيح قوله تعالى أول سورة الحشر:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[(٣)].

ونفس الآية وردت في أول سورة الصف، ومنها قوله تعالى في أول سورة الجمعة وبصيغة المضارع:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[(٤)].

ومن الآيات التي جمعت بين الصلاة والتسبيح قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[(٥)].

فقد أفادت الآيات المذكورة أن بقية المخلوقات الفاقدة للعقل والإرادة تشارك الإنسانَ بعبادة الله سبحانه بالتسبيح والتنزيه له عن كل ما لا يليق بكماله المطلق وبالسجود أمام عظمة الله والخضوع لنظامه التكويني المسير لها وفق

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٩.

(٣) سورة الحشر، الآية: ١.

(٤) سورة الجمعة، الآية: ١.

(٥) سورة النور، الآية: ٤١.

إرادته تعالى التكوينية والتعبير بمن في بعض الآيات ـ وهي للعاقل ـ وبما في بعضها الآخر ـ وهي لغير العاقل ـ من باب التغليب أي تغليب أحد النوعين على الآخر، وهو وارد في اللغة العربية.

والمقصود من وصف بقية المخلوقات بما وُصف به الإنسان من السجود والتسبيح والصلاة هو لفت نظره إلى حقيقة موضوعية مشتركة بين جميع الكائنات وهي حقيقة العبادة والخضوع لإرادة الله سبحانه إما قهراً وبدون إرادة واختيار كما في بقية المخلوقات الجامدة والنامية وتلحق بها الحيوانات لأنها تتحرك منقادة ومسيرة لغرائزها كما تلحق بها الملائكة أيضاً لأنها تتحرك بوحي من فطرتها التي فطرت عليها وهي فطرة الإطاعة والانقياد لإرادة الله سبحانه بدون سابق تفكير وتخطيط وعزم وإرادة.

أجل: إن القاسم المشترك بين جميع المخلوقات هو خضوعها وانقيادها لإرادة الله سبحانه إما قهراً كالمخلوقات المذكورة من الجامدات والناميات وما ألحق بها أو بالإرادة والاختيار كما في إطاعة الإنسان وعبادته الاختيارية بالنسبة إلى الجانب المعنوي من كيانه.

وأما جانبه المادي الجسمي فهو كسائر المخلوقات فاقدة العقل والإرادة من جهة خضوعه القهري لإرادة الله التكوينية كما ذكرنا سابقاً. وبالتفات الإنسان إلى هذه الحقيقة يدرك أنه ليس وحده مخلوقاً لعبادة الله سبحانه بل هو جزء من كل، وفرد من مجموع وجماعة تصلي لله معه في محراب الكون خلف إرادة الله سبحانه وتتوجه إلى قبلة الغاية التي خُلقت من أجلها.

ولا شك أن الإنسان المؤمن عندما يعيش هذه العقيدة في قلبه ويتفاعل معها بسلوكه فهي تزيده قرباً من الله سبحانه بالمزيد من الخضوع والإطاعة كما تزيده انفتاحاً على بقية المخلوقات بالوعي والاعتبار وإدراك أن عبادتها التي خُلقت من أجلها تتمثل بقيامها بالدور الذي خُلقت من أجله وهو خدمة الإنسان بحفظ نظام حياته ومساعدته على القيام بدوره الذي أوجده الله سبحانه

من أجله وهو عبادته وحده لا شريك له بالعبادة الاختيارية الصادرة منه بالإرادة والاختيار.

وقد صرح الله سبحانه في كتابه المجيد بالغاية التي أوجد من أجلها بقية المخلوقات وهي خدمة الإنسان بالعديد من الآيات المباركة.

منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[2].

كما صرح بالغاية التي خُلق الجن والإنس من أجلها وهي عبادة الله سبحانه بالعبادة الاختيارية كما ذكرنا، وذلك بقوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3].

وحيث أن العبادة الاختيارية أفضل من العبادة غير الاختيارية كما هو واضح يكون القائم بها أفضل من القائم بغيرها وتكون نسبة الثاني إلى الأول نسبة الخادم إلى مخدومه والعبد إلى سيده على ضوء ما تقدّم بيانه وتلحق الملائكة بسائر المخلوقات الفاقدة للعقل والإرادة من جهة انخفاض درجة عبادتها لله سبحانه عن درجة ومنزلة عبادة الإنسان له وذلك لأن إطاعتها لله سبحانه تنطلق من فطرتها التي فطرت عليها وأودعت فيها وهي فطرة الانقياد لإرادة الله سبحانه بدون أي حائل يقف في وجه اندفاعها مع فطرتها نحو غايتها فهي أشبه شيء بالماء الذي يجري بطبيعة سيلانه إلى الأسفل والطائر الذي يطير بطبيعته إلى الأعلى، وكذلك الفصائل الحيوانية فهي مسيرة لغريزتها التي تحكمها وتتحكم بها لتحركها بأي اتجاه ينسجم معها.

والجامع المشترك بين سائر الكائنات المقابلة للكائن البشري هو تحركها

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ١٣.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

في طريق الغاية التي خُلقت من أجلها، بدون إرادة واختيار، لأن الملَك أسير فطرته والحيوان أسير غريزته وغيرهما من الكائنات الفاقدة للعقل والإرادة أسير طبيعته كما ذكرنا قبل قليل، ومن المعلوم أن العبادة لله سبحانه تكسب قيمتها وتُعطى الدرجةَ الرفيعةَ من الثواب بقدر ما يبذله الكائن العابد من جهد وطاقة في سبيل القيام بها.

وحيث أن الإنسان يحمل في طي كيانه إلى جانب العقل والإرادة، غرائز جامحة وميولاً طامحة فهو يعيش الصراع الداخلي بين مبدأ هداه وميل هواه، في معركة الجهاد الأكبر، وبذلك تفترق عبادته عن عبادة غيره من الكائنات، من جهتين:

الجهة الأولى: أن عبادته تصدر منه بإرادته واختياره.

الجهة الثانية: أنها تصدر منه بمشقة ومعاناة نتيجة الصراع المذكور، وكلتا الخصوصيتين المميزتين مفقودتان في عبادة غيره.

ولهذا وذاك كان الإنسان المؤمن العامل بإيمانه أفضل حتى من الملائكة كما كانت عبادته أفضل من عبادتها.

وقد أراد الله سبحانه أن يعبّر عن هذه الأفضلية بأمر الملائكة بالسجود له سجود تكريم وتعظيم لا سجود عبادة وتقديس لأن الثاني لا يجوز لغير الله سبحانه كما هو واضح.

وخلاصة الخلاصة لمجموع ما تقدم بيانه حول صيغة التكبير (الله أكبر) هي أن المؤمن المصلي إذا نطق بلفظها بلسانه واستوعب مضمونها بعقله وتجاوب معه بوجدانه وعاطفته، أدى ذلك إلى تعميق إيمانه بعظمة الله وحكمته ورحمته وإلى انفتاحه على هذا الكون الكبير الصادر من ذلك الإله الأكبر والمنطلق معه نحو الغاية الحكيمة التي أُوجد من أجلها وهي عبادته سبحانه بالانقياد لإرادته والتحرك في سبيل تحقيق غايته.

وبملاحظة هذه الحقيقة الموضوعية يلتفت بوعي وتنبُّه تفصيلي إلى مشاركته له بالمصدر والبداية وهو الله سبحانه، وبالهدف والغاية وهي عبادته سبحانه بمعناها العام الشامل لمطلق الانقياد لإرادته الأعم من التكوينية التي يكون التحرك بموجبها بدون إرادة واختيار والتشريعية التي يكون التحرك بمقتضاها بالاختيار والإرادة، كما تقدّم بيانه مفصلاً.

ويعمق علاقةَ المشاركة بالبداية والغاية الالتفاتُ الواعي إلى أن عبادة أجزاء هذا الكون لله سبحانه بالعبادة القهرية كما تقدم تتحقق بخدمة الإنسان ومساعدته على تحقيق الغاية التي خلق من أجلها وهي عبادته سبحانه بالعبادة الاختيارية كما سبق بيانه، وقد ذكرنا بعض الآيات الدالة على أن الغاية التي خُلق من أجلها الكون هي خدمة الإنسان وأن عبادتها القهرية لله سبحانه تتحقق بحصول هذه الخدمة، ومن المعلوم أن معرفة مصدر هذه الخدمة وهو الله سبحانه والاعتراف له بهذه النعمة التي تفضَّل بها عليه بتسخيره الكون وما فيه لخدمته، يقتضي مقابلته بالمزيد من الشكر العملي المتمثل بالاستعانة بها على عبادته ومساعدة من يحتاج إلى مساعدته بأي نوع من أنواع المساعدة ويترتب على هذا الشكر الواعي زيادة النعمة ودوامها لقوله تعالى:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(1) مضافاً إلى ما سيناله غداً من السعادة الخالدة والنعيم الدائم مع رضوان من (الله أكبر).

ويقابل ذلك الكفرُ بالنعمة وما يترتب عليه من زوالها وأخذها من الكافر بها وبمصدرها.

وقد نقل الله سبحانه في كتابه الكريم كلا الموقفين عن شخصين مختلفين في المبدأ والسلوك.

أما موقف الشكر فقد نقله عن النبي سليمان الذي اعترف بفضل الله

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

وإحسانه إليه بإعطائه الملك الواسع الذي لم يُعط لأحد سواه، وذلك بقوله:

﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾(١).

وقد تمم الشكر القولي والاعتراف البياني بفضل الله سبحانه بالشكر العملي الذي تمثل بصرف نعمة الله سبحانه في سبيل إطاعته وعبادته والإحسان إلى خلقه فزاده الله فضلاً وثبت له نعمة الملك وفاء بوعده الذي أعلنه بقوله عزّ من قائل: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾(٢).

وأما موقف الجحود والكفر فقد نقله تعالى عن لسان قارون حيث قال معتقداً أن ثراءه الواسع كان بجهده الشخصي وبعلمه الذي مكنه من تحصيل تلك الكنوز الكثيرة: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾(٣).

وكانت عاقبة كفره ما تحدّث به القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾(٤).

وكانت هذه العقوبة المعجلة التي جازاه الله بها على كفره بنعمته تنفيذاً لِوَعيده الذي أبرزه بقوله سبحانه في آخر الآية السابقة:

﴿وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾(٥).

وفي ذلك فليعتبر المعتبرون.

القراءة ودورها التربوي في حياة المصلي:

بعد الفراغ من الحديث حول أهم جزء من أجزاء الصلاة وهو تكبيرة الإحرام وبيان دور التجاوب مع مفهومها الواسع في التوجه الواعي إلى

(١) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٣) سورة القصص، الآية: ٧٨.

(٤) سورة القصص، الآية: ٨١.

(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

مضمون كل آية من آيات سورة الفاتحة وآيات السورة التي يختارها المصلي للقراءة بعدها وهكذا بقية أجزاء الصلاة.

أجل: بعد الفراغ من ذلك يأتي دور الحديث حول الجزء التالي لتكبيرة الإحرام وهو الفاتحة والسورة التالية لها، ويعبر عن مجموعهما ـ بالقراءة ـ وقبل الشروع بذلك يترجح الشروع بالحديث حول الاستعاذة كما يترجح الإتيان بها قبل قراءة الفاتحة في الصلاة عملاً بقوله تعالى:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

الاستعاذة من الشيطان ودورها في السلامة من شره:

والمراد من الاستعاذة بالله اللجوء إليه والتوكل عليه لدفع شر الشيطان الذي يسعى دائماً لمنع الإنسان من حصول الخير وتحصيله ومن اتقاء الشر والسلامة منه باعتبار أنه عدو مبين للإنسان عبر التاريخ وموقفه العدائي الإغرائي من أبينا آدم الذي أدى إلى أن يهبط مع زوجه حواء ـ من جنة الراحة والسعادة ـ إلى أرض التعب والشقاء، أوضح دليل على عداوته الذاتية وخصومته التاريخية للإنسان.

وقد أكد الله سبحانه ذلك في الكثير من آيات كتابه الكريم، ومنها الآيتان المذكورتان:

ومنها قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٣].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٦.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[١].

وعلى ضوء ما يفهم من هذه الآيات الكريمة، من العداوة المتأصلة في كيان الشيطان لبني آدم ندرك أن الاستعاذة بالله من شره غير مختصة بوقت قراءة القرآن بل هي مطلوبة في كل زمان ومكان لأن عموم السبب يقتضي عموم المسبب، وإنما خصصت الآية الأولى طلب الاستعاذة بالله من شره بوقت قراءة القرآن لأن هذا الوقت هو وقت اللقاء الفكري والروحي بين الخالق ومخلوقه والسيد وعبده ليستلهم من آيات كتابه الكريم الدروس والتعاليم التي تؤدي به إلى ما أراد الله سبحانه أن يصل إليه ويحصل عليه من السعادة والكمال ويتعمق هذا اللقاء فيما إذا كان القرآن الذي يقرأه الإنسان المؤمن جزءاً من صلاته التي تمثل قمة الاتصال الفكري والروحي بالله سبحانه من خلال تدبُّره لمعاني السورة التي تجب عليه قراءتها في كل ركعة من صلاته الواجبة أو المستحبة لوجود خصوصيات تميزها عن غيرها من السور المباركة كما سيأتي توضيح ذلك مفصلاً إن شاء الله، فقراءة القرآن بصورة عامة تعتبر لقاءً فكرياً وروحياً بالله سبحانه وقراءته في بداية الصلاة تعمِّق هذا اللقاء وتساعد على استلهام الكثير من المعاني الكبيرة وتحصيل الفوائد الكثيرة وهذا وذاك يحرك غريزة الحسد لدى العدو اللئيم والشيطان الرجيم ليتحرك في طريق الإضرار بعدوه البشري بشتى الوسائل وخصوصاً في حال قيامه بين يدَي الله سبحانه حيث يحاول هذا العدو الحاسد أن يفسد عليه صلاته بالرياء الذي يوحي به إليه وبطريقة خفية لا يلتفت إليها إلا المؤمن الواعي المتحذر من كيده.

وحيث أن الرياء مرض نفسي خفي لا يلتفت إليه الكثيرون ويسري من

---

(١) سورة ياسين، الآيتان: ٦٠ و٦١.

نفس العامل المرائي إلى قصده ونيته ليقضي على الإخلاص فيها ويقضي على روح العمل فيقع باطلاً لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضرراً.

أجل: لأن الرياء مرض نفسي خفي فقد عبّر عنه الرسول الأعظم ﷺ بالشرك الخفي وذلك في الحديث المشهور الذي يقول فيه ما مضمونه:

«إن أخوف ما أخاف عليكم الشركُ الخفي».

فقيل: يا رسول الله وما الشرك الخفي؟ فقال:

«هو الرياء لأنه أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء».

وإذا عجز الشيطان عن إبطال صلاته من الأساس وتمكن المؤمن من تخلصها من شوائب الرياء والعجب ونحوهما من الأمراض النفسية التي تقضي على روح الصلاة لتقع سقطاً ميتاً لا حياة فيه ولا حركة له في طريق الهدف الكبير الذي شرعت من أجله.

أجل: إذا عجز الشيطان عن ذلك، فهو يسعى في سبيل التخفيف من قيمتها والتقليل من ثوابها، وذلك بصرف ذهن المصلي عن التدبر في معاني أقوالها المتمثلة بآيات السورتين وأذكارها الواجبة والمستحبة المعهودة، مع صرفه عن التفكر في مرامي أفعالها المعلومة إلى التفكر في الأمور الدنيوية المادية البعيدة عن روح الصلاة وجوهرها وذلك يؤدي غالباً إلى إبطال مفعولها وعدم ترتب الهدف المقصود من تشريعها وهو نهيها والانتهاء بها عن الفحشاء والمنكر كما أراد الله سبحانه وصرح به بقوله عزّ وجل:

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[١].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

ثم إن الاستعاذة المطلوبة لا تتحقق بمجرد النطق بعبارتها المتمثلة بقول القائل:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بل لا بد من العمل والتحرُّك في سبيل التخلص من شره، وذلك بتوفير الوسيلة الوقائية التي تمنع الشيطان من تحقيق غرضه العدواني مع الكائن البشري، وتختلف هذه الوسيلة باختلاف الموارد ففي مورد شروعه بالصلاة والابتداء بقراءة الفاتحة يطلب منه الالتفات تفصيلاً إلى عداوة هذا العدو وما يمكن أن يقوم به من الإضرار حال صلاته وبعد فراغه منها، وأخطر ضرر يسببه له هو إفساده عليه صلاته بالرياء ونحوه، والتعوُّذ من ضرره هذا يكون بالحذر التام والتحفظ من تسلله إلى داخل هذه الصلاة ليبطلها بأية وسيلة من الوسائل الشيطانية، ويكون الاحتياط والتحفُّظ من قيامه بهذا العمل العدائي ببذل أقصى الجهد في سبيل تحصيل الإخلاص لله في النية ليكون الباعث نحو العمل المأمور به شرعاً هو امتثال أمر الله سبحانه لا شيئاً آخر وراءه ويستمر على هذه النية الخالصة إلى نهاية عمله.

وبعد نجاحه في محاولته وانتصاره على عدوه في معركته يطلب منه أن يحافظ على الغاية التي شرعت العبادة وخصوصاً الصلاة، من أجلها، وقد نصّ الله سبحانه على الغاية المقصودة من الصلاة بقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ كما تقدّم.

وتحقيق هذه الغاية من الصلاة هو المعبر عنه بإقامة الصلاة في الكثير من الآيات التي عبرت بهذه الكلمة ـ أي إقامة الصلاة ـ بدل عبارة الإتيان بفعل الصلاة ونحوه من الكلمات التي تدل على طلب نفس فعلها وإيجادها خارجاً بأن يقال في مقام الأمر: آتِ بالصلاة أو يقال في مقام الإخبار عن فعلها: فلان أتى بالصلاة، وهكذا، والآيات المعبرة بالإقامة ومشتقاتها مختلفة في أسلوب التعبير وإن كان المعنى المقصود منها واحداً وذلك لأن بعضها عبّر بفعل المضارع كما في قوله تعالى في مقام حديثه عن المتقين:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾[1].

وبعضها عبّر بالفعل الماضي كما في قوله تعالى:

﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾[2].

وبعضها عبّر بالأمر كما في قوله تعالى:

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[4].

والمطلب الحيوي الذي ينبغي التنبُّه له والالتفات إليه من أجل معرفة الهدف المقصود منه، وهو قرن الزكاة بالصلاة في أكثر الآيات المشتملة على الثانية ـ أي على الصلاة ـ ويمكن معرفة الوجه في هذا القرن والاقتران بعد معرفة المراد من كلمة الإقامة التي تعلق الأمر بها في مقام الأمر بفريضة الصلاة وقد مرت الإشارة إلى المراد من هذه الكلمة وبه تفترق عن معنى كلمة الإتيان بالصلاة حيث يستفاد من الكلمة الثانية إيجاد نفس فعل الصلاة في الخارج، بينما يستفاد من الأولى وهي كلمة الإقامة معنى آخر وراء أصل وجود وإيجاد الصلاة خارجاً، وهو ترتيب الأثر وتحصيل الغرض المقصود من تشريع وجوبها، وهو الاستقامة في خط التقوى التي أشار الله سبحانه إليها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾[5].

وحيث أن إيتاء الزكاة الواجبة أو المستحبة من أبرز مصاديق إقامة الصلاة وتحقيق غايتها المنشودة مضافاً إلى الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، فقد قرن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

إيتاء الزكاة بإقامة الصلاة ليكون ذلك تنبيهاً على أهمية إيتاء الزكاة وكونه أحد مصاديق إقامة الصلاة بمعناها الإيجابي الذي مرت الإشارة إليه.

ويؤكد هذا المعنى ملاحظة فلسفة التشريع الإسلامي وروحه التي تنطلق به وتحركه في خط الهدف الكبير الذي أنزله الله سبحانه ليحققه على الصعيد العملي ويمكن أن نشير إليه بعنوانين كبيرين عبر الله بهما عن ذلك الهدف الرفيع والمقصد النبيل وهما عنوان الرحمة الرحيمة وعنوان الأخلاق الكريمة.

أما الأول: فقد ورد بصراحة ووضوح في قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

والثاني: ورد في قوله تعالى مادحاً رسوله الأعظم ﷺ وعلى آله الطاهرين: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾[2].

فقد مدح الله سبحانه رسوله الأكرم بتجمله بأسمى صفة وأرفع خلق شامل لكل مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ولا بد أن يكون كذلك ليتمكن من النهوض بالدور الطليعي الذي بعثه الله سبحانه ليقوم به وهو دور إتمام مكارم الأخلاق، وقد صرح ﷺ بذلك عندما قال في الحديث المشهور:

«**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، وقد أشار الشاعر إلى معنى هذا الحديث بقوله:

ومكارم الأخلاق كانت تشتكي نقصاً فتم بأحمدَ النقصانُ

كما أشار البوصيري إلى ذلك في قصيدته الميمية الرائعة:

فاق النبيين في خَلق وفي خُلُقِ ولم يُدانوه في علم ولا كرم
وكلهم من رسول الله ملتمسٌ غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم
فهو الذي تم معناه وصورتهُ ثم اصطفاه حبيباً بارىءُ النسم

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤.

منزهٌ عن شريك في محاسنهِ   فجوهرُ الحسن فيه غيرُ منقسم

وإلى المعنى المذكور أشار شاعر آخر بقوله في مدح الرسول الأعظم ﷺ:

بلغ العلى بكماله   كشف الدجى بجماله

حسنت جميعُ خصاله   صلوا عليه وآله

وقد فصل الله سبحانه اتصافَه بهذه الصفة، صفة الخلق العظيم بقوله تعالى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

وتنطلق الآية الثانية في نفس السياق وهي قوله تعالى:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(٢).

فقد جمعت الآيتان الأخيرتان بين الصفتين الأساسيتين الممثلتين لروح الإسلام الطاهرة وقلبه النابض بالخير والعطاء والحب والوفاء وهما: صفة الرحمة والخلق الكريم.

وحيث أن الكرم والسخاء ومساعدة المستضعفين البؤساء بإعطاء الزكاة ونحوها من أنواع البر من أوضح مصاديق الخلق الكريم والقلب الرحيم، فقد قرن الله سبحانه إيتاءَ الزكاة بإقامة الصلاة ليبين لنا أن الصلاة وبقية الشعائر الدينية تعتبر في نفسها أجساماً وأشباحاً ولا تكون لها قيمتها واعتبارها في ميزان التقدير والاحترام إلا إذا دبّت فيها روحُ الخلق الكريم والقلب الرحيم.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

الكلام حول سورة الفاتحة وما يستفاد منها من الدروس التربوية:

بعد الفراغ من الحديث حول الاستعاذة وما يستفاد منها من الدروس التربوية، يأتي دور الشروع بالحديث حول سورة الفاتحة، وسيكون الحديث حولها في ثلاث جهات:

الجهة الأولى: يبين فيها الوجه في تخصيص القراءة الأولى في الركعتين الأوليين من الصلاة، بهذه السورة دون غيرها من السور بحيث تغني عن غيرها ولا يغني عنها غيرها.

الجهة الثانية: نتناول فيها تفسير مفرداتها وجملها ـ أي جمل الفاتحة ـ تمهيداً لاستفادة ما يمكن استفادته منها من الدروس التربوية وهو ما يكون في الجهة الثالثة المعقودة لذلك.

ونبدأ الآن بالكلام في الجهة الأولى فنقول:

الوجه في اختصاص وتخصيص القراءة في الركعتين الأوليين بسورة الحمد هو انسجامها مع الهدف الكبير المقصود من تشريع وجوب الصلاة وهو الرجوع إلى الله سبحانه واللجوء إليه ليستمد منه المؤمن الموحد كل معاني الخير وخصال الفضيلة التي تعود عليه بالكمال والسعادة في الدنيا والآخرة، وحيث أن هذه السورة ـ أي سورة الفاتحة ـ مشتملة على الأسلوب الذي يتناسب مع الهدف المذكور بالوجه المميز لها عن غيرها من السور، كانت هي المعينة لافتتاح الصلاة بها، لتكون المفتاح المعنوي الذي يفتح به المصلي أقفال كنوز الفضل والرحمة والعزة والهداية والاهتداء لصراط الحق المستقيم في العقيدة الصحيحة والشريعة الكاملة العادلة والسيرة المستقيمة الفاضلة.

وتوضيح ذلك أن الإنسان الواعي العاقل إذا كانت له حاجة كبيرة ومقصد جليل فهو يُطلب منه منطقياً المزاجعةُ والرجوعُ إلى مَن يكون قادراً على

تحقيقه بقوة قادرة وحكمة بالغة ورحمة واسعة ليكون الرجوع إليه منتجاً جزماً إما في الحاضر أو في المستقبل القريب أو البعيد.

والمراد بالبعيد مستقبل الآخرة حيث يُعطى للمؤمن المتوكل على الله سبحانه المطيع له، هناك في دار الجزاء ثواب التوكل وأجر الإطاعة.

والمراد بالمستقبل القريب، مستقبل الدنيا عندما تقتضي الحكمة الإلهية تأخير إجابة الطلب لوجود مصلحة في التأجيل أو مفسدة في التعجيل، في علم الله سبحانه، ولذلك يكون المؤمن المتوكل على الله سبحانه الواثق برحمته وحكمته، على حالة ثقة واطمئنان لنجاح سعيه وعدم فشله، فإذا عجل له مطلوبه شكر وإذا تأجل صبر راضياً بقضائه تعالى وحكمته ومردداً ما ورد في دعاء الافتتاح عن لسان الإمام المهدي عليه السلام:

«ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور».

ومن المعلوم أن الإنسان المؤمن العاقل عندما يحدد هدفاً ويلجأ إلى الله سبحانه ليعينه على تحقيقه لا بد أن يكون ذلك الهدف غير مبغوض لله سبحانه ليصح في ميزان العقل السليم والشرع الحكيم التوكل عليه وطلب الإعانة منه على إدراكه كما هو واضح.

وكذلك لا بد أن يكون المتوكل على الله تعالى واللاجىء إليه عارفاً بقدرته على الإجابة والإعانة على تحقيق الطلب المشروع.

وبقدر ما تكون المعرفة أعمق يكون التوسط واللجوء أقوى وأوثق وبعد تحصيل المعرفتين المذكورتين وهما المعرفة بمشروعية الهدف والمعرفة بقدرة الله سبحانه على تحقيقه، يُطلب من المؤمن المتوكل أن يعبر عن معرفته بالقدرة الإلهية والرحمة السماوية بالأسلوب المناسب لها وهو أسلوب الحمد والثناء والشكر لله تعالى بعد الالتفات التفصيلي إلى كونه هو مصدر الخير والعطاء في كل المجالات ومن جميع الجهات.

وقد صرح الله سبحانه بذلك لنكون على بصيرة ومعرفة به بقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[2].

تربية الله التكوينية للعالمين عامة وللإنسان خاصة:

وقد جاء الابتداء بكلمة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في أول سورة الفاتحة لهذا الغرض وإضافتها لاسم الجلالة من جهة كونه العنوان الكبير العظيم المشير إلى العظمة الإلهية المطلقة والمتمثلة بكون المتصف بها هو خالق الكون بقدرته ورب العالمين برحمته وحكمته وكلمة الرب مشتقة من التربية وهي عندما تضاف إلى الله سبحانه تحمل معنى يناسب عظمته العظيمة ورحمته الرحيمة ورعايته الحكيمة، والمناسب لهذه الصفات الكمالية هو معنى الرعاية والحفظ والتربية، ولا تطلق على غير الله تعالى إلا مضافة إلى كلمة مناسبة للمضاف مثل رب الأسرة ورب الدار ونحو ذلك، وإذا جردت من الإضافة يكون المقصود منها هو الله سبحانه.

والتربية المضافة لذاته سبحانه كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نوعان:

الأول: التربية التكوينية.

والثاني: التربية التشريعية.

والمراد بالتربية التكوينية ما يحصل منه سبحانه من رعايةٍ وعنايةٍ بمخلوقه وتدبير له والمراد بالتشريعية هي الحاصلة منه سبحانه للإنسان بواسطة التشريع كما سيأتي بيانها مفصلاً إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٨.

ونمثل للتربية التكوينية بما أحاط به الله سبحانه الإنسان من الرعاية التامة والعناية الفائقة منذ أول بدء تكونه في عالم الرحم إلى يوم ولادته وبعدها إلى يوم وفاته وبعدها وفي عالم البرزخ إلى يوم حشره ووقوفه بين يدَي الله سبحانه للحساب.

وتتمثل تلك العناية والرعاية بكلتا التربيتين التكوينية والتشريعية وحصرنا المثال للتربية التكوينية التي بدأنا الحديث حولها بالإنسان مع كونها شاملة لغيره من الكائنات لأفضليته وكونه خليفة الله سبحانه في هذه الدنيا، وقد عبّر الله سبحانه عن هذه الأفضلية بأمره الملائكة بالسجود له سجود احترام وتكريم، وذلك بقوله سبحانه:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

وبقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(٢).

ولتوضيح كيفية حصول التربية الإلهية التكوينية للمخلوق البشري نقول: إن هذه التربية التكوينية للمخلوق البشري وتشاركه فيها بقية الفصائل الحيوانية بالنسبة إلى الكثير من الأدوار والأطوار التي يمر بها المخلوق الحيواني ومع ذلك نخص البحث والحديث بالمخلوق البشري لأفضليته كما ذكرنا.

أجل: إن هذه التربية تحصل من أول لحظة حولت الإرادة الإلهية الغذاء الذي يتناوله الإنسان إلى دم وحولت هذا الدم إلى نطفة في صلب الرجل وإلى بويضة في رحم المرأة، وبعد حصول اللقاء الخاص بينهما يتم تلقيح البويضة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

بتلك النطفة وتأخذ طريقها في النمو والتدرج من مرحلة إلى أخرى حتى يتم تكوين الجنين بكسوة الله العظام باللحم الذي ينبت عليها ـ أي على العظام ـ فإذا تمّ له أربعة أشهر بعث الله فيه الروح والحياة وأخذ يتحرك في رحم أمه، وقد أشار الله سبحانه إلى المراحل التي يمر بها الكائن البشري في رحم أمه بقوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[1].

ومن مصاديق التربية التكوينية التي ترعى الجنين في رحم أمه جعل وجهه إلى جهة ظهر أمه لأنه محصن بالقفص العظمي الذي يقي وجهه الناعم من أثر الصدمات التي قد تصيب ظهر الأم.

وهذا بخلاف بطنها المجرد من هذه الحماية لعدم إحاطتها بالعظام لحكمة إلهية اقتضت ذلك لأكثر من سبب أقتصر على ذكر واحد منها وأترك غيره لفطنة القارىء وذوقه السليم، والسبب الذي أحببت الإشارة إليه هو أن المرأة تتعرض للحمل غالباً والجنين يبدأ تكونه صغيراً ثم يأخذ بالنمو فلا بد أن يكون بطنها مجرداً عن العظام ليكون ذلك مساعداً على الاتساع والتمدد تبعاً لزيادة نمو الجنين حتى يصل إلى مرحلته الأخيرة المحددة له في عالم الرحم، وتتأكد هذه الحكمة إذا كان حجم جسمه أكبر وأكثر من الوزن الطبيعي له أو كان أكثر من واحد.

والذي يؤكد ما ذكرناه من كون وجه الطفل إلى جهة ظهر الأم هو ما ورد في الشريعة الإسلامية من وجوب جعل ظهر أمه إلى جهة القبلة إذا توفيت وهي حامل به وكانت كتابية ـ أي ذات كتاب سماوي ـ كاليهودية والنصرانية.

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢ ــ ١٤.

وذلك من أجل أن يكون وجهه إلى جهة القبلة مراعاة لدفنه على الوجه الشرعي، ولا تجب مراعاة ذلك بالنسبة إليها بسبب كفرها.

ومن مصاديق التربية التكوينية التي ترعى الجنين في رحم أمه حَبْسُ دم عادتها غالباً ليكون غذاءَه الذي ينميه وينطلق به في طريق النمو والوصول إلى العمر الذي يكون قابلاً معه للخروج إلى عالم الدنيا بالولادة ليستأنف رحلته الجديدة محفوظاً بالعناية الإلهية والتربية التكوينية السماوية.

وتكون تغذيته بذلك الدم في عالم الرحم بواسطة المشيمة التي تشبه المطبخ حيث تصنعه وتكيفه بالنوعية والكيفية المناسبة لعمره الحالي ويستمر هذا المطبخ على القيام بدوره بتصنيع الدم وتحويله إلى الحالة المناسبة لعمر الجنين إلى أن يخرج من ظلمات الرحم إلى نور الوجود، وتبقى التربية التكوينية مستمرة على قيامها بدورها في سبيل رعاية حال المولود وتوفير ما يحتاجه لحفظ حياته واستمرار نموه وهو الغذاء الذي تحوله الحكمة السماوية والقدرة الإلهية من دم أحمر كان غذاءه في عالمه الأول، إلى حليب أبيض مسبوق بمادة خاصة لها الأثر البليغ في حفظ صحة الطفل وتزويده بقوة ومناعة تساعده على النمو الطبيعي والصحة الجيدة ولذلك تعتبر في نظر الطب الحديث والشرع الحنيف الأساسَ القوي الذي يقوم فوقه بناء شخصية الطفل من الناحية الصحية ولذلك وجب في الشريعة توفير هذه المادة للطفل أول ولادته نظراً لما يترتب عليها من منافع صحية كبيرة وعلى عدمها من مضار كثيرة وخطيرة حيث يفقد الطفل بفقدها المناعة الصحية ويصبح معرضاً للانتكاسة والإصابة بالعارض الصحي بسرعة.

وعلى ضوء ما ذكرنا من قيام التربية التكوينية بدور إيجابي بناء في مجال تصنيع حليب الأم وبواسطة المشيمة إلى النوعية والكيفية المناسبة لصحته في كل يوم وقد ظهرت هذه الحقيقة بواسطة فحص الحليب الذي يتناوله الطفل من أمه فوجدوه في كل يوم، على كيفية خاصة توافق صحته في هذا اليوم ولا يبقى على حالة واحدة باستمرار.

أجل: على ضوء ذلك يترجح شرعاً وطباً قصر غذاء الطفل أيام رضاعه على حليب أمه لأنه أنفع لصحته وأقرب لمصلحته.

هذا من جهةٍ جسميةٍ مادية ومن جهة أخرى معنوية يترجح حصر وقصر غذاء الطفل الرضيع على حليب أمه من جهة ما يحمله الحليب إليه من العطف والحنان الذي تعيشه الأم المرضعة حال إرضاعه، وذلك يساهم في زرع هذه الحالة النفسية النبيلة في حقل نفسية الطفل، وتنمو بعد ذلك بسقيها بماء الحب والبر والإحسان لتصبح ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[1].

والأُكُل المناسب لهذه الشجرة المعنوية هو حب الآخرين والإحسان إليهم بالقول والعمل ويكون للوالدين وخصوصاً الأم النصيب الأوفر من هذا الثمر المبارك.

وكما يؤدي إرضاع الأم طفلها إلى النتيجة المذكورة الميمونة وهي غرس بذرة الحب والعطف في حقل نفس الطفل الرضيع، كذلك يؤدي إلى زرع هذه البذرة الطيبة في حقل نفس الأم لتصبح بعد ذلك وبعوامل ذاتية شجرة مثمرة تقدم له ثمر الرعاية التامة والعناية الفائقة، وبعد الملاحظة الدقيقة عُرف أن هذه النتيجة الإيجابية المباركة مترتبة على مباشرة الأم لإرضاع طفلها وعدم إيكاله لغيرها لترضعه أو الاكتفاء بما يقدم له من الحليب.

وهناك فائدة أخرى جديرة بالملاحظة والاهتمام وهي انتقال الصفات الإيجابية المادية والمعنوية مع الحليب من المرضعة إلى الرضيع، فإذا كانت جميلة الصورة ومستقيمة الأخلاق والسيرة كان الرضيع كذلك غالباً، ويؤكد هذه الحقيقة الموضوعية ما ورد من التأكيد على اختيار الزوجة الصالحة المتجملة بكلا الجمالين المعنوي والمادي وعلى اختيار المرضعة المتجملة

---

(١) هذا بعض آية مباركة من سورة إبراهيم، الآية: ٢٤ ـ ٢٥.

بهما مع النهي عن استرضاع الحمقاء تحفظاً من سريان صفة الحماقة منها إلى الرضيع.

والذي أتذكره من نص الحديث المروي عن بعض أهل البيت عليهم السلام هو ما يلي: «**لا تسترضعوا الحمقاء فإن اللبن يُعدي**».

وحيث أن كل واحد من أهل البيت عليهم السلام يعتبر قرآناً ناطقاً وإسلاماً عملياً متحركاً على صعيد هذه الحياة، فكانوا مهتمين بهذه القضية حيث كان كل واحد منهم يختار لنفسه أفضل النساء لتنجب له أفضل الأبناء، وقد وردت الإشارة إلى دور نجابة الأم وصلاحها في نجابة وصلاح أبنائها في أبيات بعض الشعراء، من ذلك ما ورد على لسان بعضهم في مدح الإمام زين العابدين عليه السلام بقوله:

وإن ولـيـداً بـيـن كـسـرى وهـاشـم　　　لأفـضـل مـن نـيـطـت عـلـيـه الـتـمـائـمُ

وذلك لأن والدته كانت بنت أحد ملوك الفرس الذي عبّر عنه بقوله: كسرى.

وكذلك ورد مدح الإمام الرضا عليه السلام على لسان بعضهم من الجهة المذكورة ـ أي جهة الانتساب إلى الأم الصالحة ـ بقوله:

ألا إن خـيـر الـنـاس أمـاً ووالـداً　　　ورهـطـاً وأجـداداً عـلـيُّ الـمـعـظَّـمُ

أتتنا به للعلم والحلم والحجى　　　إمـامـاً يُـؤدي حُـجـةَ الله تـكـتـم

وينطلق في هذا السياق قول بعضهم وهو يمُنُّ على أولاده باختياره لهم الأم الصالحة ذات النسب الأصيل والخلق الرفيع:

وأولُ إحـسـانـي إلـيـكـم تـخـيـري　　　لـمـاجـدة الأعـراق بـادٍ عـفـافُـهـا

ويأتي حافظ إبراهيم ليكون مؤكداً للحقيقة المذكورة بقوله:

والأُم مـــدرســـةٌ إذا أعـــددتَـــهـــا　　　أعـــددتَ شـعـبـاً طـيـبَ الأعـراق

ثم إن المولود البشري بعد ولادته يبقى بحاجة ماسة للتغذية بما يناسب صحته ويساعد على حفظ حياته ونمو كيانه بكلا جانبيه المادي الجسمي

والمعنوي العقلي والروحي، وتأتي التربية التكوينية لتلعب دورها في هذه المرحلة من عمر الطفل حيث تحول له ذلك الدم الأحمر الذي كان يتغذى به في عالم الرحم إلى حليب أبيض جميل اللون وطيب الطعم بقدرة الله سبحانه وحكمته وحسن تربيته التكوينية، ومن المعلوم أن الله سبحانه إذا أراد أمراً هيأ له سببه التكويني والتشريعي، ويأتي خلق الثديين في صدر الأم في المكان المناسب وبالكيفية المناسبة للغرض المقصود منه وهو امتصاص الحليب منه بفم الطفل الرضيع حال الرضاعة، ليساهم في حصول التغذية له بواسطة الحلمة الموجودة في وسط طرف الثدي والمثقوبة بثقب وسط معتدل بين السعة المؤدية لخروج الحليب منه حال الرضاعة بكمية أكثر مما يناسبه ويحتاج إليه، وربما أدت كثرته إلى أن يشرق به حال امتصاصه، والضيق الذي يسبب إرهاق الطفل حال رضاعه.

وبورود الأمر باختيار الزوجة المؤمنة الصالحة جميلة الصورة ومستقيمة السيرة، وباختيار المرضعة النائبة عن الأم في مهمة الإرضاع والمتجملة بكلا الجمالين المادي الجسمي والمعنوي الخُلقي النفسي، مع النهي عن استرضاع الحمقاء بتعليل أن اللبن يعدي.

أجل: بورود ذلك الأمر وهذا النهي تكون التربية التشريعية قد تكاملت مع التربية التكوينية لتساهما معاً في صنع الإنسان الصالح بأعماله وسيرته، والجميل بشكله وصورته لأن الله سبحانه جميل يحب الجمال بكلا نوعيه المادي والمعنوي، ولا يرجح الاقتصار على الجمال الجسمي المجرد من الجمال المعنوي النفسي، لأنه وحده لا يحقق الراحة والسعادة التي يريد الله سبحانه حصولها للإنسان في عاجل دنياه ومستقبل آخرته.

ولذلك ورد النهي عن اختيار المرأة لجمالها فقط، وذلك بقوله ﷺ: «**إياكم وخضراءَ الدمن**» قيل: يا رسول الله، ومَن خضراءُ الدمن؟ قال: «**المرأةُ الحسناء في منبت السوء**».

وروي عنه ﷺ قوله أيضاً حول هذا الموضوع:

«مَن تزوج امرأة لمالها وجمالها حرمه الله مالَها وجمالَها».

ومن مظاهر التربية التكوينية التي يرعى الله سبحانه بها المخلوق البشري ـ موضوع الحديث ـ ويوفر له ما يحتاج إليه من الأسنان بعد بلوغه العمر الذي يمكنه من الاستغناء عن حليب أمه وهو عمر السنتين كما نص القرآن الكريم بقوله سبحانه:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾(١).

وذلك لأنه بعد بلوغه هذا العمر يصبح بحاجة إلى تغذية تناسب عمره وتكون بالمآكل اللينة التي يستعين على تقطيعها بأسنانه التي يمن الله بها عليه لتكون وسيلة تساعده على الغاية المذكورة كما يمن الله عليه بالريق الذي تفرُزه غدد فمه ليساعده على مضغ الطعام بسهولة، وباللسان ليساعده على إدارة طعامه ووضعه تحت أسنانه وبين أضراسه التي يمن الله عليه بها بعد ذلك ليستعين بها على مضغ طعامه الذي يكون أقل ليناً من الطعام السابق الذي كان مناسباً له في مرحلة عمره الأولى.

ويقوم اللسان مضافاً إلى المهمة المذكورة بدور النطق والكلام الذي يعبر به المتكلم عن مقاصده في مقام الحديث مع الآخرين وهو من أهم النعم التي يمن بها الله سبحانه على الإنسان، وقد صرّح الله سبحانه بأهمية هذه النعمة بقوله:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾(٢).

وتتجلى الحكمة الإلهية والعناية السماوية والتربية التكوينية بصورة أوضح بملاحظة الخصوصيات المتعلقة بكل واحد من العناصر الأربعة المذكورة المساهمة في عملية مضغ الطعام وهي الأسنان والأضراس واللسان والريق،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٢) سورة الرحمٰن، الآيات: ١ ـ ٤.

وتبرز هذه الخصوصيات في الحجم والشكل والموضع فلكل واحد منها حجمه وشكله وموضعه المناسب بحيث لو حصل أي تغيير في أية خصوصية من هذه الخصوصيات لبطل دوره الأساسي أو ضعف عن تحقيق الغاية المقصودة منه، وقد يؤثر على جمال الشكل والصورة في الوجه والفم بصورة خاصة، وذلك كما لو فرض وجود الأضراس مكان الأسنان وبالعكس، أو فرض كون اللسان أطول أو أقصر من حجمه الطبيعي، وكذلك لو فرض زيادة الريق عن الحاجة أو فاض في غير وقت الحاجة أو كان طعمه مرّاً كالمادة الصفراء الموجودة في الأذن أو مالحاً كالدمع وهكذا.

ونفس الشيء يقال بالنسبة إلى بقية أعضاء البدن، فإن أي تغيير يطرأ على أي واحد منها يؤدي، إما إلى بطلان دوره أو ضعفه عن القيام به على الوجه المطلوب.

والتفكر في هذه الخصوصيات مع التأمل في أصل الدور الذي تقوم به هذه الأجزاء من البدن وسائر أعضائه يعطينا درساً تربوياً يعمق إيماننا بحكمة الخالق البالغة ورحمته الواسعة وقدرته الشاملة.

واستلهام مثل هذا الدرس من التفكر في جمال الخلق وروعة الإبداع وإشراق الحكمة الكامنة في جميع المخلوقات بصورة عامة والإنسان بصورة خاصة هو الذي دعاني للاستطراد في الحديث حول موضوع التربية بكلا قسميها التكوينية والتشريعية، وذلك من وحي تفسير قوله تعالى في أول سورة الحمد ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ لأن ذلك يلتقي مع الهدف الكبير الذي دعا إلى تأليف هذا الكتاب، ومن هذا المنطلق نتابع الحديث حول موضوع التربية التكوينية المتجلية في بقية أعضاء بدن الإنسان ونذكر بعضها على وجه المثال، كما أن الحديث عنها وبيان دورها في حياة الإنسان كان من باب المثال لعدم انحصارها به كما هو الظاهر من قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ باعتبار أن المراد من هذا الجمع جميع العوالم الموجودة في هذا الكون وعبر عنها

بصيغة جمع المذكر السالم من باب التغليب كما سبق بيانه.

وبيّنا سابقاً أن قصر الحديث حول التربية التكوينية على الإنسان لأهميته باعتبار كونه خليفة الله سبحانه على الأرض، ولهذا خُلق الكون لخدمته وخُلق الإنسان لهدف أسمى وغاية أعلى، وهي عبادة الله سبحانه وتعالى، وقد صرح سبحانه بذلك كله في كتابه الكريم حيث بيّن الغاية التي خلق الكون من أجلها وهي خدمة الإنسان بقوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾(١).

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾(٢)

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٣).

ثم تصعد التربية التكوينية ونصعد معها بالحديث والبيان إلى الأنف الذي خلقه سبحانه في المكان المناسب والكيفية المناسبة وللغاية الحكيمة والمنفعة العظيمة وهي شم الروائح مع التمييز بواسطة الدماغ بين الطيب والكريه منها وبهذه الواسطة يعرف فساد الطعام والشراب وعدم فسادهما ليحصل اجتنابهما في الفرض الأول وعدمه في الثاني.

وأما فائدة العينين فلا تحتاج إلى بيان وتتجلى الحكمة البالغة في خلقهما في المكان المناسب وبالكيفية والحجم المناسبين كما تظهر بوضوح في التعدد وعدم الاقتصار على عين واحدة، ويعرف أهمية نعمة وجودهما الفاقدُ لهما أو لأحدهما ففي الحالة الأولى تعظم المصيبة، وفي الثانية تقل الفائدة، وفي كلتا الحالتين يحصل تأثير على جمال الصورة، وما ذكرناه من أهمية نعمة البصر والحكمة في تعدد آلته وهي العين ينسحب على بقية الأعضاء المتعددة من جهة أهمية وجودها والحكمة في تعددها وفي شكلها ومكان وجودها.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ١٣.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

والذي يقوي الإيمان بحكمة الخالق المدبر هو ملاحظة وجود التعدد في الأعضاء التي تمس الحاجة إليه فيها ـ أي في الأعضاء ـ ويُلمس ذلك بالوجدان بالنسبة إلى فاقد أي عضو منها بالكلية أو بفقد التعدد لعارض طارىء.

وما ذكرناه من أهمية الأعضاء الخارجية المسماة بالجوارح ودورها الفعال في نظام حياة الإنسان وتمكنه من تحقيق أهدافه وتطلعاته في الحياة الحاضرة وفي الدار الآخرة، يقال أيضاً بالنسبة إلى الأعضاء الداخلية المسماة بالجوانح لأن كل واحد منها له دوره وأثره الفعال في تحقيق الهدف الذي خلقه الله من أجله وهو حفظ حياة الإنسان من التلف وصون سلامته من الزوال، لينطلق في درب الحياة بقوة وحيوية تساعده على القيام بدوره الرائد وتحقيق غاية خلقه المنشودة بعزيمة ماضية وهمة عالية ـ كما أراد الله سبحانه له ـ بالحكمة الإلهية والتربية التكوينية المتممة بالتربية التشريعية التي سيأتي الحديث عنها بتوفيقه تعالى.

وما قلناه من اقتضاء الحكمة الإلهية وحدة بعض الأعضاء الخارجية كالرأس والأنف مثلاً وتعدد بعضها الآخر وهو الأكثر المعلوم حسبما تقتضيه الحكمة وتوجبه المصلحة، كذلك اقتضت الوحدة في الأعضاء الداخلية كالقلب واللسان والطحال والمعدة والمثانة، والتعدد في غيرها كالرئتين والكليتين ونحوهما حسبما تقتضيه الحكمة السماوية والتربية التكوينية.

وخلاصة ما ذكرته من مصاديق وموارد للعناية الإلهية والتربية التكوينية الراجعة إلى كيان الإنسان أن كل عضو خارجي أو داخلي منَّ الله به على الإنسان يقوم بدور حيوي بارز في مجال حفظ حياته من التلف وسلامته من العطب.

وتظهر قيمة هذا الدور بسلامة جميعها من الإصابة حيث يتمتع الإنسان حينئذ بصحة جيدة وسلامة مسعده، وتُعرف هذه القيمة وجداناً عند إصابة بعضها بما يعطله عن دوره أو يضعفه عن القيام به على الوجه المطلوب حيث يتعرض الإنسان للإصابة بالألم والضعف ويفقد بذلك كل أنواع الراحة

والسعادة التي كان متمتعاً بها وقت استقامة صحته وسلامته من عارضه، وقد عبّر النبي ﷺ عن نعمة الصحة ودورها في راحة الإنسان وسعادته بقوله ما مضمونه:

«**مَن أصبح آمنا في سِرْبه معافىً في بدنه وعنده قوت يومه فكأنه ملك الدنيا بحذافيرها**»، وقريب منه قول الإمام علي عليه السلام:

«**نعمتان مجهولتان الصحة والأمان**».

وإذا خرجنا من دائرة شخص الإنسان ونطاق ذاته ونظرنا بعين البصيرة إلى بقية الكائنات التي خلقها الله سبحانه لخدمته وسخرها لتعمل في سبيل مصلحته، أدركنا بذلك مدى العناية الإلهية والتربية التكوينية التي أحاط بها هذا الإنسان لتساعده على تحقيق الغاية السامية التي خلقه الله من أجلها، ومن المعلوم أن الأرض التي خلق منها ويسرح فوقها ويستخرج منها ما يعود عليه بالكثير من الفوائد هي أول مخلوق وألصق كائن بحياته.

ولتوضيح هذا الارتباط التكويني بينه وبينها نشبهها بالأم من جهة أن الولد جزء من أمه ويتغذى بدمها أيام حمله وبحليبها بعد ولادته ويبقى ملحوظاً بعين عاطفتها ورعايتها طيلة حياته، وهكذا الأرض فهي الأم الكبرى التي خلق منها ويتغذى بما تقدمه له من الطعام والشراب.

وإذا عرفنا أن أصل الحيوان من الأرض كالإنسان وأن لحمه الذي يحصل له بتناوله من نباتها وعشبها يعود إلى الأرض.

ندرك لذلك واقعية النظرية التي تقول: إن أصل الإنسان من الأرض وترابها.

وتأتي الآيات القرآنية الكريمة لتؤكد هذه الحقيقة الموضوعية منها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٠.

وقوله تعالى:

﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[1].

ومن مظاهر التربية التكوينية التي يقدمها الله سبحانه للإنسان بواسطة الأرض (الأم) الكبرى أنها مصدر معاشه وسبيل العمل لمعاده، وذلك بما أودع الله فيها من العناصر والخصوبة التي تساعدها على أن تعطي ما يزرع ويغرس فيها من البذور والغرسات الحياة والنمو لتعطي للزارع والغارس ما يحتاج إليه من الحبوب والثمار وفي الغالب تساعد السماء شقيقتها الأرض بما تجود به من المطر الذي يساهم مساهمة فعالة في إعطاء الحياة والنمو لما يغرس ويزرع فيها حتى يصل إلى مرحلة أخذ النتيجة وقطف الثمار.

وقد أشار الله سبحانه إلى ما تقوم به السماء من هذا الدور الإيجابي المبارك بقوله تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[2].

كما صرح الله سبحانه بالدور الطليعي الذي تقوم به الأرض في سبيل تحصيل معاشه وتأمين معاده يوم نشوره وعودته إلى خالقه وذلك بقوله عزّ وجل:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[3].

ولا يختص دور الأرض في مجال خدمة الإنسان وقيامها بدور التربية التكوينية التي سخرها الله سبحانه لتقوم به من الخدمات الجليلة التي تقوم بها

---

(1) سورة الكهف، الآية: ٣٧.

(2) سورة الحج، الآية: ٥.

(3) سورة الملك، الآية: ١٥.

في سبيله ـ على ما ذكرناه ـ بل هي مضافاً إلى ذلك تحمل له في أعماقها ما يحتاجه ويفيده من الكنوز والمعادن الجامدة والسائلة كالنفط ونحوه، وهذا كله بالنسبة إلى الجامد من الأرض المعبر عنه بالبر واليابس.

وإذا نظرنا إلى الجانب السائل المعبر عنه بالبحر الذي يغطي ثلاثة أرباع الكرة الأرضية نرى أن هذا الجانب يقوم بدور إيجابي قريب من الدور الذي يقوم به الجانب الآخر الجامد، وذلك لأن البحر يساعد على طي المسافات البعيدة بواسطة السفن ويحمل في طيه الثروة السمكية والكثير من المعادن الثمينة والجواهر النفيسة مثل اللؤلؤ والمرجان ونحوهما.

وهناك فوائد أخرى كثيرة تترتب على البحر لا مجال لذكرها مفصلاً في المقام كما أن للجانب الآخر من الأرض ـ الجامد ـ فوائد أخرى كثيرة يضيق المجال عن التعرض لبيانها مفصلاً.

وكل ما ذكرناه من الفوائد والخدمات التي تقوم بها السماء والأرض يعتبر من مظاهر التربية التكوينية التي سخرهما الله سبحانه ليقوما بها في سبيل خدمة الإنسان، وصرح تعالى بذلك في العديد من آيات كتابه الكريم، منها قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾(١).

وقوله سبحانه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾(٢).

وقوله عزّ وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾(٤).

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٤.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٢.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢.

استدراك

بعد أن ذكرت آنفاً أن هناك فوائد أخرى ومظاهر عديدة من مظاهر التربية التكوينية التي تقوم بها الأرض بكلا جانبيها الجامد والسائل وفق الإرادة الإلهية لا مجال لذكرها نصاً وتفصيلاً، لاحظت أن هناك بعض المظاهر البارزة والمصاديق الجلية للتربية التكوينية الحاصلة بواسطة الأرض وحركتها وفق الإرادة الإلهية التكوينية، جديرةٌ[1] بالاهتمام والتعرُّض لذكرها على وجه التفصيل.

من هذه المظاهر حصول الليل والنهار بسبب حركة الأرض حول نفسها وحدوث الفصول الأربعة نتيجة حركتها الأخرى حول الشمس، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من الفوائد الجليلة.

وقد نصّ الله سبحانه في كتابه المجيد على أهمية الزمانين المذكورين ودورهما البارز في انتظام أمور الإنسان وانطلاقه بقوة وحيوية في سبيل تحقيق أهدافه الحياتية المعجلة والأخروية المؤجلة ـ بعدة[2] آيات.

منها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[4].

وقوله سبحانه: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[5].

---

(١) خبر أن الواقعة في الجملة السابقة وهي قولي: أن هناك بعض المظاهر.

(٢) متعلق بكلمة نص في قولي السابق: وقد نص إلخ.

(٣) سورة النبأ، الآيتان المباركتان: ١٠ و١١.

(٤) سورة القصص، الآيتان: ٧١ و٧٢.

(٥) سورة القصص، الآية: ٧٣.

بعد أن بيّن الله سبحانه بالآيتين الأوليين أهمية كل من النهار والليل وبالكيفية التي قدّرها سبحانه لهما وهي كيفية التعاقب ومجيء كل واحد منهما عقيب الآخر ليلعب كل واحد منهما دوره في مجال حفظ نظام الحياة والأحياء بصورة عامة وبالنسبة إلى الإنسان بصورة خاصة، أكّد مضمونهما بالآية الثالثة التي جاءت بعدهما لتوضيح مدى أهمية هذين الزمانين في تنظيم حياة الإنسان بتقسيم وقته إلى قسمين:

أحدهما: يكون منطلقاً لسعيه في سبيل تحصيل معاشه وضرورات حياته مع قيامه بالواجب العبادي الذي يؤمِّن له معاده كما يسبب له التوفيق والنجاح في مساعيه الحياتية، وبيَّن سبحانه أن ذلك من مصاديق رحمته الواسعة وعنايته الفائقة وهي التي عبّرنا عنها بالتربية التكوينية للكون كله في كل ما مضى من البيان الذي تحدثت به عن توفير الله سبحانه بإرادته الفاعلة وحكمته البالغة للتربية التكوينية للعالم كله بما فيه الإنسان.

وإذا صعدنا من عالم الأرض إلى العالم العلوي المتمثل بالسموات وما فيها من الكائنات ونظرنا بعين التدبُّر والتفكُّر في عظمة هذا العالم ودقة نظامه ندرك مدى مشاركته مع العالم السفلي في توفير الرعاية الإلهية والتربية التكوينية للكون كله عامة وللإنسان خاصة.

ونذكر بعض الأمثلة التي تؤكد وتوضح الدور الإيجابي الذي يقوم به عالم السماء في مجال خدمة الإنسان وحفظ نظام حياته واستقامة أمور معاشه في حاضر دنياه ومعاده في مستقبل آخرته، وأوضح مثال لذلك الشمس التي هي كرة نارية تنفجر حرارة وضوءاً باستمرار ويزيد وزنها على وزن الأرض بمليون وربع مليون مرة وهي تسبح في الفضاء بارتفاع متوازن وتعطي من الحرارة والنور بقدر الحاجة الكونية ولو حصل أقل تغير في المسافة الكائنة بين الشمس والأرض بالزيادة أو النقصان من حيث القرب والبعد لاختل نظام العالم وحصلت الكوارث الكونية.

أما بالنسبة إلى درجة الارتفاع المتوسط فلأنه إذا فرض نقصان المسافة بمعنى أن الشمس لو قربت من الأرض ولو بدرجة واحدة لاحترقت كلها ولم يبقَ فيها أي أثر للحياة والأحياء، وكذلك لو فرض زيادة في المسافة الفاصلة بينهما لتجمدت كلها ولم يبقَ فيها أي أثر للحياة والأحياء.

وهذا وذاك يدل على الحكمة الإلهية التي خلقت هذا الكون بنظام وسيَّرته نحو غايته التي خلقه من أجلها بنظام وانتظام مستمر ومستقر بدون حدوث أي تبدُّل وتغيُّر في هذا النظام الكوني العام وهذا يدل بوضوح على وحدانيته سبحانه واستقلاله في الخلق والإيجاد والتدبير والتنظيم، إذ لو كان هناك إله آخر لاختلفت الإرادة واختل نظام العالم تبعاً لاختلافها، وحيث أن الكون كله يسير منذ وجد وإلى أن يرث الله الأرض ومَن وما عليها بدون حصول أي تغير واختلاف، ندرك بذلك وحدة الخالق المدبّر.

وقد صرح الله سبحانه بهذه الحقيقة الكونية الموضوعية بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[١].

ومن فوائد الشمس الجليلة تبخر مياه البحار والأنهار بحرارتها ليتكون من بخارها السحاب ويصعد لخفته إلى الطبقة الباردة من الجو وينزل مطراً يحيي الله به الأرض بعد موتها ببركة الرياح التي تسوقه إلى البلاد النائية عن البحر.

والفوائد المترتبة على المطر والماء الذي يتجمع منه في المخازن المعدة له أو يتفجر من الأرض ينابيع ويجري أنهاراً أو سواقي دائماً أو في أيام الشتاء.

أجل: إن فوائد الماء الحاصل من المطر الناشيء من حرارة الشمس لا تحتاج إلى بيان بعد أن بيّن الله سبحانه أهميته بقوله تعالى:

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

وبقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[2].

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3].

وهناك فوائد كثيرة مترتبة على وجود كوكب الشمس في هذا العالم لا مجال لبيانها تفصيلاً ويكفي أن نشير إليها على وجه الإجمال بقولنا: إن المنافع المترتبة على وجود هذا الكوكب في هذا الكون الفسيح بالنسبة إلى استقامة نظامه التكويني العام وبالنسبة إلى كل الكائنات التي لا يكتب لها بقاء أو لا تؤدي دورها المنشود إلا ببركة وجود هذا الكوكب الجبار واضحة[4] وظاهرة مثل نوره وحرارته المحسوسين بالوجدان الحسي ومع هذا وذاك لا تبقى هناك أية حاجة للمزيد من البيان والتوضيح لأهمية دوره في حفظ نظام هذا العالم وسيره على نهجه الطبيعي نحو الأهداف الحكيمة التي خلق من أجلها.

وبذلك ندرك بوعي وعمق من وجود هذا الكوكب وغيره من الكواكب والمخلوقات في هذا الكون وانطلاقها في طريق نظامها القويم نحو هدفها السليم ـ باستمرار واستقرار ـ بدون حصول اختلاف ولا تخلُّف في النظام العام المسير لها.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الحج، الآية: ٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

(٤) خبر إن في قولي: إن المنافع المترتبة إلخ.

أجل: من ملاحظة ذلك بعين البصيرة يحصل لنا القطع بوجود قوة غيبية أبدعت هذا الكون وأوجدت فيه وله ذلك النظام التكويني المسير له بانتظام واستمرار على نهج واحد بدون تخلف واختلاف الأمر الذي يسبب القطع أيضاً بوحدانية تلك القوة الغيبية لأن وحدة النظام تدل بوضوح على وحدة المنظم كما ذكرنا آنفاً واستشهدنا عليه بالآية المباركة القائلة:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[١].

وهناك أدلة علمية كثيرة تفيد الجزم بوحدانية الخالق لا مجال للتعرض لذكرها في المقام ومن أراد الاطلاع عليها بصورة تفصيلية فليراجع كتب أصول العقائد المؤلفة لإثباتها بالبراهين القطعية وهي كثيرة محررة بأقلام علمائنا الأعلام المعروفين بعمق الفكر وسعة الاطلاع وقوة الحجة.

ويأتي القمر في الدرجة التالية في الأهمية بعد كوكب الشمس من جهة كون كل واحد منهما آية كبرى من آيات الله سبحانه الكونية الدالة على أصل وجوده ووحدانيته الأصيلة وقدرته الشاملة وحكمته البالغة، واتصافه بهذه الصفات الكمالية من اللوازم الضرورية لوجوب اتصاف ذاته المقدسة بجميع الصفات المعبّرة عن كماله المطلق الذي تميز به عن كل الكائنات وجميع الموجودات باعتبار أنها جميعاً مصنوعة له ومفتقرة لذاته المقدسة في أصل وجودها وبقائها في عالم الوجود إلى أجلها المحدود.

والقمر ـ موضوع الحديث ـ كوكب مظلم في ذاته كالأرض وكل واحد منهما يستمد نوره من الشمس ويقل حجمه عن حجمها[٢] بخمسين مرة ويدور حولها باستمرار وتتم له في كل شهر دورة حولها فيكون مجموع دورانه في السنة اثنتي عشر دورة وهي تمثل شهور السنة القمرية المعهودة.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(٢) أي حجم الأرض.

والمنافع المترتبة على وجود القمر في هذا الكون، والتي تتمثل بها التربية التكوينية الحاصلة للإنسان ونحوه من الكائنات بواسطة وجود هذا الكوكب كثيرة[1] فهو مضافاً إلى تخفيفه من ظلام الليل يلعب دوراً في عملية المد والجزر ببركة الجاذبية الموجودة بينه وبين البحر، ولذلك تكون بمنزلة اللجام الموضوع بيد القمر ليمنع فرس ال[illegible]ن الطغيان على اليابسة المؤدي إلى الطوفان المغرق والمدمر للحياة والأحياء كما حصل في عصر النبي نوح عليه السلام، ولم يسلم من الهلاك بطوفان عصره سوى من ركب في سفينته.

ومن فوائد القمر: نمو النبات ونضج الثمار المتعرضة لأشعته ومعرفة الحساب وعدد أيام الشهر القمري بسبب اختلاف درجة إنارته بالضعف والقوة نتيجة اختلاف مقدار المقابلة بينه وبين جرم الشمس، ففي الليلة الأولى من بروزه في الأفق بعد خروجه من دائرة المحاق التي يحجب فيها عن نور الشمس يكون حجم إنارته ضعيفاً نتيجة ضعف وقلة المقابلة الحاصلة بينه وبين جرمها ـ في هذه الليلة ـ وذلك هو السر في صعوبة مشاهدته فيها.

وفي الليلة الثانية تتسع دائرة المقابلة لتتسع دائرة الإنارة فيكون الجانب المضاء منه أكبر حجماً وأقوى إنارة، وهكذا يستمر في زيادة درجة الإنارة واتساع دائرة الجانب المقابل لجرم الشمس حتى يصبح بدراً كاملاً في الليلة التي تتم المقابلة ويكون كامل جرم القمر مقابلاً لجرم الشمس، حيث يمسي تمام جرمه مضيئاً، وبعد ذلك يبدأ بالعد العكسي حيث يأخذ جرمه بالابتعاد عن جرمها ليضعف نوره تدريجاً حتى يصل إلى مرحلة المحاق عندما يُحجب كلياً عن نورها، وبالملاحظة الدقيقة من قبل المهتمين بضبط حساب الأيام المنصرمة من عمر القمر، كان العرب الأذكياء يعرفون عدد أيام الشهر كما أصبحنا نعرف ذلك بواسطة التقويم.

---

(١) خبر المبتدأ وهو قولي: والمنافع المترتبة إلخ.

ولا يخفى ما يترتب على ذلك من الفوائد الكثيرة وخصوصاً في العصور المنصرمة حيث كان القمر هو الوسيلة التي كادت أن تكون الوحيدة المحققة لهدف ضبط الحساب وما يترتب عليه من المنافع الكثيرة.

وقد أشار الله سبحانه إلى هذه المنافع بقوله تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[١].

هذا وقد أدركنا على ضوء الالتفات التفصيلي لما يقدمه كل واحد من كوكبَي الشمس والقمر من الفوائد الجليلة والخدمات الكثيرة والكبيرة لمخلوقات هذا الكون عامة والإنسان خاصة دور[٢] كل واحد منهما في تحقق التربية التكوينية والرعاية الإلهية بالنسبة إلى ما ذكرنا من عامة المخلوقات وخصوصاً الإنسان من بينها.

وقد ذكرنا سابقاً أن التربية التكوينية التي يراد بها التدبير والرعاية وتسيير الكائنات نحو أهدافها المخلوقة لها غير مختصة بالمخلوق البشري كما هو واضح وإنما قصرنا الحديث على التربية التكوينية الراجعة إليه لأهميته باعتبار كونه خليفةَ الله سبحانه في أرضه وسيدَ الكون الذي خلقه الله من أجله.

ولا يخفى أن التربية التكوينية يختلف المراد منها باختلاف ما تضاف إليه، فإذا أضيفت لأي كائن فاقد للعقل والإرادة والاختيار كالحيوان والنبات والجماد يكون المراد منها حفظ وجوده من التلف وتسييره بواسطة النظام التكويني المسير له والمسيطر عليه لينطلق به وبدون إرادة واختيار نحو الغاية التي خلقه الله من أجلها، وذلك مثل حركة الأرض حول نفسها وحركتها حول الشمس، ليتولّد من الأولى الليل والنهار ومن الثانية الفصول الأربعة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(٢) مفعول به لفعل أدركنا الواقع في أول السطر السادس من هذه الصفحة.

المعهودة من أجل حصول فوائدها المنشودة، وكذلك حركة القمر حول الأرض وحركة الشمس وسائر الكواكب والنجوم السابحة في الفضاء وبسرعة هائلة بدون حصول أي تصادم بينها منذ وجدت وإلى وقتنا هذا، وهذا أوضح شاهد وأصدق دليل على أن الخالق لها والمسير لها وفق نظام كوني واحد مستمر ومستقر قوة[١] غيبية واحدة قادرة على كل شيء وعالمة بكل شيء وحكيمة أوجدت الكون ومَن وما فيه لحكمة بالغة تنسجم مع كمالها المطلق الذي يجب بحكم العقل السليم والفطرة المستقيمة اتصافها به، أي اتصاف تلك القوة الغيبية بذلك الكمال المطلق.

ونفس الشيء يقال بالنسبة إلى النباتات وتلحق بها الحيوانات لأنها مسيرة لغرائزها التي تحكمها وتتحكم بها بدون وعي وإرادة واختيار، وإذا أضيفت التربية التكوينية إلى الإنسان ـ وهو عالَم مستقلٌ في مقابل بقية العوالم ـ يكون المراد منها خدمتَه ونفعَه، إما بواسطة النظام التكويني الذي أوجده فيه لينظم حياته المادية ويصونها من التلف أو العطب، وذلك كالنظام الداخلي الذي يحرك قلبه بالنبض ومعدته بالهضم ورئتيه بالتنفس، ونحو ذلك من النظم التكوينية التي تسير الجانب المادي بالنظام التكويني الذي أودعه الله سبحانه في كيان الإنسان ليحفظ وجوده المادي ويسيره ويسير به نحو غايته المنشودة التي خُلق من أجلها.

ويدخل في التربية التكوينية بالنسبة إلى الكائن البشري ما يحصل للإنسان من النفع والحفظ والرعاية المساعدة له على حفظ حياته وتحقيق غاية وجوده، وذلك بواسطة المخلوقات التي أوجدها الله سبحانه لخدمته وسخرها لمصلحته، وقد مرّ ذكر بعضها كنماذج للتربية التكوينية التي يقدمها الله سبحانه للإنسان بواسطة بعض مخلوقاته التي أوجدها لخدمته.

---

(١) خبر أن الواقعة في السطر السابق.

والعنوان العام للتربية التكوينية الشامل لكل أقسامها المختلفة باختلاف ما تضاف إليه من المخلوقات هو التدبير الحكيم والرعاية الهادفة التي تحفظ وجود الكائن من التلف وسلامته من العطب وتوفر له كل الأجواء والعوامل التي تساهم في تحقيق الغاية التي أوجده الله سبحانه من أجلها.

وبهذا المعنى العام للتربية التكوينية كانت إضافة تربيته للعالمين، والمراد بهذا الجمع جميع العوالم الشاملة للعاقل منها كالإنسان والملائكة والجن.. وغيره مثل بقية المخلوقات وإنما جمعت بصيغة جمع المذكر السالم المختص بالعقلاء من باب التغليب وهو أسلوب متبع في اللغة العربية.

التربية التشريعية ودورها في سعادة البشرية:

بعد الفراغ من الحديث حول التربية التكوينية يأتي دور الحديث عن التربية التشريعية ودورها في سعادة البشرية.

ويراد بها ما تقدّم بيانه من تدبير شؤون الإنسان، ورعاية مصالحه الخاصة والعامة في الدنيا والآخرة بواسطة النظام التشريعي الذي وضعه الله سبحانه للإنسان ليحقق به كماله وسعداته في دنياه وآخرته باختياره وإرادته.

ولأهمية دور هذا النظام في تقدم وسعادة الإنسان فقد جاء شاملاً مستوعباً لكل الجوانب المتعلقة بالكائن البشري، ولذلك بدأ دوره الفاعل المؤثر في بناء كيان الإنسان قبل وجوده في عالم الرحم وبعد وجوده فيه وبعد خروجه من هذا العالم ويبقى معه ملازماً له معبداً لطريق كماله وسعادته في دنياه وآخرته، ولا يقف دوره على حدود هذه الدنيا بل يدخل معه في قبره ليقدم له ما ينفعه فيه ويبعده عما يضره وهكذا يبقى له في عالم البرزخ نبراساً يزيل عنه ظلمة الغربة وكربة الوحدة والوحشة إلى أن يُبعث للحساب بجسمه وروحه يوم القيامة حيث يقف أمام مصيره النهائي وجهاً لوجه وينال جزاءه

العادل الذي بيّنه الله له بقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

وما ذكرناه باختصار حول التربية التشريعية المقابلة للتربية التكوينية هو صورة إجمالية، وبيان موجز عنها، وفيما يلي البيان التفصيلي لدور هذه التربية في كمال الإنسان وسعادته في دنياه وآخرته فنقول:

إن الله سبحانه حيث أنه خلق الإنسان للخلود لا للفناء، وللسعادة لا للشقاء، فقد هيّأ الأسباب التي تساهم في تحقيق هذين الهدفين الكبيرين، وقد بيّنّا دور التربية التكوينية في تحقيق النصيب الأوفر والجانب الأبرز من الهدفين المذكورين.

وتأتي التربية التشريعية لتتكامل معها وتشاركها في تحقيقهما على الوجه الأفضل الأكمل كما سيظهر ذلك جلياً من خلال التحدث عن دورها الفاعل وأثرها البليغ.

وقبل الشروع بالحديث حول دور هذا القسم من التربية أحب التمهيد له بذكر مقدمة تساعد على إدراك دوره بوعي مشرق وعمق ثابت ومثبت لصاحبه على صعيد الواقع فلا يتأثر بالشبهات ولا ينجرف بتيار الأهواء والشهوات، وخلاصة هذه المقدمة هي أن الإنسان بصفته نوعاً من النبات ولذلك يشاركه في خصائصه المعهودة المشتركة وبصفته نوعاً من الحيوان يشاركه في خصائصه المعلومة، ويتميز عن هذين النوعين بما ميّزه الله به عنهما من العقل القادر على اكتساب المعرفة الصحيحة الواعية وبالإرادة والاختيار الذي يمكنه من أن يشق درب أهدافه وتطلعاته على ضوء الفطرة السليمة والتربية الحكيمة.

وكذلك ميّزه وفضّله على الملائكة بما زوّده به من الطاقة الفكرية التي تمكنه من الخلق والإبداع واكتشاف الأسرار الكامنة في طبيعة الأشياء ليتمكن

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ و٨.

بذلك من تسخيرها لخدمته وتقدمه في مختلف الميادين.

وقد صرح الله سبحانه بهذه الحقيقة الموضوعية في العديد من آيات كتابه الكريم منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

ولا يخفى أن التفضيل والتكريم الذي ميّز وفضّل الله سبحانه به الإنسان على غيره من المخلوقات إنما كان بلحاظ الطبيعة البشرية الواقفة في ذاتها على ربوة القابلية والاستعداد لأن تحلّق وتسمو بجناحَي التقوى والعمل الصالح إلى قمة المجد وذروة السعد عندما تطبق منهج التربية في الإسلام بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه باعتبار أن هذا الفعل وذاك الترك هو التقوى التي اعتبرها الإسلام الميزان في السمو والتفاضل بين أفراد البشر حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[3].

كما بيّن تعالى أن التقوى هي مصدر الخير والسعادة في الدنيا والآخرة حيث قال سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[5].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٥) سورة الطلاق، الآيتان: ٢ و٣.

والذي يؤكد ما ذكرناه من أن تفضيل الإنسان على غيره إنما كان بلحاظ الطبيعة والذات المستعدة لأن تحلّق في سماء الكمال والرفعة في مقابل بقية الطبائع الفاقدة لهذه القابلية والاستعداد، وليس بلحاظ خروجها من عالم الإمكان والقوة إلى عالم الفعلية والتحقق ضمن الأفراد الخارجية.

أجل: الذي يؤكد ما ذكرناه من أن التفضيل إنما كان بلحاظ ذات الطبيعة البشرية وقابليتها في نفسها للتفوق، وليس بلحاظ وجودها وتحققها ضمن الأفراد الخارجية، هو أنه باللحاظ الثاني لا يصح تفضيلها على غيرها بالمطلق لما هو المعلوم من أن الطبيعة البشرية قد وجدت عبر التاريخ ولا تزال توجد خارجاً ضمن أفراد منها يهبطون بقيمتها من مستوى الإنسانية الرفيع إلى مستوى الحيوانية الوضيع.

ويوضح هذه الحقيقة أكثر قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[(١)].

وقد أشار الله سبحانه إلى ما ذكرنا بقوله تعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[(٢)].

فقد بيّن الله سبحانه نقطة افتراق الإنسان وتميزه عن غيره من المخلوقات بما خصّه به من القابلية والاستعداد الذاتي لتحمل مسؤولية التكليف والنهوض بها على الوجه المطلوب عندما يحاول استثمار طاقته واستعمال قدرته في

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

مجال القيام بمسؤوليته وتأديته أمانته كما تحقق ذلك بالفعل من قبل الأنبياء والأوصياء والأولياء السائرين على نهجهم بالتقوى والعمل الصالح.

وحيث أن أكثر أفراد الإنسان لا تنهض بمسؤولية أمانة التكليف فعلاً بعد أن تحملتها قوة وطاقة وقدرة على التنفيذ، فقد أشار الله سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

وبما ذكرناه في تفسير تحمل الإنسان لأمانة المسؤولية نعرف المراد من إباء المخلوقات الأخرى التي ذكرها الله سبحانه وإشفاقها من تحمُّل تلك المسؤولية، هو الإباء التكويني الذي طُبعت عليه وخُلق معها لأنها وإن كانت أضخم منه حجماً ولكنها فاقدة للعناصر والطاقات الجبارة التي تمكنه من الخلق والإبداع والقيام بمسؤولية التكليف بالمستوى المطلوب عندما يريد ذلك ويسعى في سبيل تحقيقه، وبعد ذكر هذه المقدمة نعود إلى صلب الموضوع وجوهر البحث وهو دور التربية التشريعية في سعادة الإنسان وتقدمه في مختلف المجالات، ومن جميع الجهات، وعلى ضوء ما ذكرناه من أنه نوع من النبات نطبق عليه القانون الطبيعي الذي يحكم ويتحكم في هذا النوع فنقول:

إن العناصر الأساسية التي تساهم في نجاح الزارع والغارس لما يزرع ويغرس في حقل الحياة عديدة.

١ ـ **أولها**: وأهمها اختيار البذرة والغرسة الطيبة في ذاتها والقابلة لأن تصبح الأولى ـ أي البذرة ـ نباتاً مفيداً ومعطياً للحبوب النافعة مثل حبوب القمح والذرة والعدس والحمص وهكذا، وتصبح الثانية ـ أي الغرسة ـ شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وذلك مثل غرسة التين والزيتون والتفاح والبرتقال ونحوها.

٢ ـ **والثاني**: من تلك العناصر هو الأرض الطيبة التي تحمل في طيها الخصوبة والقابلية التي تصل بها كل من البذرة والغرسة إلى المرحلة الجديدة والنتيجة المفيدة.

٣ ـ **والثالث**: من تلك العناصر والعوامل هو تعهد البذرة والغرسة بما تحتاجه من التغذية بالمواد المساعدة على نموها وإعطائها الفائدة المطلوبة مع سقيها بالماء الطبيعي الصافي المجرد من المواد المؤثرة سلباً على نموها وإعطائها النتيجة المنشودة.

٤ ـ **والعنصر الرابع**: المتمم لدور العناصر الثلاثة المذكورة هو عنصر سلبي يتمثل بإزالة كل ما يعيق البذرة والغرسة عن النمو والوصول إلى مرحلة العطاء والإنتاج.

وأما العناصر المقابلة لها والشبيهة بها المطلوب توفرها في النبات البشري وهو الإنسان، موضوع الحديث، فهي كما يلي:

العنصر الأول: منها هو تلك القطرة من الماء التي يتكوّن منها المخلوق البشري والمعبر عنها بالنطفة فهي شبيهة بالبذرة والغرسة في عالم النبات، ومن أجل أن تكون طيبة طاهرة قابلة لأن تعطي الذرية الطيبة الصالحة، لا بد أن يكون المصدر الذي تكونت منه وهو الدم ناشئاً عن الغذاء الحلال والشراب الجائز لأن حرمة كل من الطعام والشراب يؤثر سلبياً على ما ينتج منهما حيث يكون الولد المتكون من ذلك المصدر الحرام ولد حرام يميل إلى الشر والرذيلة أكثر من ميله إلى الخير والفضيلة، الأمر الذي يسبب المشقة والمعاناة للشخص الذي يقوم بدور تربيته.

وعلى العكس من ذلك الذرية الناشئة من الغذاء والشراب الحلال حيث يكون ميله إلى الخير والفضيلة أقوى من رغبته وميله إلى ضدهما.

وقد جرت عادة الكثيرين على التعبير عن الشخص الذي يعرف بالانحراف عن خط الاستقامة في العقيدة والسلوك بأنه ابن حرام، وإذا أراد أحدهم أن يدعو على شخص قال في دعائه عليه: سلّط الله عليك ابن حرام، وفي المقابل يقال في مقام الدعاء للفتاة بالسعادة والاستقرار في حياتها

الزوجية: نسأل الله أن يرزقكِ ابنَ حلال يعاشرك بالمعروف ويعاملك بالبر والإحسان والعطف والحنان.

فالتعبير بابن الحلال وابن الحرام وإن لم يكن الناطق به ملتفتاً تفصيلاً لخلفياته بمعرفة مصدر وسبب كونه ولد حلال أو ولد حرام، إلا أن ذلك نابع من ارتكاز فطري كامن في الطبيعة البشرية حيث يدرك الإنسان بفطرته السليمة أن الشخص الذي يتولّد من طريق غير شرعي أو يتكون من غذاء حرام يصبح ولد حرام بما تحمله هذه الكلمة في طياتها من سلبيات تدمر كيان الإنسان مادياً ومعنوياً دنيوياً وأخروياً.

ويأتي الحديث المشهور القائل: «**ابن الزنا لا ينجب**» مؤكداً للحقيقة الموضوعية المذكورة حيث يراد به المعنى المذكور وهو كون ميله إلى الشر أقوى من ميله إلى الخير، ولا يراد به سلب الاختيار عنه بحيث يكون مجبوراً على ارتكاب ما يميل إليه ويرغب فيه من الشر والانحراف عن خط الاستقامة ونهج الفضيلة.

ولو كان الأمر كذلك لسقط التكليف عنه ويستفاد ذلك من نص قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1] كما يُستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2] عدم معاقبته بمعصية أبويه.

وعلى ضوء المشابهة الحاصلة بين نوع الإنسان ونوع النبات يصح التعبير عن تلك القطرة من الماء التي يتكون منها المولود البشري بالبذرة أو الغرسة البشرية فإذا كانت ناشئة من الغذاء والشراب الحلال تكون غرسة طيبة قابلة لأن تصبح شجرة طيبة تعطي الثمر الطيب وهو الذرية الصالحة، وإذا كانت ناشئة من الغذاء والشراب الحرام تكون غرسة غير طيبة وتكون ثمرتها

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٨، وسورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

الحاصلة منها بعد صيرورتها شجرة شبيهة بها بالرداءة وعدم الطيبة.

وبعد تحصيل الغرسة البشرية الطيبة من مصدرها الحلال الطيب يأتي دور العنصر الثاني وهو الحقل البشري الذي تُغرس فيه تلك الغرسة، ويراد بالحقل البشري المناسب لتلك الغرسة البشرية الطيبة المرأة الصالحة لأنها الحقل الإنساني الذي تُغرس فيه الغرسة البشرية، وكما أن الغرسة النباتية تحتاج إلى التغذية بما ينمِّيها من الطعام ويرويها من الشراب لتنطلق في درب النمو حتى تصبح شجرة باسقة أصلها ثابت وفرعها في السماء هكذا الغرسة البشرية تحتاج إلى التغذية بما ينميها من الغذاء والسقي بما يرويها من الشراب، ولا بد أن يكون هذا الطعام وذاك الشراب حلالاً طيباً لتصبح تلك الغرسة بعد ذلك، شجرة طيبة تعطي الثمر الطيب وهو الذرية الصالحة.

وكذلك لا بد أن يكون حقلها البشري مثلها في الطيبة والنقاء والخصوبة المعنوية المتمثلة بالإيمان الصادق والخلق الفاضل والعمل الصالح ونحو ذلك من الصفات النبيلة التي يطلب توفرها في المرأة لتصبح تلك الغرسة بعد ذلك ببركة طيبتها وطيبة حقلها الذي غرست فيه وهو المرأة الصالحة، وببركة التغذية وسقيها بالحلال شجرةً طيبةً تعطي الثمرة المماثلة لها بالطيبة والصفاء وهي الذرية الصالحة كما مرت الإشارة إلى ذلك.

وكما يطلب التزام الأم بتناول الطعام والشراب الحلال أثناء حملها لكونهما مصدر غذاء الطفل وهو الدم الذي يحبسه الله له في رحمها أثناء الحمل، كذلك يطلب منها الاستمرار على هذا الالتزام بعد الولادة لنفس السبب باعتبار أن نفس الدم الذي كان يتغذى به الجنين أيام الحمل يتحول بعدها إلى حليب أبيض في ثدي الأم الذي خلقه الله سبحانه في أنسب مكان وهو صدر الأم وخلق في طرفه حلمة مثقوبة بقدر الحاجة ليمتص الطفل الحليبَ من الثدي بواسطتها، وفي ذلك عبرة وآية كبرى تدل على قدرة الله العظيمة وحكمته البالغة.

وبعد استغناء الطفل عن حليب أمه ببلوغه العمر الذي يساعده على أخذ الطعام المغاير له سواء كان حليباً آخر أم غيره من أنواع الأطعمة يُطلب من الوالدين والوالدة خاصة الاستمرارُ على حصر وقصر غذائه على الحلال ذاتاً وفي نفسه أو بشرائه إذا لزم الأمر بالثمن الحلال الذي لم يحصل من المصدر الحرام بكل أنواعه، ولم يشتمل على الحرام كالحق الشرعي المعلوم الذي أوجبه الله في مال، الموسر للسائل والمحروم لأن المشتمل على الحرام يكون حراماً تترتب عليه آثار سلبية كثيرة وخطيرة في حاضر الدنيا ومستقبل الآخرة وذلك لما تقدّم من أن الغذاء الحرام يسبب قسوة في القلب وغلظة في الطبع وزهداً في الآخرة وحلالها وميلاً إلى الدنيا وحرامها.

وإذا اشترى ثوباً بمال متعلق للحق الشرعي وصلّى فيه تكون صلاته باطلة، وفي ذلك خسارة كبرى للتوفيق والرزق في الدنيا مع خسارته نعيم الآخرة وسعادتها الخالدة، وذلك هو الخسران المبين.

وبذلك يُعرف السر في انحراف الكثيرين من الأبناء عن خط الاستقامة في العقيدة والسلوك ولجهل الآباء بمصدر هذا الانحراف يعللونه بأسباب أخرى خارجية قد يكون لها دخل في حصوله ويؤدي اقترانها بالسبب الداخلي المذكور إلى زيادة في الانحراف وصعوبة في العلاج وعلى العكس من ذلك الطفل الذي ينشأ من النطفة الحلال ذاتاً والحلال رحماً بأن تكون العلاقة الحاصلة بين الأبوين شرعية وتراعى الحلية في الغذاء الذي يقدم للأم حال وجوده في عالم الرحم وبعد ولادته وانتقاله إلى خارج هذا العالم ـ ما دام الطفل متغذياً بحليبها ـ وذلك لما تقدّم بيانه من أن الجنين يتغذى في عالم الرحم بدم الأم المتكون من غذائها وبعد ولادته يتغذى بالحليب المتكون من الدم الذي تكون من غذاء الأم، فإذا كان غذاؤها حال الحمل وبعد الولادة وطيلة مدة الرضاع من الحلال كان طفلها ولد حلال تثبت له الصفات الإيجابية النبيلة التي مرّ ذكرها، ويمكن الإشارة إليها بعنوان عام وهو كون الطفل الذي توفرت له الأسباب

المذكورة قابلاً ومستعداً للاستقامة في العقيدة والسيرة حيث يتأثر إيجابياً بما يُوجه إليه من أساليب التربية الصحيحة وإذا حصل منه انحراف عن النهج القويم نتيجة بعض العوامل الخارجية المؤثرة سلبياً في ذاتها يبقى مستعداً لاستماع القول واتباع الأحسن بسبب طهارة ذاته ونقاء طينته التي تكونت من الغذاء الحلال ونمت في ظل الجو والبيئة المنسجمة مع أجواء الحلال.

وهكذا يُطلب من ولي الطفل ومربيه أن يستمر معه على الالتزام بتوفير الغذاء الحلال له إلى أن يبلغ سن التكليف حيث يتوجه إليه الأمر باختيار الحلال وترك الحرام في كل حاجاته وشؤون حياته، ويكون دور المربي بعد ذلك، دور المرشد الناصح الأمين الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر كما هي وظيفته الشرعية بالنسبة إلى غير مَن ربّاه ونشأ في ظل رعايته.

وكما يُطلب من المربي توفير الغذاء المادي الحلال المعهود يُطلب منه أيضاً أن يوفر له الغذاء المعنوي الحلال، وذلك بتلقينه العقيدة الصحيحة الحقة ليحفظ ألفاظها في أول مرحلة من مراحل وعيه وبعد نمو ذهنه ووصوله إلى مرحلة القابلية والاستعداد لأن يدرك معاني ألفاظها تفسر له بمفردات واضحة تناسب مستواه العقلي، وكلما نما وعيه أكثر فسرها له بأسلوب أوسع وأوضح، ويضم إلى تلقينه أصول العقيدة الحقة تعليمه الأحكام الشرعية الفرعية التي تقع محل حاجته أول زمن تكليفه ويعبر عنها بفروع الدين في مقابل أصوله وهي كثيرة وأهمها عشرة وهي: الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والخمس، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتولي لأولياء الله والتبرؤ من أعدائه.

ويُطلب من مربّي الطفل إعطاؤه صورةً مختصرةً عن كل واحد من هذه الفروع وبيان دورها التربوي في حياة المكلف الملتزم بها إيماناً وعملاً، كما يُطلب منه ـ أي من المربي ـ دعوته للطفل وبعثه لامتثال أمرها الاستحبابي بالنسبة إليه ـ أي للطفل ـ قبل بلوغه سن التكليف بفترة حتى إذا بلغ هذا السنَّ

كان مستعداً نفسياً وجسمياً لامتثال أمرها الذي أصبح وجوبياً في حقه بعد بلوغه.

ويدخل في إطار التغذية المعنوية للطفل دعوته من قبل مربيه إلى الاتصاف بمكارم الأخلاق الشاملة لكل الصفات النبيلة والمزايا الحميدة، بعد أن يكون سابقاً لاتصافه بها وملازمته لها، ليكون داعياً ومربياً له بسيرته قبل دعوته إلى الاتصاف بها بكلمته، حيث تكون الكلمة والموعظة في هذا الفرض منطلقة من القلب فتدخل وبسرعة في قلب المدعو للتجمل بها ولهذا قيل: (الكلام إذا خرج من القلب دخل في القلب، وإذا خرج من اللسان لا يتجاوز الآذان).

وما ذكرناه من نوع التغذية المعنوية للطفل والمربي المغذي له بها كان النظر فيه إلى ما يقدم للطفل من ذلك في مرحلة طفولته وعلى يد مربِّيه الأول في مدرسة المنزل وهو الأبوان غالباً، وعندما ينتقل إلى المدرسة الخارجية الثقافية يطلب من وليه أو مَن تحمل مسؤولية تربيته من الأول أن يبقى محافظاً على تغذيته المعنوية السليمة، وذلك باختياره المدرسة التي تُعنى بشؤون الدين وتهتم في تنشئة الجيل وتغذيته بروحه وجوهره المتمثل بأصوله الحقة وفروعه المربية ومُثُله الرفيعة وأخلاقه السامية، وهذا وذاك منحصر في تعاليم الدين الإسلامي الحنيف كما هو واضح لأنه وحده الذي يُلزم أولياء الأمر بالاهتمام بشؤون أولادهم ومَن هو بحكمهم ممن جُعل تحت إشرافهم كالطلاب بالنسبة إلى أساتذتهم.

ومن لوازم اعتناء المدرسة بالشؤون الدينية التي تكمل بها المهمة الثقافية هو اختيارها الأساتذة الملتزمين دينياً والمترقين ثقافياً من أجل أن يبعثوا روح التديُّن في جسم الثقافة لتصبح ثقافة حية تنطلق مع صاحبها في درب التقوى والصلاح نحو غاية السعادة والفلاح، وهذا وذاك هو الذي يوجب على أولياء الجيل ومَن ينوب عنهم بدور الرعاية أن يختاروا المدرسة التي تُعنى عناية فائقة بالتربية الدينية جنباً إلى جنب مع التغذية الثقافية.

وفي المقابل يطلب من القيمين المشرفين على هذا النوع من المدارس أن يمهدوا السبيل أمام أولياء الطلاب ويشجعوهم على التسجيل فيها، وذلك بمراعاة ظروف الأهالي وخصوصاً المستضعفين منهم بأن يطلبوا القسط المناسب لوضعهم الاقتصادي الصعب ولا يكلفوهم فوق طاقتهم.

وبتوفير التغذية المعنوية بكلا عنصريها العلمي المنور للفكر والعقل والديني المطهر للروح والنفس مع توفير التغذية المادية للجسم بالغذاء الحلال كما تقدّم.

يتخرج الجيل الذي توفر له ذلك كله من معهده الثقافي الديني جيلاً مسلماً واعياً ومؤمناً ملتزماً بخط السماء إيماناً وسلوكاً، وبهذا وذاك تكمل إنسانيته وتسمو منزلته وتتحقق أمنيته ويبقى منطلقاً إلى الأمام في درب التقدم والنجاح والسعادة والفلاح في حاضر دنياه ومستقبل آخرته.

ويعتبر ذلك كله ثمرة يانعة من شجرة التربية التشريعية الطيبة التي ذكرنا سابقاً أنها مكملة للتربية التكوينية التي تقدم الحديث عنها مفصلاً وعن دورها في أصل وجود الإنسان وانطلاقه في درب هذه الحياة نحو هدفه المحدد له برعاية سماوية وعناية تكوينية إلهية.

ومن أجل إبراز دور التربية التشريعية وبيان تكاملها مع التربية التكوينية بأسلوب أشمل وأوضح نقول:

إن كل الأمور التي يوجد لها دخل في أصل وجود الأنسان من المصدر الشرعي وما يعود عليه بالسلامة والصحة الجسمية والنفسية حين وجوده في عالم الرحم وبعد خروجه منه وبدئه رحلة الحياة وسفره المحتوم إلى مقره الأخير المعلوم ووصوله إلى هذا المقر سالماً مما يحطمه مادياً ومعنوياً في هذه الدار ومما سوف يتعرض له من العقاب الشديد والعذاب الأليم في الدار الأخرى.

أجل: إن انطلاق الإنسان من البداية السليمة من الانحراف عن خط الشرع القويم وسيره في الصراط المستقيم نحو هدفه السليم مدين للتربية التشريعية

لأنها هي التي تطلب من والديه أن يجعلا مصدر وجوده في عالم الرحم من المنشأ الحلال المشروع كما تطلب منهما مراعاة كل ما ينفعه في هذا العالم ليتبع وكل ما يضره ليجتنب، ثم تمضي معه هذه التربية بعد ولادته بتكليف المربي له بمراعاتها في حقه حتى يبلغ سن التكليف ليسير في نهجه القويم نحو هدفه الحكيم كما لاحظنا خلال البحث عن مصاحبة التربية التشريعية له إلى أن يتخرّج من المعهد الديني الثقافي مسلماً واعياً ومؤمناً ملتزماً، وكان ذلك كله في مرحلة بناء شخصيته وقيامها على أساس التربيتين التكوينية والتشريعية كما سبق.

وعندما يريد الدخول في إطار الأسرة (المجتمع الصغير) بقصد بنائها تتوجه نحوه التكاليف الشرعية ليبني شخصيته الاجتماعية الأسروية على أساس قوي محكم يجعل من أسرته التي عزم على تكوينها صرحاً قوياً قائماً على أساس ثابت لا يهتز أمام عواصف الحياة وأعاصير الزمن.

ويأتي دور التربية التشريعية لترشده إلى هذا الأساس القوي، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والصراط المستقيم الذي يطلب منه سلوكه ليصل به إلى مقره الأخير سالماً وسعيداً.

كما يُطلب منه الأيمان بمن بعثه الله سبحانه رسولاً للإنسانية لتسير خلفه على ذلك الصراط لأنه هو الذي يرشد إليه ويدل عليه دون غيره من سبل الغي والانحراف.

كما يُطلب منه أن يتمم إيمانه بالرسول بالإيمان بخلفائه المعصومين المقصودين بكلمة أولي الأمر في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾(١).

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

وقد أرشد الرسول إليهم ودلّ بأمر من الله عليهم في حديث الثقلين القائل:

«إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً».

وفي حديث السفينة القائل:

«مثلُ أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح مَن ركبها نجا ومَن تخلّف عنها غرق وهوى».

وكلا هذين الحديثين متواتر لدى الفريقين من المسلمين وذلك يُغني عن ذكر مصدرهما بالتفصيل.

ويترتب على الإيمان بتلك الأصول الأساسية حصول المودة والرحمة والاحترام المتبادل بين الزوجين وتتولد منهما ذرية صالحة متأثرة إيجابياً بعامل الوراثة السليمة والتغذية بالحلال والتربية الحكيمة، وقد مرّ معنا أن مراعاة هذه العوامل المؤثرة إيجابياً من نتائج تدخل التربية التشريعية فيها ودعوتها إلى الاهتمام بها، وهكذا تستمر هذه التربية المباركة في تدخلها المبارك من أجل تكوين الأسرة المسلمة، وذلك بطلبها من الزوج المعاشرة بالمعروف وتأدية كافة الحقوق الزوجية المادية والمعنوية الواجبة والمستحبة، وبطلبها من الزوجة أيضاً معاملة الزوج بالاحترام والمعاشرة بالمعروف وبكل ما يؤدي بطبعه إلى زرع المودة والرحمة في قلب كل واحد منهما للآخر.

وكذلك تطلب التربية المذكورة من الوالدين تأدية ما يجب عليهما نحو الأولاد من التربية الإسلامية الصحيحة التي تساهم في بناء أسرتهما وجعلها أسرة مسلمة متماسكة ومتعاونة على البر والتقوى، ومن المعلوم أن بناء الأسرة على الأسس القويمة المذكورة يساهم مساهمة فعالة في بناء المجتمع بناءً قوياً محكماً باعتبار كونها اللبنة التي يتقوم بها بناؤه ويقوم على أساسها صرحه.

وهكذا تنطلق التربية التشريعية مع الإنسان الفرد لتبنيه روحياًوجسمياً وتمهد بذلك لبناء الأسرة التي تتقوم بأفرادها المعهودة وبناؤها يمهد لبناء المجتمع وإقامة صرحه على الأساس القوي المحكم، ونتيجة تدخل التربية التشريعية في بناء الفرد الصالح وبناء الأسرة المسلمة الصالحة وبناء المجتمع المسلم الصالح هي تحقق الغاية التي خلق الله سبحانه الإنسان من أجلها وهي عبادته وحده لا شريك له، بالمعنى العام للعبادة الشامل للعبادات الخاصة المعهودة وغيرها من الأعمال الراجحة في نفسها عندما يأتي بها المكلف بقصد التقرُّب لله تعالى.

وبتحقق الغاية المذكورة على الصعيد العملي يتحقق الغرض الأقصى والهدف الأسمى المستهدَف من تكليف الإنسان فرداً ومجتمعاً بالعبادة بمعناها العام المذكور لأنها تتمثل بالإطاعة المطلقة والانقياد الكلي لإرادة الله سبحانه بفعل ما أراد من المكلف فعله وترك ما أراد منه تركه، وبذلك تتحقق التقوى التي هي روح العبادة وجوهرها بدليل أن الله سبحانه علّل أمره بالعبادة بترتب التقوى عليها وذلك بصريح قوله سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(١).

ولا تقف التربية التشريعية عند حدود حياة الإنسان المادية المحصورة في إطار هذه الحياة المحدودة بل تنطلق معه لتصحبه بعد موته وقبل دفنه بما أوجبت له من المراسيم المعهودة المتمثلة بتغسيله وتحنيطه وتكفينه والصلاة عليه ودفنه بعد ذلك بالمواراة التي تحفظ له كرامته وتصونه من كل ما يؤدي إلى ما ينافيها.

وفي هذا الإطار طلبت استحباباً تلقينه بشهادة الموت المعهودة وصلاة

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.

الوحشة المعلومة ـ ليلة الدفن ـ لتخفف عنه من وحشة غربته وانفصاله عن أحبته، كما طلبت تفقده وباستمرار بقراءة سورة الفاتحة وإهداء ثوابها إلى روحه، وإذا قرىء معها غيرها فذلك نور إلى نور.

وإذا كان قد أوصى بواجبات أو مستحبات من العبادات أو غيرها تأتي التربية التشريعية لتطلب من ورثته المبادرة إلى تنفيذ وصيته ولا تسمح لهم بتقسيم التركة قبل تأدية ما يكون متعلقاً بها من الدين للآخرين أو الحق الشرعي المفروض للفقراء والمساكين أو ما يكون بحكم الدين من حيث تعلقه بالتركة وهو أجرة الحج إذا كان وجوبه مستقراً في ذمته حال حياته على تفصيل مذكور في محله من الكتب الفقهية.

ويدخل في هذا الإطار تكليف وليه وجوباً بقضاء ما فاته من الصلاة والصيام والمراد بوليه كبير أولاده من الذكور يوم وفاته على تفصيل في ذلك كله مذكور في الرسائل العملية.

كما يدخل في الإطار المذكور تكليف أقاربه عامة وأولاده خاصة على وجه الاستحباب بتفقده بكل أنواع البر والإحسان الذي ينفعه في عالم البرزخ وبعده في عالم القيامة والمحشر وقد اعتبرت التربية التشريعية والرحمة الإلهية ذلك نوعاً من صلة الرحم التي تطلب من الأقارب عامة والأولاد خاصة، بعد وفاة قريبهم، وأكدت ذلك بما يترتب عليه من الثواب والمكافأة لواصل رحمه بالتوفيق لأن يُرزق ذرية صالحة تعامله وتقابله بالمثل حال حياته وبعد وفاته.

وأكدت ذلك أيضاً بالإنذار والتحذير من ترتب عكس النتيجة الإيجابية المذكورة على إهمال الرحم ونسيانه وخصوصاً بعد الوفاة.

وهناك روايات تؤكد بمضمونها ما ذكرنا من اهتمام التربية التشريعية بمصلحة الإنسان ومصيره وخصوصاً الوالدين.

منها: ما روي عن الإمام الرضا عليه السلام من قوله: «ما يمنع الرجل منكم أن يبر والديه حيين وميتين ويصلي عنهما ويتصدّق عنهما ويحج عنهما ويصوم

عنهما فيكون الذي صنع لهما وله مثل ذلك فيزيده الله عزّ وجل ببره وصلاته خيراً كثيراً»[1].

وبعد الانتهاء من الجولة الفكرية في رحاب التربية الإلهية بمعناها العام نعود لإكمال الحديث في الجهة الأولى المعقودة لبيان الوجه في اختصاص وتخصيص سورة الحمد للقراءة في الركعتين الأوليين من الصلاة فنقول:

قد ذكرنا في مستهل الحديث في الجهة الأولى المذكورة أن الوجه في هذا التخصيص هو اشتمالها على خصوصيات مميزة لها عما سواها من السور لوجودها فيها وعدمها في غيرها وأشرنا سابقاً أن هذه السورة بتلك الخصوصيات كانت منسجمة مع الهدف الكبير الذي شرع من أجله وجوب الصلاة وهو تعميق وتحقيق الهدف الأسمى الذي خلق الله سبحانه الإنسان من أجله وهو عبادته وحده لا شريك له.

وإذا أدركنا أن المقصود الأساسي من هذه العبادة التي هي علة الخلق والإيجاد للإنسان هو الخضوع المطلق والانقياد الكلي لإرادة الله سبحانه بكل عمل اختياري يمارسه المكلف بإرادته واختياره سواء كان عملاً داخلياً باطنياً أم خارجياً ظاهرياً.

وأدركنا أيضاً أن الصلاة بما اشتملت عليه من معانٍ كبيرة ومرامٍ سامية وحركاتٍ هادفة وأقوالٍ مربية هي التي تحقق الغاية المقصودة من العبادة المفروضة.

نعرف السر في اختصاصها وتخصيصها بما ذكرنا.

وتوضيح ذلك أن العبادة بمعناها الشامل المتمثل بالخضوع المطلق والانقياد الكلي لإرادة الله سبحانه بكل عمل اختياري لا تتحقق من المؤمن العابد إلا إذا توفرت فيه وله الأمور التالية:

---

(١) جامع السعادات ج٢ صفحة ٢٦٠ الطبعة الثانية في النجف الأشرف.

الأمر الأول منها: الالتفات التفصيلي لعظمة الإله المعبود المتفرّد بالكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه شريك ولا يدنو منه به شبيه لذلك كان أكبر من كل كبير وأقدر من كل قدير وأغنى من كل غني، وهكذا إلى آخر الصفات الكمالية المطلقة.

وذلك لأن الالتفات الواعي لذلك يُحول الإيمانَ بوجود ووحدانية هذا الإله العظيم من مجرد اعتقاد جازم في العقل والإدراك إلى حالة خوف وخشوع في القلب، وعندما يخشع القلب لعظمته سبحانه وتخشى النفس من جلالته وكبريائه ينعكس هذا الخشوع وتلك الخشية على الجوارح ليصبح المؤمن العابد لله تعالى عابداً له بكل كيانه باطنه وظاهره وبذلك تحقق العبادة غايتها المنشودة.

وحيث أن سورة الفاتحة محققة لهذه الغاية بأسمى مراتبها كانت متميزة عن غيرها من السور ومتعينة لأن تقرأ في الركعتين الأوليين من الصلاة.

وتحقيق الأمر الأول وهو الالتفات التفصيلي للعظمة الإلهية يكون من خلال التدبُّر الواعي والتنبُّه الذكي للمعنى المقصود من اسم الجلالة الذي ينطق به، أولاً حين إتيانه بتكبيرة الإحرام وثانياً حين قراءته البسملة، وثالثاً عندما يبدأ بقراءة السورة ويتلو أول آية منها، وهي قوله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

ولا يخفى أن تكرار هذا الاسم الأعظم على اللسان مع تدبر معناه والالتفات إلى محتواه يزرع الخشوع في القلب والرهبة في النفس ليدرك المصلي أن هذا الإله العظيم الذي يقف بين يديه في صلاته هو مصدر الوجود وخالق الموجودات جميعها كما أنه مصدر الآلاء والنعم كلها وأنه وحده يعطي مَن يشاء ويمنع مَن يشاء ويُعز مَن يشاء ويُذل مَن يشاء بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

ولهذا وذاك كان مستحقاً للحمد والثناء والشكر على آلائه الكثيرة

ورحمته الواسعة بصفته خالقاً للعالمين ومربياً لهم بتدبيره الحكيم ورعايته الشاملة وعنايته الفائقة.

الأمر الثاني: الذي يُطلب من المؤمن العابد لله سبحانه هو أن يكون على حالة توازن بين الخوف والرجاء فلا يطغى الخوف على مشاعره ليميل به إلى حالة اليأس من رحمة الله ولا يطغى الرجاء على نفسه ليميل به إلى حالة الأمن من مكر الله تعالى.

ويأتي نعت الله سبحانه بصفتَي الرحمٰن الرحيم مع تكرار ذكرهما ليجعل العابد لله في حالة التوازن والاعتدال فلا يكون تفكيره بعظمة الإله التي يوحي بها اسم الجلالة الأعظم موجباً إلى الخوف المتطرف، ولا تأمله في رحمته تعالى الواسعة مؤدياً إلى الأمن المنحرف بل يبقى في الحالة الوسطى المطلوبة منه.

الأمر الثالث: هو ربط الإيمان بالمعاد ونتائجه بالإيمان بالمبدأ وهو الله وصفاته، في مقام التعبير عن العقيدة الصحيحة وفي مقام ترجمتها وتجسيمها خارجاً بالعمل والممارسة.

وذلك لأن الإيمان بالمعاد متمم للإيمان بالمبدأ ذاتاً ونتيجة وغاية، ولهذا السبب لا يحكم بإسلام أي شخص بدون الاعتراف بهما معاً عن اقتناع وتدبُّر مع الاعتراف بالواسطة التي تربط المخلوق العابد بالإله الخالق المعبود وترشده إليه وتعمّق إيمانه بوجوده ووحدانيته بالبرهان الساطع والدليل القاطع، وتعرُّفه بالغاية التي خُلق من أجلها وهي عبادته وحده لا شريك له مع بيان كيفيتها المطلوبة فيها.

وتلك الواسطة هي الرسول، ولذلك كان الإيمان بها متمماً للإيمان بالمبدأين الأولين، وذلك لعدم ترتب الغاية المقصودة من الإيمان بهما بدون الإيمان بها كما هو واضح.

الأمر الرابع: هو إكمال التوحيد في العقيدة بالتوحيد في العبادة لأن

الأول لم يجب إلا من أجل تحقيق الثاني، ويأتي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ليحقق الأمر الرابع والاستعانة بالله سبحانه نوع من الانقطاع والعبادة فلا تكون خارجة عن إطارها.

الأمر الخامس: أن يطلب المؤمن العابد من الإله المعبود، وهو يناجيه بصلاته أهم المطالب وأسمى المقاصد وهو هدايته واهتداؤه إلى النهج القويم والصراط المستقيم الذي يوصله إلى حيث يريد الله منه وصوله إليه وحصوله عليه من الإيمان الصادق والعمل الصالح والخلق الفاضل الذي يعود عليه بالتقدم والسعادة في الدنيا والآخرة.

ويأتي الدعاء والتضرع لله سبحانه بأن يهديه ويرشده إلى ذلك الصراط المستقيم بقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ محققاً للأمر الخامس الأخير، وشاءت الحكمة الإلهية أن توضح المراد من هذا الصراط بإضافته إلى أولئك الذين منَّ الله عليهم بالتوفيق والهداية إلى النهج القويم والصراط المستقيم في المبدأ والعقيدة والنهج والشريعة والسلوك والممارسة حيث قال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وقد نصّ سبحانه في آية أخرى على الذين منَّ عليهم بنعمة الإيمان الصادق والعمل الصالح بقوله:

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[1].

هذا حاصل ما جال في ذهني في مقام بيان الوجه الذي اقتضى تخصيص سورة الحمد للقراءة في الركعتين الأوليين من الصلاة دون غيرها من السور، وهناك حديث قدسي مشهور يدل على أهمية هذه السورة مع الإشارة الإجمالية إلى وجه الاختصاص كما أن هناك روايات عديدة تدل على فضل

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

قراءتها، وما يترتب عليها من الثواب العظيم والأجر الجسيم واقتصرت على ذكر روايتين منها رغبة في الاختصار.

أما الحديث القدسي، فهو ما نقله الأستاذ كامل سليمان في كتابه النفيس (مفتاح الخلاص) صفحة ٢٣٧ عن المحجة البيضاء الجزء الأول صفحة ٣٨٨، وهو كما يلي:

قال الله فيما أخبر عنه رسوله الكريم ﷺ:

«**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفها لي ونصفها لعبدي**».

يقول العبد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

فيقول الله: حمدني عبدي، وهذا معنى قوله: سمع الله لمن حمده.

وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي.

وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ **قال: مجّدني عبدي.**

وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل.

فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾

قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

أما الرواية الدالة على فضل قراءة الحمد وتميزها عن غيرها المقتضي للاختصاص بها فهي التي رواها الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا عليه السلام قال:

«أمر الناس بالقراءة في الصلاة لئلا يكون القرآن مهجوراً، وإنما بدأ بالحمد دون سائر السور لأنه ليس شيء من القرآن والكلام جمع فيه من جوامع الخير والحكمة ما جمع في سورة الحمد وذلك أن قوله عزّ وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

إنما هو أداء لما أوجب عزّ وجل على خلقه من الشكر»[١].

والرواية الثانية: تدل على فضل قراءة الفاتحة وأثرها البليغ في حياة الإنسان المؤمن، ولم تتعرض لوجه الاختصاص بها، وهي التي رواها معاوية بن عمار عن أبي عبدالله عليه السلام وقد ورد فيها:

«لو قرئت على ميت سبعون مرة ثم ردت فيه الروح ما كان ذلك عجباً»[٢].

هذا حاصل ما جال في ذهني في مقام بيان الوجه الذي اقتضى اختصاص سورة الفاتحة وتخصيصها بالقراءة في الركعتين الأوليين من الصلاة، وقد حصل مقدار من التوسعة ونوع من الاستطراد في مقام بيان المراد من كلمة ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ حيث بينت أن كلمة الرب مشتقة من التربية، وبالمناسبة قسمت التربية إلى قسمين: تكوينية وتشريعية، وتوسعت في الحديث حول كل واحدة منهما وكان المبرر لهذا الاستطراد وتلك التوسعة هو انسجامها مع الهدف الأساسي الذي أُلِّف هذا الكتاب من أجله وهو التركيز على الجانب التربوي في مقام بيان فلسفة الصلاة ودورها التربوي في بناء شخصية الإنسان المسلم فرداً ومجتمعاً ومدى تأثيره في تقدمه وسعادته في دنياه وآخرته.

وبعد الفراغ من الكلام في الجهة الأولى التي عقدت لبيان الوجه في اختصاص سورة الحمد وتخصيصها بالقراءة الواجبة في الركعتين الأوليين من الصلاة، يأتي دور الحديث في الجهة الثانية لبيان المراد من مفردات وجمل هذه السورة بتفسير مختصر فنقول:

ذكر المفسرون أن المراد من كلمة الباء في قوله تعالى:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هو الاستعانة بمعنى أن المؤمن المصلي مستعين بالله ومتوكل عليه لنيل أي هدف مشروع يريد الوصول إليه

---

(١) الوسائل ج٤ ص ٧٣٣ ح٣.

(٢) الوسائل ج٤ ص٨٧٣.

والحصول عليه باعتبار كونه سبب الأسباب من حيث أنه رب الأرباب الذي يحتاج إليه كل شيء ولا يحتاج إلى شيء.

وقيامه بين يدَي الله سبحانه لإقامة الصلاة على الوجه المطلوب المحقق للغرض المنشود من جملة الأهداف المشروعة التي يتوقف إدراكها على التوفيق والإعانة منه تعالى.

وذكر المفسرون أن المراد من الاسم المضاف إلى اسم الجلالة هو المسمى به الذي هو عبارة عن ذات الله المقدسة المتصفة بجميع الصفات الكمالية، وكانت الاستعانة به ـ أي بالاسم المقدس ـ من أجل التيمن والتبرك والتفاؤل بإدراك النجاح والتوفيق لتأدية الصلاة على الوجه المطلوب، ولنيل ذلك حين السعي في سبيل سائر الأهداف المشروعة من قبل الله سبحانه والمطلوبة للإنسان المؤمن به والمتوكل عليه.

وأما اسم الجلالة وهو ﴿ٱللَّهِ﴾ فقد مرّت الإشارة إلى المراد منه عند الكلام حول تكبيرة الإحرام مفصلاً.

وذكر المفسرون أن صفتَي ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تشتركان في الدلالة على أصل اتصاف ذات الله المقدسة بصفة الرحمة، وتفترق الأولى عن الثانية بشمولها لكل إنسان في هذه الدنيا وتفترق الثانية ـ أي صفة ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ ـ بكونها مختصةً بالمؤمنين باعتبار أن المشمول لها هو المؤمنون بالله العاملون في سبيل مرضاته ونيل رحمته على وجه المكافأة والمجازاة.

ومن المعلوم أن رضوان الله سبحانه ورحمته ونعيمه الحاصل منه يكون مختصاً بالمؤمنين، وفي دار الآخرة، لأنهم هم المستحقون للمجازاة والمكافأة على التقوى والإحسان بالإحسان لقوله تعالى:

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾(١).

---

(١) سورة الرحمٰن، الآية: ٦٠.

ولأن الدار الآخرة هي محل المجازاة والمكافأة على الخير بالخير لقوله تعالى:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(١)].

و﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ معناه أن الله سبحانه هو مالك كل شيء في هذا اليوم وهو يوم الحشر والمجازاة، وليس لأحد من مخلوقاته أية سلطة في أي تصرف ولو بواسطة الملكية الاعتبارية التي تعطى في الشرع للإنسان في دار الدنيا من أجل تنظيم أمور معاش الناس ومعادهم.

وقصر المالكية على الله سبحانه في يوم القيامة هو المقصود من إضافة صفة مالك لهذا اليوم.

وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يدل على حصر العبادة بالله سبحانه وقصرها عليه لأن ذلك هو مقتضى تقديم المفعول على فعله كما ذكر في البلاغة وهذا الحصر هو مقتضى اختصاص الله سبحانه بحق الإطاعة والعبودية لعدم مشروعيتها بالنسبة إلى غيره بأي وجه من الوجوه كما هو واضح ويزيده وضوحاً قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[(٢)].

وأما قصر الاستعانة عليه سبحانه وحصرها به ففيه شيء من الخفاء فيحتاج إلى شيء من الوضوح فنقول:

المقصود من قصر الاستعانة على الله سبحانه هو الاعتقاد بأنه هو سبب الأسباب من حيث أنه رب الأرباب، ومَن عداه وما عداه من الوسائل والأسباب التي تعد من أجل التوصل بها إلى حصول المطلوب مجرد وسيلة بيد الإرادة الإلهية والحكمة السماوية، فإذا شاء الله سبحانه لذلك السبب أن

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣.

(٢) سورة البينة، الآية: ٥.

ينجح ويترتب عليه أثره المطلوب منه ترتب عليه، وإذا لم يشأ ذلك بطل دوره ولم يترتب عليه أثره.

وقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ هو تعليم من الله سبحانه لعبده المصلي وإرشاد له بأن يتوجه إليه ويتضرّع بين يديه حال صلاته ويطلب منه التوفيق بدعائه وتضرعه لأن ينال أسمى الأهداف وأعلى الغايات، وهي الهداية والاهتداء لسلوك النهج القويم والصراط المستقيم الذي يُوصله إلى ما أراد سبحانه وصولَه إليه وحصوله عليه من الإيمان الصادق والعمل الصالح والخلق الفاضل الذي يعود عليه بالتقدم والسعادة في الدنيا والآخرة.

وإضافة الصراط إلى الأشخاص الذين أنعم الله عليهم بالإيمان الصادق والعمل الصالح فكانوا بذلك منحازين ومتميزين عن غيرهم من الضالين المنحرفين عن صراط الحق في العقيدة والعبادة وأصبحوا لهذا وذاك من المغضوب عليهم من قبل الله سبحانه وأوليائه.

أجل: إن إضافة الصراط إلى هؤلاء المهتدين واقعاً بالإيمان الصادق والعمل الصالح، من أجل توضيح هذا الصراط بذكر العلامة الدالة عليه والمميزة له عن غيره من طرق الباطل حتى لا يحصل تردد وشك لدى أحد من عباد الله تعالى في مقام اختيار الطريق الموصل إليه والمحقق لهم ـ أي لعباده سبحانه ـ ما أراد أن ينالوه ويظفروا به من السمو والرفعة والسعادة الخالدة.

ولأهمية هداية العباد لسلوك طريق الحق ومدى اهتمامه سبحانه بذلك أمرهم بسلوكه واتباعه ونهاهم عن اتباع غيره من سبل الضلال والانحراف وذلك بقوله تعالى:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

---

(1) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

وبعد الفراغ من الكلام في الجهة الثانية يأتي دور الكلام في الجهة الثالثة وهي التي عقدت لبيان الدروس التربوية التي يمكن أن تستفاد من هذه السورة المباركة وهي كثيرة وسأقتصر على ذكر أهمها وهي كما يلي:

الأول من هذه الدروس: هو درس في التوكل ومصدر استلهامه هو الباء في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ باعتبار دلالتها على الاستعانة التي هي بعض معانيها والاستعانة في نظر المؤمن الواعي ترجع إلى التوكل على الله واللجوء إليه من أجل طلب المعونة منه والإعانة على تحقيق هدف مشروع فيه لله رضا وللإنسان مصلحة وصلاح.

وتقييد الهدف بالمشروعية من لوازم التوكل على الله ليكون توكلاً واقعياً ومنطقياً يُتوقع ترتب الأثر عليه بعد الاعتماد عليه سبحانه لأن فرض عدم المشروعية يتنافى مع طبيعة التوكل وينافي الغاية المقصودة منه وهي إعانته سبحانه عبده اللاجىء إليه والمتوكل عليه على تحقيق مقصوده لأنه مع عدم المشروعية تكون من الإعانة على الإثم، وهي قبيحة عقلاً وحرام شرعاً فلا يتوقع صدورها منه سبحانه، ومشروعية الهدف هي الشرط الأول من شروط تحقق التوكل الحقيقي.

والشرط الثاني: إعداد الأسباب العادية التي يتوقف ترتب الهدف على تحققها لأن ذلك مقوم لحقيقة التوكل ومحقق لجوهره وبدونه يكون تواكلاً مذموماً لا توكلاً محموداً، ويشترط في هذه الأسباب المشروعية أيضاً لنفس الوجه الذي اقتضى مشروعية الهدف نفسه.

الشرط الثالث: أن يُنظر إلى تلك الأسباب من زاوية كونها مجرد وسيلة وآلة بيد الإرادة الإلهية والحكمة السماوية، فإذا أراد الله سبحانه نجاحها وترتب أثرها عليها، تحقق ذلك وقابل المؤمن المتوكل هذا النجاح بالحمد والشكر لله سبحانه على ما أنعم به ووفق له مردداً بلسان المقال أو الحال قوله تعالى عن لسان نبيه شعيب عليه السلام:

﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾[1].

وقوله تعالى عن لسان نبيه سليمان عليه السلام :

﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾[2].

وإذا لم يرد الله سبحانه لتلك الأسباب النجاح فلا يترتب أثرها وقابل ذلك المؤمنُ هذه النتيجةَ السلبيةَ بالرضا والقبول مردداً بلسان المقال أو الحال قول الإمام المهدي عليه السلام في دعاء الافتتاح:

«ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور».

هذا حاصل الدرس الأول: الذي يمكن أن يستوحى من الباء في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾، ومَن أراد الاطلاع على موضوع التوكل ودوره التربوي في حياة الإنسان المؤمن على وجه التفصيل فليراجع هذا الموضوع في الجزء الأول من وحي الإسلام للمؤلف صفحة ٢٢٦ الطبعة الثانية.

الدرس الثاني: الذي يمكن استيحاؤه من سورة الفاتحة المباركة هو درس في التوازن والاعتدال بين حالتي الخوف من عقوبة الله سبحانه ورجاء رحمته ومغفرته، وذلك لأن الالتفات التفصيلي إلى مسمى لفظ الجلالة، وهو الذات المقدسة المتصفة بالعظمة والجلالة والقدرة والسلطة المطلقة يزرع الخوف والخشية في قلب المؤمن المتفكر في هذه العظمة وتلك الجلالة وكان ذلك هو السبب فيما كان يحصل لكل من الإمامين الحسن وزين العابدين عليهما السلام من اصفرار الوجه وارتعاد الفرائص بمجرد شروعه بالوضوء وكان كل واحد منهما يعلل ويجيب على السؤال والاستفهام عن سبب حدوث هذه الحالة له بقوله ما حاصله:

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٨.

(٢) سورة النمل، الآية: ٤٠.

حقٌّ على مَن يريد الوقوف بين يدَي جبار السموات والأرض أن تحصل له تلك الحالة.

وتقوى هذه الخشية بملاحظة اتصافه سبحانه بكونه مالكاً ليوم الدين والجزاء، وهو يوم الأهوال الذي تشيب لهوله الأطفال كما نصّ سبحانه على ذلك بصريح قوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾[1].

فإذا اقترن بالالتفات التفصيلي المذكور المؤدي إلى الخشية والخوف، الالتفات الواعي إلى وصفه لنفسه بكونه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مؤكداً اتصافه بالرحمة بذكر الوصفين المذكورين على وجه الاتصال والمقارنة في الآية الأولى، وهي البسملة مع ذكره لهما كذلك في الآية الثانية بقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

أجل: إن الملاحظة الواعية لما يستفاد من اسم الجلالة ووصفه سبحانه بكونه مالكاً ليوم الدين مع ملاحظة اتصافه بالرحمة على وجه التأكيد يؤدي مجموع هاتين الملاحظتين إلى حصول صفة التوازن عند المؤمن بين حالتَي الخوف والرجاء فلا تطغى الأولى على الثانية ليؤدي ذلك إلى القنوط واليأس من رحمة الله وعفوه كما لا تطغى الثانية على الأولى ليؤدي هذا الطغيان إلى الأمن من مكر الله وعقوبته.

وقد مرت الإشارة إلى إمكانية استيحاء هذا الدرس في التوازن في مقام بيان الوجه الذي اقتضى تميز سورة الفاتحة على غيرها وتخصيصها للقراءة في الركعتين الأوليين من الصلاة.

الدرس الثالث: الذي يمكن استيحاؤه من سورة الحمد المباركة هو درس في العبودية الخالصة والمخلصة لله سبحانه بحيث لا يكون فيها شيء من الشرك الخفي أو الجلي ويستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

---

(١) سورة المزمل، الآية: ١٧.

حيث يدل على حصر العبادة بذاته المقدسة كما هو الواجب بحكم العقل السليم والشرع الحكيم لأنه سبحانه هو خالق الكون والإنسان ومالك كل شيء بالملكية الحقيقية فيكون كل مخلوق مملوكاً له ولا يحق له أن يعبد غيره ويطيع سواه كما هو واضح.

ويستفاد حصر وقصر العبادة عليه سبحانه من تقديم المفعول، وهو ﴿إِيَّاكَ﴾ على فعله ﴿نَعۡبُدُ﴾، وذلك يفيد قصر الفعل على مفعوله كما ذكر في علم البلاغة.

والعبادة المقصورة على الله تعالى ليست مقصورة على العبادات الخاصة المعهودة وهي التي يشترط في صحتها قصد التقرب بها، بل تشمل كل عمل راجح في نفسه قابل لأن يؤتى به بقصد التقرُّب له سبحانه كما تشمل كل معاملة يأتي بها المكلف وفق النظام الشرعي، ونتيجة ذلك وجوب حصره كل تصرفاته في إطار الشريعة الإلهية، ويراد بالمعاملة المذكورة معناها العام المقابل للعبادة فتشمل العقود والإيقاعات بمعناها المذكور في الفقه.

الدرس الرابع: وهو درس تربوي ذو أهمية قصوى لتضمنه تربية المسلم المصلي ولفت نظره إلى ضرورة أن يطلب من الله سبحانه وهو واقف بين يديه بصلاته ومناجاته أهم المطالب وأنفع المقاصد التي تعود عليه بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة وهو هدايته واهتداؤه إلى النهج القويم والصراط المستقيم الذي ينتهي به إلى تحصيل العقيدة الصحيحة التي تثمر له الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة التي تتجسم فيها وتتمثل بها العبادة الواعية الكاملة المكملة لإنسانية المؤمن العابد والمحققة له ما يريد الله سبحانه وصوله إليه وحصوله عليه من الخير والرفعة والسعادة في حاضر الدنيا ومستقبل الآخرة.

وقد أشار الله سبحانه إلى الخيرات الكثيرة والبركات الشاملة المترتبة على عبادته وتقواه بقوله سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

وبقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2]

هذا حاصل ما ينبغي التحدث به حول سورة الفاتحة، وما يتعلق بها ويستفاد منها من الدروس التربوية النافعة والرافعة في الدنيا والآخرة.

وبعدها نشرع بتفسير سورة الإخلاص (التوحيد)، وبعدها بتفسير سورة القدر سائلين المولى سبحانه أن يلهمنا التوفيق والسداد، ونحن نسير في رحاب الحديث حول فلسفة أبرز أركان الإسلام، وأقوى أعمدة الإيمان وهو الصلاة الناهية عن الفحشاء والمنكر والآمرة بالمعروف والإحسان.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٢) سورة الطلاق، الآيتان: ٢ و٣.

تفسير سورة التوحيد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لا حاجة لتفسيرها من جديد بعد التحدث حولها بمناسبة الحديث عن سورة الفاتحة.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الخطاب موجه للنبي محمد ﷺ، وقد ورد في سبب نزولها أن بعض المشركين قال: إلى مَ تدعونا يا محمد؟ فقال: «**إلى الله**» فقال: صفه لنا، أمِن ذهب هو أم من فضة أم من حديد أم من خشب؟ فنزلت السورة المباركة.

وذكر غير ذلك في سبب النزول في تفسير مجمع البيان.

﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تقدم الكلام حول اسم الجلالة في مقام تفسير سورة الفاتحة، وذكر في مختصر تفسير الميزان أن ﴿أَحَدٌ﴾ وصف من الوحدة كالواحد غير أن الأحد إنما يطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجاً ولا ذهناً ولذلك لا يقبل العد ولا يدخل في العدد بخلاف الواحد.

﴿ٱلصَّمَدُ﴾ ذكروا في تفسيره معاني متعددة، وهي تعود بعد التأمُّل إلى واحد وهو السيد المصمود إليه أي المقصود في الحوائج.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ معناه و اضح لأن ذلك هو مقتضى وحدانيته بالذات وصفاته الذاتية المتحدة مع ذاته المقدسة مع وحدانيته بالخلق والتدبير والرزق والتشريع واستحقاقه للعبادة.

تفسير سورة القدر باختصار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مرّ تفسيرها سابقاً.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ أي أنزلنا القرآن في ليلة القدر وأتي بالضمير بدون سبق مرجعه لفظاً لأنه حاضر في الأذهان فلا يحتاج إلى ذكر وبيان.

وقد اختلفوا في تحديد ليلة القدر على أقوال والمشهور عند علماء الإمامية تحديدها في ثلاث ليالي وهي ١٩ و٢١ و٢٣ وذلك عملاً بالرواية المروية عن الإمام الصادق عليه السلام وحاصلها أن سائلاً سأله عنها فقال: «**اطلبها في تسع عشرة وإحدى وعشرين وثلاث وعشرين**».

وحددها علماء السنة بالسابع والعشرين من الشهر المبارك.

وليلة القدر من ليالي شهر رمضان، ويستفاد ذلك من مجموع آيتين الأولى هي الآية المذكورة، والثانية هي قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

وكلمة القدر إما من التقدير لأن الله سبحانه يقدر فيها الأرزاق والآجال ويقضي بما يكون في السنة بأجمعها من كل أمر يحدث، وقيل القدر بمعنى الشرف وعظم الشأن من قولهم: فلان رجل ذو قدر عند الناس أي له منزلة رفيعة وشرف سامي.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ أي وما أدراك يا محمد ما خطر ليلة القدر

وشأنها الرفيع عند الله سبحانه، ويريد الله تعالى بذلك بيان أهمية هذه الليلة من أجل الترغيب في إحيائها والاستفادة من خيرها العميم وفضلها الجسيم بالدعاء وقراءة القرآن والصلوات وغير ذلك من الأعمال القربية التي تقرب المخلوق المتعبد من خالقه وتعود عليه بالخير والتوفيق والسعادة في الدنيا والآخرة.

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ بمعنى أن ثواب العمل فيها أفضل وأكثر من ثواب عمل ألف شهر ليست فيه ليلة القدر.

وللمفسر الرازي كلمة من وحي تفسير هذه الآية نقلها عنه العلامة المرحوم الشيخ محمد جواد مغنية في تفسيره الكاشف وهي قوله:

هذه الآية فيها بشارة عظيمة، وفيها تهديد عظيم، أما البشارة فهي أنه تعالى ذكر أن هذه الليلة خير، ولم يبين قدر الخيرية وهذا كقول النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «**لَمبارزة علي مع عمرو بن ود أفضل من عبادة أمتي إلى يوم القيامة**» فلم يقل مثل عملها بل قال أفضل[(١)].

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي تتنزل الملائكة ومعها الروح وهو جبرائيل في هذه الليلة بإذن ربهم وأمره إلى الأرض ليسمعوا الثناء من المؤمنين على الله سبحانه وقراءة القرآن وغيرها من الأذكار.

وقيل ليسلموا على المسلم بإذن الله، أي بأمره.

﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي أن هذه الليلة هي ليلة سلام وسلامة من كل الآفات والشرور حتى مطلع الفجر، وهذا التفسير ينسجم مع قوله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[(٢)].

---

(١) الجزء السابع صفحة ٥٩٢ ط الأولى.

(٢) سورة الدخان، الآية: ٣.

هذا خلاصة تفسير سورة القدر وبعد الفراغ منه ترجح لدي نقل حديث حررته حول ليلة القدر ونُشر في آخر الجزء الثاني من وحي الإسلام حول فلسفة الصيام، وذلك من أجل إكمال الفائدة بإلقائه الضوء على موضوع هذه الليلة المباركة، وذكر ما يناسب بيانه من وحي مناسبتها المقدسة.

وفيما يلي نص الحديث وعنوانه:

حديث من وحي ليلة القدر:

ويأتي الحديث مؤخراً من وحي هذه الليلة المباركة ليكون مسك الختام لهذا الكتاب باعتبار كونها إحدى المناسبات الدينية التي تُحيى في شهر رمضان المبارك.

والحديث من وحي هذه الليلة الغراء يكون عادة في ثلاث جهات:

الجهة الأولى: يبين فيها الوجه في تسميتها بليلة القدر، وقد وُجه ذلك بعدة وجوه واعتبارات فقيل: سميت بذلك باعتبار أن الله سبحانه يقدّر فيها كل ما يجري على الإنسان من حوادث وطوارىء في سنته الحالية إلى السنة التالية، وقيل: سميت بذلك لأن الله سبحانه يعطي للأعمال التي يؤتى بها فيها قيمة رفيعة ومنزلة سامية بلحاظ درجة الثواب المترتب عليها بحيث يكون ثواب العمل المأتي به فيها معادلاً لثواب عمل ألف شهر مجرد عن هذه الليلة ولذلك وُصفت بأنها خير من ألف شهر، وقيل: سميت بذلك لأن الله سبحانه أنزل فيها كتاباً ذا قدر على نبي ذي قدر من أجل أمة ذات قدر على يدَي ملك ذي قدر وهو جبرائيل.

الجهة الثانية: يبحث فيها عن فضل هذه الليلة ويكفيها فضلاً وشرفاً مضاعفة ثواب الأعمال الواقعة فيها ليبلغ مقدارَ ثواب الأعمال الواقعة في ألف شهر مجرد عنها مضافاً إلى شرف نزول القرآن الكريم فيها واستجابة الدعاء ونحو ذلك من الخصوصيات الشريفة والمشرِّفة لهذه الليلة المباركة.

الجهة الثالثة: يبحث فيها عن تحديد هذه الليلة وبيان أنها أية ليلة من ليالي هذا الشهر المبارك مع تسليم استمرارها بعد عصر الرسول ﷺ وعدم انحصارها في زمانه مضافاً إلى القول بانحصارها في شهر رمضان الميمون كما هو المشهور وعدم الالتفات إلى القول المفيد لوقوعها في بعض الشهور الأخرى كشعبان.

والمشهور لدى الطائفة الشيعية ترتيب الأثر على ثلاث ليالي ورد بيانها والنص عليها في جواب سؤال وُجّه إلى الإمام الصادق عليه السلام من قِبَل أحد أصحابه طلب منه به تعيين ليلة القدر فقال عليه السلام: «إطلبها في تسع عشر وإحدى وعشرين وثلاث وعشرين» وإن كان الراجح لدى البعض كونها الأخيرة أي ليلة ثلاث وعشرين اعتماداً على بعض الروايات المتضمنة لذلك.

وبيان هذه الأمور التي مرت الإشارة إليها في الجهات الثلاث وإن كان راجحاً ومفيداً بلا إشكال إلا أن الأهم بيان ما هو الأهم منها بلحاظ النتيجة والآثار الإيجابية التي ينبغي أن تحصل وتترتب على إحياء ليلة القدر ليكون إحياءً حقيقياً عملياً لا يقف أثره على صورة الأعمال ومقدار ما يمارَس منها بعنوان الإحياء بل ينفذ إلى الروح روح تلك الأعمال المستحبة المعهودة حتى يبعثها فيها فتصبح حية بعد الموت ومتحركة بعد الجمود في طريق تحقيق الهدف الكبير والغاية الأساسية التي خلق الله الإنسان والكون من أجلها وهي عبادته وحده لا شريك له وهذه العبادة الخالصة المخلصة هي التي عبّر عنها بالتقوى في الكثير من الآيات الكريمة ومنها قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

وبعد معرفة روح الأعمال التي يؤتى بها بعنوان العبادة والتعبُّد لله سبحانه سواء كانت واجبة أم مستحبة في شهر رمضان أم في غيره نستطيع أن نعرف نوعها وواقعها من حيث الحياة والموت ومن حيث القوة والضعف الذي قد يلحقها بالأعمال الميتة التي تبقى حيث توجد ولا تتحرك في طريق القبول نحو الله سبحانه ومرضاته، وبقليل من التدبُّر ندرك روح الأعمال التي هي حياتها وتحركها نحو الهدف المقصود منها، وهي إخلاص المؤمن العامل في نيته مع فرض رجحان العمل ومحبوبيته لله في ذاته.

ومعنى الإخلاص في النية أن يكون الباعث إلى العمل أمرَ الله سبحانه مجرداً عن أي باعث آخر مؤثر في صدور العمل بحيث يكون متمماً لباعثية الأمر الإلهي.

والغاية الأساسية المقصودة من كل الأعمال المطلوبة لله سبحانه هي تقواه المتمثلة بفعل الواجبات وترك المحرمات.

وعلى ضوء معرفة ما هو روح الأعمال وما هي الغاية المستهدفة بها ندرك نوعية العمل وهل هو حي بحياة قوية تدفعه وتحركه نحو الهدف، أو ضعيفة لا تحركه أصلاً أو تحركه بحركة بطيئة جداً لا تساعده على بلوغه أوهو ميت لا حياة فيه ولا حركة له ليصبح بحكم المعدوم، ومن الواضح أن القسم الأول من الأعمال هو المطلوب لله سبحانه والمقرب منه وهو الصادر من المكلف بدافع التعبد لله سبحانه والتقرب منه وحده لا شريك له مع إيصاله إلى الهدف المنشود والغاية الأساسية المقصودة.

وأما بقية الأقسام فهي بحكم العدم إما لفقدها روح الإخلاص ووقوعها ميتة من أول وجودها أو لفقدها القوة المحركة نحو تلك الغاية، وبذلك نعرف كيفية إحياء ليالي القدر وأيامه وشهره وسائر الليالي والأيام والشهور، وندرك أن الإحياء الحقيقي للوقت كله ولشهر رمضان ولياليه وأيامه بصورة خاصة، لا يتحقق إلا إذا كانت الأعمال التي نأتي بها بعنوان التعبد لله والتقيد بنظام

عبادته، واجدة للحياة النابضة بالنشاط والحيوية الدافعة لصاحبها نحو الهدف الكبير لأن واجد الحياة في ذاته يستطيع أن يمد بها سواه ليصبح مثله في الحيوية والحركة في طريق الغاية الكبرى، وأما الأعمال التي تقع سقطاً فاقدة لروح الإخلاص أو تكون واجدة لهذه الروح حين العمل والممارسة، ولكنها فاقدة للوعي والتبصُّر الديني الذي يكشف للمؤمن العامل السر المستهدَف من وراء تشريع العبادات وهو التقوى كما تقدّم.

أما هذه الأعمال فلا يتحقق بها إحياءُ أي وقت تقع فيه سواء كان وقت شهر رمضان بلياليه وأيامه أم غيره، والسر في ذلك واضح لأنها بعد أن كانت ميتة أو بحكم الميتة فلا يتوقع منها إفاضتها لروح الحياة على غيرها ولهذا اشتهر القول المأثور (فاقد الشيء لا يعطيه).

وعلى ضوء هذه الحقيقة الإيمانية الموضوعية ندرك جيداً أن الشخص الذي يتوفق للإخلاص في العمل ولتحقيق الغاية الأساسية المقصودة منه وهي تقوى الله سبحانه والتقيد بأحكامه الشرعية بفعل المأمور به وترك المنهي عنه، يكون عمله هذا حياً وذا قيمة وقدر لتصبح كل ليلة يأتي به فيها ليلةَ قدر وكل يوم، يوم قدر كما يصبح كل شهر يمسك فيه عما حرّم الله تحقيقاً لغاية الصوم، شهر رمضان، حتى ولو كان ذلك العمل قليلاً من الناحية الكمية عندما يقتصر على الإتيان ببعض الأعمال الواجبة أو المستحبة بتوجه وإخلاص ووعي للغاية والتزام بتحقيقها.

وعلى العكس من ذلك العمل الذي يكون ميتاً فاقداً لروح الإخلاص أو ضعيفاً فاقداً لقوة الوعي التي تحركه في خط الهدف فمثل هذا العمل يكون بحكم العدم مهما كان كثيراً في الكمية ومثيراً للإعجاب من جهة الصورة والكيفية، وذلك لأن الأعمال بالنيات كما ورد عن أهل البيت عليهم السلام ولأن الله سبحانه ينظر إلى القلوب والأعمال لا إلى الصور والأموال كما ورد في حديث آخر.

وخلاصة هذا الحديث الذي قدمته بمناسبة ليلة القدر هي أن الأعمال التي جرت العادة على الإتيان بها في ليلة القدر مثل قراءة سور خاصة مضافاً إلى قراءة القرآن بصورة عامة مع الصلوات المعينة والأدعية المخصوصة ونحو ذلك من مستحبات هذه الليلة كزيارة الحسين عليه السلام والغسل.

هذه الأعمال وإن كانت مستحبة في الشرع ومسببة لنيل الأجر والثواب لمن يأتي بها بدافع التقرُّب والإخلاص لله سبحانه، ولكن المطلوب من المؤمن الواعي أن يدرك فلسفة العبادة بمعناها العام ويعرف الغاية الأساسية المقصودة من تشريعها، وهي ترسيخ صفة التقوى والتجمُّل بها في كل الأحوال وعند ممارسة جميع الأعمال لتصبح كلها عبادة لله تعالى يتقرّب بها إليه زلفى.

وبذلك ندرك أن قيمة قراءة القرآن تكون بقدر تجاوب القارىء مع تعاليمه السامية وتوجيهاته المربية، ويتمثل ذلك بفعل ما أمر به من واجب أو مستحب وترك ما نهى عنه من حرام أو مكروه.

وإذا لم يكن لديه طُموح عبادي يدفعه لفعل المستحب مع الواجب ويمنعه من فعل المكروه مع الحرام، فلا أقل، ومن باب أضعف الإيمان أن يلتزم بامتثال الحكم الإلزامي الوجوبي والتحريمي.

وبذلك يُعرف أن المؤمن الواعي لغاية قراءة القرآن لو قرأ قليلاً منه ولو آية وطبقها في حياته العملية فإنه ينال بذلك الثواب العظيم ويتفوق به على مَن قرأ القرآن كله ولم يعمل بأية آية من آياته، ولكنه اكتفى بالتلاوة فقط انسياقاً مع العادة الجارية وأخذاً بظاهر ما دلّ على استحباب قراءة القرآن بصورة مؤكدة في شهر رمضان وخصوصاً في ليلة القدر.

وحيث أن مقصودي من هذا الحديث لفت النظر إلى بعض الأمور الغامضة التي يغفل عنها الكثيرون، فلا بد من التنبيه إلى ما أشرت إليه وبيان أن القراءة المطلوبة هي المقترنة بالتدبُّر عملاً بقوله تعالى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1].

والتدبر الواعي يوحي لنا أن المقصود من تلاوة آيات هذا الكتاب الكريم هو العمل بمقتضاه والسير على ضوء هداه لأنه كتاب تربية ودستور عمل ومنهج حياة، ولم ينزل لمجرد التبرك بتلاوته وتحصيل الثواب بقراءته لينال القارىء هذه الفائدة بمجرد التلاوة.

وعلى ضوء معرفة الغاية الأساسية التي أُنزل هذا الكتاب العظيم من أجلها، ندرك أن القارىء لآياته المباركة بدون تدبُّر لمعانيه والتفات ولو إجمالاً لمراميه، بمعنى أن القراءة كانت مطلوبة لذاتها كما هو شأن الكثيرين ممن يقرأون القرآن في شهر رمضان المبارك بسرعة خاطفة وكل همهم أن يقرأوا القرآن كله أكثر من مرة لينالوا بذلك الثواب الأكثر.

أجل: على ضوء معرفة الغاية الأساسية المقصودة من إنزال القرآن الكريم وهي نفسها مقصودة من تلاوته، ندرك أن التلاوة المجردة عن التدبُّر الواعي يكون ثوابها قليلاً وربما فقد الثواب وحلّ مكانه استحقاق العقاب إذا كان القارىء لا يمتثل أمراً بواجب ولا نهياً عن حرام فيترك الحج مع استطاعته والصلاة مع تلاوته الآيات الآمرة بها كما يترك تأدية الفريضة المالية من الخمس والزكاة مع تعلقهما بماله وبعضهم يلتزم بالصلاة في خصوص شهر رمضان ويتركها في غيره نتيجة جهله بالغاية الأساسية التي شرع الصوم من أجلها وهي التقوى كما سبق وهي لا تتحقق إلا بفعل جميع الواجبات وترك جميع المحرمات في جميع الأوقات كما هو واضح، فمثل هذا الشخص يكون صومه ناقصاً وكذلك من لا يتورع بترك المحرمات وخصوصاً الغيبة والنميمة والكذب ونحو ذلك من المحرمات الكبائر وهو المقصود بقول النبي ﷺ:

«رُبَّ صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش».

---

(١) سورة محمد، الآية: ٢٤.

وكذلك من يصلي ويقتصر على صورة الصلاة من دون أن يعرف فلسفتها ويدرك غايتها، وهي الانتهاء عن الفحشاء والمنكر وهو المعني بقول الرسول الأعظم ﷺ:

«مَن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد عن الله إلا بُعداً».

ونفس الشيء يمكن أن يقال بالنسبة إلى من يكتفي بتلاوة آيات القرآن الكريم ولا يتدبر معناها ولا يعمل بمقتضاها لأنه يكون شبيهاً بالشخص الذي يحمل المصباح بيده ولا يفتح عينيه على نوره ليستفيد منه ويسلم من العثور.

هذا كله بالنسبة إلى تلاوة القرآن الكريم وخصوصاً في الشهر المبارك وعلى الأخص في ليالي القدر وأيامه.

وأما الصلاة المستحبة فلا تكون مفيدة لصاحبها ومحققة لغاية الإحياء إلا إذا كانت محققة للغاية الأساسية التي شرعت الصلاة الواجبة من أجلها وهي التقوى المتمثلة بما وصفها الله به من نهيها صاحبها وانتهائه بها عن الفحشاء والمنكر.

وكذلك الأدعية لا تكون محققة لهدف الإحياء إلا إذا كانت حيّة في نفسها واجدة لروح الاستجابة وهي الشروط الأساسية المعتبرة في استجابتها وترتب الأثر عليها، وقد أشار الله سبحانه إلى شروط استجابته لدعاء الداعي بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1].

فإنه يفهم من قوله تعالى أن الإيمان به واستجابة دعوته للعمل بهذا الإيمان هو شرط لاستجابة دعاء مَن يدعوه وقد عبرتُ بالشروط مع أن المذكور في الآية المذكورة شرطان لاستجابة دعاء الداعي وهما: الإيمان بالله

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

والعمل بهذا الإيمان الذي عبّر الله عنه بالاستجابة وذلك بلحاظ الشروط الأخرى المذكورة في محلها لاستجابة الدعاء.

ويسرني في ختام الحديث عن ليلة القدر أن أختمه بالمقطوعة الشعرية التي نظمتها بوحي من مناسبتها المباركة وهي كما يلي:

ليلة القدر سمو وارتقاءُ ... ومعانٍ ترفع القدرَ وِضَاءُ
وصلاةٌ ننتهي عن منكر ... بهداها وزكاة وعطاءُ
وصيام يثمر التقوى لنا ... مثلما يبغي إلهي ويَشاءُ
وجهادٌ أكبرٌ يُطوى به ... عن سماء النفس حقدٌ وعداءُ
ذلك القدرُ الذي نصبو له ... موقفٌ حر وصدق ووفاءُ
لنعيشَ القدرَ حباً صادقاً ... يتسامى بعلاه النبلاءُ
والتقى روح وقلب نابض ... إن توارث يعتري القدرَ انتهاءُ

فلسفة استقبال القبلة والتستر حال الصلاة

أما الأول فتتمثل الحكمة فيه باعتباره رمزاً لتوجه المصلي بوجه قلبه وباطنه إلى جهة الشرع بقصد التقرُّب لله سبحانه والإخلاص له بهذا القصد ونتيجة ذلك هي توجه قلبه إلى جهة الشرع وقبلة العبودية بكل عمل اختياري راجح يمارسه على صعيد هذه الحياة ويتأكد ذلك حال الصلاة ونحوها من الواجبات العبادية.

وأما وجوب التستر حال الصلاة فلا يبعد أن تكون الحكمة المقصودة منه هي التجمل بالصفات النبيلة والأخلاق الجميلة التي تغطي على الصفات الذميمة التي تبعد صاحبها عن رحمة الله سبحانه وعن احترام الآخرين، ومن أبرز الصفات الحميدة صفة الحياء من الله ورجاء ثوابه والخوف من عقابه، ونحو ذلك من الصفات السامية المترتبة على الاتصاف بملكة التقوى الراسخة في حقل النفس، فكما أن التجمل بالثوب المادي الظاهري يفيد الشخص جمالاً وهيبة وجلالاً ويستر ما يجب أو يترجح ستره من البدن، كذلك الثوب المعنوي الباطني الذي جُعل الثوب الظاهري رمزاً له ومقدمة لحصوله، وقد أشار الله إليه بقوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾(١).

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

فلسفة القنوت ودوره التربوي في حياة المؤمن

حيث أن القنوت من مصاديق الدعاء بمعناه العام المعهود فقد ترجّح لدي نقل الحديث الذي كتبته حول موضوع الدعاء ونشر في الجزء الثاني من وحي الإسلام حول فلسفة الصيام صفحة ١٢، وذلك لاشتماله على فوائد تربوية عديدة وعدم توفر الجزء المذكور في أكثر المكاتب بسبب نفاد نسخه ولنفس السبب كان نقل الحديث الذي كتبته حول ليلة القدر.

وبعد نقل الحديث المحرّر حول موضوع: **(الدعاء ودوره التربوي في حياة المؤمن)** أتحدث حول موضوع القنوت الذي هو دعاء مستحب بدرجة عالية من الاستحباب ومتميز عن غيره من مصاديق الدعاء بمعناه العام بخصوصية المحل الخاص المعين له في الصلاة، وهو بعد الفراغ من قراءة الركعة الثانية وقبل الهوي إلى الركوع بالنسبة إلى الصلاة اليومية التي هي موضوع الحديث في هذا الكتاب، وفيما يلي الحديث المحرّر حول موضوع **(الدعاء بمعناه العام)**.

إن لكلمة الدعاء معاني كثيرة في اللغة العربية ويتميز بعضها عن الآخر بالقرينة اللفظية أو المقامية، ومن معانيه ما هو محل الكلام، وموضوع الحديث وهو الطلب الموجَّه من العبد المؤمن لله سبحانه مقترناً بالتضرع والخضوع لجلب محبوب أو دفع مكروه.

وحيث أن الدعاء بهذا المعنى يحمل في طيه روح العبادة وجوهرها فقد

ورد الحث عليه والترغيب فيه في الكثير من الآيات الكريمة والعديد من الروايات المعتبرة من الأول قوله تعالى:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(٣).

ومن الثاني ما روي عن النبي ﷺ من قوله: «**ألا أدلكم على سلاح ينجيكم من أعدائكم ويدر أرزاقكم؟**».

قالوا: بلى، قال: ﷺ «**تدعون ربكم بالليل والنهار فإن سلاح المؤمن الدعاء**».

وروي عن أمير المؤمنين قوله عليه السلام: «الدعاء ترس المؤمن ومتى تكثر قرع الباب يفتح لك».

وروي عن الإمام زين العابدين قوله عليه السلام: «إن الدعاء يرد البلاء وقد أبرم إبراماً».

وسئل الإمام الصادق عليه السلام عن رجلين قام أحدهما يصلي حتى أصبح، والآخر جلس يدعو أيهما أفضل؟ قال عليه السلام: «**الدعاء أفضل**» وإنما كان للدعاء هذه المنزلة الرفيعة عند الله سبحانه وأهل البيت عليهم السلام لأنه يمثل بمفهومه الديني روح العبادة وجوهرها وهو خشوع العبد المؤمن بين يدَي الله سبحانه وخضوعه له وانقطاعه إليه وتوكله عليه في تحصيل الأمر المحبوب له ودفع المكروه عنه.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

ولا يصدق عنوان العبادة على أي عمل يمارسهُ المكلف على صعيد هذه الحياة إلا إذا كان حاملاً في طيه هذه الروح الإيمانية التي تعطيه الحياة والحركة نحو القبول والوصول إلى الهدف المنشود ولذلك ورد في الحديث ما مضمونه: «**لا يكتب من الصلاة إلا ما أقبل به العبد على ربه**».

لأنها بدون إقبال عليه سبحانه تكون جسماً بلا روح، ولذلك لا يترتب على فعلها بهذه الحالة سوى براءة الذمة منها وسقوط الأمر بإعادتها أو قضائها من باب اللطف الإلهي والرحمة السماوية ملاحظة للوضع العام الذي يعيشه عامة الناس الذين يفقدون روح التوجه والإقبال على الله سبحانه بسبب انشدادهم إلى قضاياهم الحياتية المؤثرة على أفكارهم وتوجههم.

وإذا أردنا أن نرسم صورة واضحة عن حقيقة الدعاء موضع البحث وموضوع الكلام فنقول:

إن الدعاء هو رجوع العبد المؤمن الفقير إلى مولاه الغني بالغنى المطلق الذي لا يحتاج إلى شيء ويحتاج إليه كل شيء، وذلك بالتوسل الخاشع والتوكل الواعي من أجل أن يعينه على تحصيل مطلب يعجز بذاته عن الوصول إليه والحصول عليه كالجاهل الذي يرجع إلى الله العالِم بكل شيء ليفيض عليه نوراً من علمه الواسع والفقير الراجع إلى الغني المطلق ليمن عليه بنفحة من عطائه وقبسة من ضيائه.

والمريض الراجع إلى الطبيب الحقيقي ليحقق له الشفاء ويخلصه من الداء.

والمجاهد المناضل في سبيل نصرة الحق الذي يرجع إلى القادر الناصر لأوليائه على أعدائه في معركة التضحية والفداء وهكذا.

وهذا ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام بقوله: «الدعاء مفاتيح النجاح ومقاليد الفلاح وخير الدعاء ما صدر عن صدر نقي وقلب تقي وفي المناجاة سبب النجاة وبالإخلاص يكون الخلاص فإذا اشتد الفزع فإلى الله المفزع».

وبالتأمُّل في مضمون كلام الإمام علي عليه السلام ندرك أن الدعاء إنما يكون مفاتيح النجاح ومقاليد الفلاح إذا صدر عن صدر نقي من الصفات الذميمة المبعدة عن الله سبحانه كالحسد والنفاق والبغض لأوليائه والحب لأعدائه سبحانه والحرص على مُتَع الحياة الزائلة حتى ولو حصلت من الحرام أو من المشتبه وكذلك لا يكون الدعاء مفتاحاً لباب الفرج والإجابة إلا إذا صدر من قلب مؤمن تقي فاعل لما أوجب الله عليه وتارك لما حرّم عليه، لأن ذلك شرط أساسي لتحقق الخضوع الحقيقي والرجوع الواقعي إلى الله سبحانه الموصل إلى ساحة رحمته باعتبار أن الصفات الذميمة والانحراف عن منهج التقوى يجعل حاجباً يمنع القلبَ من الخضوع والخشوع وصاحبَه من الوصول إلى العناية الإلهية كما هو واضح، ولهذا ورد في دعاء كميل:

«اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء».

وأشار الإمام عليه السلام بقوله: «وبالإخلاص يكون الخلاص» إلى أهم شرط في قبول الأعمال ونجاح المساعي وهو الإخلاص لله سبحانه في النية والتوكل عليه في نيل المطلوب بعد إيجاد ما يطلب إيجاده من المقدمات الطبيعية التي يتوقف عليها حصوله تمشياً مع الحكمة الإلهية التي قضت بأن يسعى الإنسان إلى تحصيل المسببات بواسطة أسبابها لقوله تعالى:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾[1].

والشرط الثاني: لنجاح المساعي يتعلق بالهدف المطلوب وهو إيجاد مقدماته العادية الطبيعية على النهج اللازم، والفرق بين الشرطين أن الأول مضمون النتيجة ومعلوم النجاح بلحاظ الأثر الأخروي، وهو نيل الثواب من الله سبحانه باعتبار أن الأعمال بالنيات.

وأما الثاني: من شقَّي الإخلاص المتمثل بإعداد المقدمات والوسائل

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣٩ و٤٠.

المطلوبة لنيل الهدف الخاص معجلاً، وفي هذه الحياة، فهو غير مضمون النجاح دائماً لأن ترتب المسبب على سببه والنتيجة على مقدماتها منوط بإرادة الله سبحانه فإذا أراد للسبب أن يؤثر وللسعي أن ينجح كان ذلك، وإذا لم يرد بقي كل شيء على حاله، وهنا يكون مفترق الطريقين بين المؤمن المتوكل على الله سبحانه وغيره.

فالأول: هو الذي يرجع إلى الله ويتوكل عليه لنيل غايته بعد إيجاده الأسباب اللازمة مخلصاً لله في النية وللهدف بإعداد مقدماته فإذا حصل مطلوبهُ شكر الله سبحانه على ذلك وقال بلسان الحال وقد يضم إليه لسانَ المقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾[1].

كما قال النبي سليمان عليه السلام: «وإذا لم يحصل له مراده صبر»

وقال بلسان الإيمان الصادق: «ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور».

وغير المؤمن يكون على العكس من ذلك فهو يفترق عن المؤمن في البداية ليفترق عنه في النتيجة والنهاية لأنه لا يخلص لله في النية ويعتمد على جهده الشخصي والأسباب الطبيعية العادية فإذا أعطت النتيجة وتحقق مطلوبه اعتبر أن نجاح سعيه راجع إلى جهده البشري وسببه الطبيعي، وقال بلسان الحال والمقال ما قاله قارون في التاريخ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾[2].

ولذلك لا يتقيد بالحكم الشرعي في مقام سعيه لتحصيل هدفه كما لا يتقيد به بعد ذلك في مقام تصرفه وتمتعه به بسبب إنكاره وعدم اعترافه من البداية بمصدر حصول الهدف المطلوب واقعاً، وهو الله سبحانه سبب

(١) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٨.

الأسباب ورب الأرباب، ونتيجة ذلك زوال النعمة عنه لأن المعصية تؤدي بطبعها إلى ذلك كما قال الشاعر:

إذا كنتَ في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تُزيل النعم

وقد حصل ذلك بالفعل لقارون بعد إنكاره المصدر الحقيقي لنعمته وثروته وتوقفه عن دفع الحق الشرعي وهو الزكاة للنبي موسى عليه السلام بعد طلبه منه بأمر من الله تعالى، ويضاف إلى ذلك العقوبة القادمة الدائمة يوم الحساب، وذلك هو الخسران المبين.

وحاصل الفرق بين العبد المؤمن المتقي لله والمتوكل عليه وغير المؤمن المنحرف عن خط السماء بعقيدته وسلوكه هو أن الأول يكون مع الله سبحانه على كل حال ليبقى الله معه في كل الظروف والأوضاع فإن حصلت له نعمة اعترف بأنها من الله سبحانه وشكره عليها قولاً وعملاً بصرفها في سبيل إطاعته ليزيده الله منها لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1].

وليديمها له ويدفع عنه البلاء وقد أبرم إبراماً وليطول عمره، وإذا طرأت عليه مصيبة صبر عليها ورضي بها ليكتب الله له ثواب الصابرين الذين عناهم بقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[2].

وغير المؤمن التقي يكون على العكس من ذلك كما سبق فهو إذا حصلت له نعمة لا يعرف ولا يعترف، بأنها من الله سبحانه بل يتوهم أنها حاصلة له بجهده الشخصي وينتج عن عدم إيمانه أو ضعف عقيدته عدم التقيد بشرع الله سبحانه في مقام السعي لتحصيل مطلوبه، وفي مقام التصرف به بعد تحصيله فلا يكون لديه أي مانع من أن يحصل له ولو من الحرام، كما لا يوجد لديه

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ و١٥٦ و١٥٧.

أي رادع من التصرف به وصرفه ولو في الحرام، وهذا وذاك يؤدي في الغالب إلى عدم توفيقه في الأول لحصول مراده، وإذا حصل له فسرعان ما يزول عنه بسبب تمرده على مناهج السماء وعدم تقيده بشرع الله تعالى شرع العدالة والاستقامة، ويضاف إلى زوال ما حصّله أو صرفه في الحرام استحقاق العقوبة الصارمة يوم القيامة، وإذا طرأت عليه ـ أي على غير المؤمن ـ مصيبة، وفي الغالب تكون بسوء اختياره نتيجة انحرافه عن خط التقوى ضجر منها وشق عليه تحملها، وبذلك تشتد عليه مصيبته، وإذا أدى به الضجر إلى الجزع والاعتراض على حكم الله سبحانه وقضائه فإنه يستحق بذلك العقاب في الآخرة مضافاً إلى ابتلائه بالمصيبة وألمها في الدنيا وذلك هو الخسران المبين.

وإذا دققنا النظر لنعرف سبب امتياز المؤمن عن غيره بما ذكرنا نعرف أنه الإيمان الصادق في الأول، وعدم الإيمان أو ضعفه في الثاني، لأن الإيمان الواعي القائم على أساس الدليل القوي الواضح هو الذي يوحي لصاحبه بأن كل النعم والآلاء من الله تعالى لقوله سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾[1] وأنه إذا صرفها في سبيل إطاعته زاده منها وأبقاها له وطوّل عمره كما تقدّم، ولذلك يتقيد بصرفها في هذا السبيل لينال هذه الفوائد المعجلة في الدنيا مضافاً إلى ظفره بالسعادة الخالدة والنعيم الدائم في الآخرة.

وإذا طرأت عليه مصيبة صبر عليها ورضي بقضاء الله وقدره فيها لينال بذلك ثواب الصابرين في الآخرة مضافاً إلى الفائدة المعجلة التي يحصّلها ببركة صبره وهي أن يخف تألمه بالمصيبة وبقدر إيمانه يقوى صبره وتخف مصيبته إلى درجة تصبح معها بحكم العدم.

وبذلك نعرف قيمة الإيمان الصادق وأنه أعظم نعمة يمن بها الله سبحانه

---

(١) سورة النحل، الآية ٥٣.

على الإنسان، وبهذه النعمة المباركة تكون النعم والآلاء الأخرى نعمة حقيقية يتمتع بها صاحبها في حاضر الدنيا ومستقبل الآخرة.

وبهذه النعمة ـ أي نعمة الإيمان ـ تخف المصيبة وربما تزول وتجف لتصبح بحكم المعدوم في الحاضر العاجل وينال بصبره عليها ورضاه بها الثواب العظيم في المستقبل الآجل.

وإلى هذه الفوائد العظيمة المترتبة على نعمة الإيمان أشار بعضهم بقوله ما حاصله: عجبت لأمر المؤمن إن أمره كله خير لأنه إذا حصلت له نعمة شكر فكانت خيراً له وإذا طرأت عليه مصيبة صبر فكانت خيراً له لنيله ثواب الصابرين.

وقد أشار بعض الشعراء إلى هذا المعنى بقوله:

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً	عليَّ له في مثلها يجب الشكرُ
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله	وإن طالت الأيام واتصل العمرُ
فإن مس بالسراء عم سرورُها	وإن مس بالضراء أعقبها الأجرُ
فما منهما إلا له فيه نعمةٌ	تضيقُ بها الأوهامُ والسرُّ والجهرُ

والدعاء الذي هو سلاح المؤمن ومصباحه الذي ينير له درب الأمل ويساعده على التوفيق والنجاح في مساعيه هو ثمرة يانعة من شجرة الإيمان الثابتة لأنه هو الذي يوحي لصاحبه بأن الله سبحانه هو مصدر الخير والعطاء والقادر على تحقيق الهدف المنشود لعبده المؤمن، ولذلك يلجأ إليه ويتوكل عليه ليمده بالحول والقوة ويمهد له سبيل النجاح في سعيه بعد إخلاصه له في النية والتوكل وإيجاده المقدمات الطبيعية التي يتوقف عليها حصول المطلوب عادة كما تقدّم مفصلاً.

وعندما يقال في حق المؤمن أنه يلجأ إلى الله سبحانه ويتوسل إليه بالخضوع والدعاء لنيل الهدف المحبوب له فإنه يُعرف ضمناً وبقرينة المقام أن

هذا الأمر المحبوب للعبد الداعي لا يكون مبغوضاً لله سبحانه ولو بدرجة الكراهة، وذلك لأن الدعاء في نفسه نوع من العبادة بل هو روح العبادات كلها فلا يتوقع من العبد المؤمن أن يكون على حالة انقطاع لله وخشوع له ويطلب منه مساعدته على مطلب مكروه الحصول عند الله سبحانه كما هو واضح.

وبعد نقل الحديث الذي حُرِّر حول موضوع الدعاء بمعناه العام يأتي دور الحديث حول القنوت الذي هو أحد مصاديقه، وله اصطلاح ومفهوم محدد عند الفقهاء، وهو الدعاء المأتي به أثناء الصلاة بعد الفراغ من قراءة الفاتحة والسورة من الركعة الثانية، وقبل الركوع.

ورفع اليدين أثناء الدعاء القنوتي غير داخل في حقيقته وليس شرطاً في مشروعيته، ولكن حيث أنه يستحب فيه استحباباً مؤكداً، ولذلك التزم المصلون به عملاً وأطلقوا لفظ القنوت عليه مع هذه الخصوصية باستعمال كثير متكرر حتى أصبحت داخلة فيه بلحاظ معناه العرفي.

ويؤكد ذلك أن المصلي إذا أتى بالدعاء القنوتي في محله من الصلاة بدون رفع اليدين لا يصدق عليه عرفاً أنه مشغول بالقنوت في الصلاة حتى ولو كان إتيانه به في موقعه المحدد له شرعاً.

ويستفاد استحبابه المؤكد من القرآن الكريم، ومن سنّة النبي العظيم ﷺ وأهل بيته الطاهرين كما يستفاد استحباب بعض الخصوصيات الزائدة على أصله ـ وهو نفس الدعاء ـ من الروايات الواردة في المقام.

ونبدأ أولاً بذكر بعض الآيات والروايات الدالة على أصل استحبابه وزيادة ثوابه، وثانياً الروايات الدالة على رجحان واستحباب بعض الخصوصيات.

من الآيات الدالة على أصل استحبابه قوله تعالى في مقام مدح النبي إبراهيم عليه السلام:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

وقوله تعالى في مدح مريم العذراء عليها السلام:

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[2].

ومن السنّة المطهرة الدالة على أصل استحباب القنوت ما رواه الأعمش عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام وهو قوله:

«القنوت في جميع الصلوات سنّة واجبة في الركعة الثانية وبعد القراءة».

ومقصوده عليه السلام من كلمة واجبة أن القنوت مستحب استحباباً مؤكداً فيكون المراد من الوجوب معناه اللغوي، وهو الثبوت لا معناه الشرعي المعهود، وقد ورد نظير ذلك في مقام بيان فضل زيارة الحسين عليه السلام.

وأما ما ورد من السنّة المطهرة في استحباب القنوت مع الخصوصية المستحبة فروايات عديدة:

منها: ما ورد في استحباب رفع اليدين فيه بدرجة رفيعة من الاستحباب وهو ما رواه محمد بن مسلم وزرارة وعمران كلهم عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أن التبتل معناه رفع اليدين في الصلاة والدعاء أثناء ذلك[3].

وفي رواية أخرى عن أبي بصير هو رفع يدك إلى الله وتضرعك إليه[4].

والرواية الأولى اعتبرت من السنّة وإن كانت ناقلة للآية الكريمة ومشتملة عليها، وذلك باعتبار كونها مفسرة لها والاعتماد عليها ـ أي على الآية ـ كان بلحاظ التفسير لأنها بدونه تكون مجملة لا يستفاد منها ما يراد إثباته بها كما لا يخفى.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة التحريم، الآية: ١٢.

(٣) الوسائل ج٤ ص٩١٢ ح٥.

(٤) نفس المصدر ص٩١٢ ح٦.

وهناك روايات تدل على استحباب الإطالة في القنوت استحباباً مؤكداً.

منها: ما رواه في الوسائل بسند متصل بأبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:
«**أطولكم قنوتاً في دار الدنيا أطولكم راحة يوم القيامة**» في الموقف[1].

ونقل في الوسائل عن ذكرى الشهيد (قده) أنه قال: ورد عنهم عليهم السلام:
«أفضل الصلاة ما طال قنوتها»[2].

وهناك روايات عديدة تدل على استحباب اقتران الدعاء بالصلاة على النبي محمد وآله عليهم جميعاً أفضل التحية وأزكى التسليم، إما مطلقاً بلا تقييد بخصوصية زائدة على أصل الاقتران والمقارنة كما ورد في رواية صفوان الجمال عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنه قال:

«كل دعاء يُدعى الله عزّ وجل به محجوب عن السماء حتى يُصلى على محمد وآل محمد»[3].

ومثلها ما ورد في رواية هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام:
«لا يزال الدعاء محجوباً حتى يُصلى على محمد وآل محمد»[4].

ومنها: ما دلّ على استحباب البدء بالصلاة على محمد وآله والختام به وهو ما نقله في الوسائل عن أبي عبدالله عليه السلام وهو قوله:

«مَن كانت له إلى الله حاجة فليبدأ بالصلاة على محمد وآله ثم يسأل حاجته ثم يختم بالصلاة على محمد وآل محمد فإن الله عزّ وجل أكرم من أن يقبل الطرفين ويدع الوسط إذ كانت الصلاة على محمد وآل محمد لا تحجب عنه»[5].

---

(١) الوسائل ج٤ ص٩١٩ ح٢.
(٢) نفس المصدر والصفحة ح٣.
(٣) نفس المصدر صفحة ١١٣٥ ح١.
(٤) الوسائل ج٤ صفحة ١١٣٦ ح٥.
(٥) نفس المصدر صفحة ١١٣٧ ح١١.

ومنها: ما دل على استحباب جعل الصلاة على محمد وآله في أول الدعاء وفي وسطه وفي آخره، وذلك هو مضمون ما نقله في الوسائل عن أبي عبدالله عليه السلام.

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**اجعلوني أول الدعاء وفي وسطه وفي آخره**»(١).

وهذه الروايات الدالة على استحباب اقتران الدعاء بالصلاة على محمد وآل محمد وإن كانت واردة في مطلق الدعاء، ولكن حيث أن القنوت من أبرز مصاديق الدعاء والصلاة على النبي محمد وآله في الدعاء من أفضل الخصوصيات التي ترفع من درجة ثوابه، ناسب ذلك أن تقترن هذه الخصوصية الأفضل بذلك الدعاء الأفضل، وهو القنوت.

ذكر اللّه سبحانه وتسبيحه ودورهما التربوي في حياة المؤمن:

بعد الفراغ من الحديث حول القنوت وبيان ثوابه العظيم يأتي دور الحديث حول الركوع وما يترتب عليه من الثواب الجزيل، ويستفاد منه من الدروس التربوية التي ترفع مقام المؤمن المصلي الراكع الخاشع أمام عظمة الله سبحانه وتعود عليه بالخير العميم والنفع الجسيم، في حاضر الدنيا ومستقبل الآخرة، وحيث يطلب فيه الذكر المعهود، وهو قول المصلي: **(سبحان ربي العظيم وبحمده)** وهو مشتمل على تسبيح الله سبحانه وتعظيمه مضافاً إلى مطلوبية الإتيان بالتسبيحات الأربع في ثالثة المغرب، وفي ثالثة ورابعة الصلاة الرباعية على وجه الوجوب التخييري الذي يخيَّر فيه المصلي بينها، وبين قراءة الفاتحة وحدها وإخفاتاً.

أجل: حيث أنه يطلب من المصلي في الركوع الذكر المعهود، وهو مشتمل على التسبيح ويطلب منه أيضاً التسبيحات الأربع المعلومة في آخر

(١) نفس المصدر صفحة ١١٣٦ ح٧.

الفرائض الأربع المعهودة ناسب ذلك التحدث أولاً عن ذكر الله سبحانه بمعناه العام الشامل للواجب والمستحب في الصلاة وغيرها من أجل معرفة ما يترتب عليه من الثواب الجزيل وما يستفاد منه من الدروس التربوية التي تغذي روح العبودية في شخصية المؤمن المصلي.

وعلى ضوء هذا البيان يترجح أولاً ذكر الآيات والروايات الدالة على أهمية ذكر الله سبحانه في المنظور الإسلامي وما يترتب عليه من الثواب العظيم، وبعد ذلك أذكر نص الحديث الذي هو إحدى خطب الجمعة المنشورة في الجزء الأول من وحي الإسلام صفحة ٩٣ الطبعة الثانية تحت عنوان (**ذكر الله سبحانه ودوره في تقدُّم الإنسان وسلامة مسيرته**) وذلك لأني تحدثت في هذه الخطبة حول الموضوع المذكور بصورة تفصيلية وترجح نقله إلى هذا الكتاب من أجل أن يستفيد منه القارىء الذي لم تحصل له نسخة من الجزء الأول المذكور فأقول:

الآيات والروايات التي تحدثت عن ذكر الله سبحانه، وما يترتب عليه من الثواب الجزيل والنفع العميم في كلتا الدارين كثيرة، أقتصر على ذكر بعضها رغبة في الاختصار.

من الآيات قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾(٢).

وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤١ و٤٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.

وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[2].

ومن الروايات الواردة لبيان فضل الذكر وأجره الجزيل ما روي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام من قوله: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إن الملك ينزل بصحيفة أول النهار، وأول الليل فيكتب فيها عمل ابن آدم فأملوا في أولها خيراً وفي آخرها خيراً فإن الله يغفر لكم فيما بين ذلك إن شاء الله**»،

وإن الله عزّ وجل يقول: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾[3].

وروي عن أبي عبدالله الحسين عليه السلام قوله:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**بادروا إلى رياض الجنة**».

قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «**حَلَقُ الذكر**»[4].

وبعد ذكر الآيات المباركة والروايات المشهورة يأتي دور نقل الخطبة التي تحدثت فيها حول أهمية ذكر الله سبحانه ودوره التربوي في حياة المؤمن بالله الذاكر له بلسانه مع ذكره وتذكر عظمته وجلاله في قلبه لأن الثاني هو المتمم للأول وبدونه يكون كاللفظ المجرد عن المعنى والجسم الفاقد للروح كما سيتجلى ذلك بوضوح من خلال التأمل في مضمون الخطبة المشار إليها وهي كما يلي:

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٥.

(٣) عن نزهة الأفكار ج١ ص ١١٦.

(٤) عن نزهة الأفكار نقلاً عن كتاب من لا يحضره الفقيه ج٤ ص٢٩٣.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السلام عليكم أيها الإخوان الأعزاء والأبناء الأحبّاء ورحمة الله وبركاته.

وبعد: قال الله سبحانه في محكم كتابه المجيد: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾(٢).

المراد بالذكر الذي مدح الله به عباده المؤمنين وبيَّن أنه السبب في اطمئنان قلوبهم وتعلقها بربهم، هو التذكر لعظمة الله سبحانه وجلاله واستحضار هذه العظمة في الذهن والإحساس الشعوري الباطني ليظل الذاكر له بهذا المعنى على ارتباط به وإقبال عليه في كل أحواله وأوضاعه وهذا ما يوحي به قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(٣).

فقد بيّن الله سبحانه أن المراد بذكر الله تعالى الذي يحصل من المؤمنين العقلاء في هذه الأحوال الثلاثة هو التفكر في خلق السماوات والأرض بقرينة عطف قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلخ، على قوله تعالى: ﴿يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ عطف تفسير كما هو الظاهر بدليل أنه حصل لهم بهذا التفكر إيمانهم بحكمته تعالى وأنه لم يخلق هذا الكون بما فيه الإنسان عبثاً وباطلاً بلا هدف وحكمة، بل خلق الكون لخدمة الإنسان كما صرح بذلك في العديد

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٥.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠ و١٩١.

من آيات كتابه الكريم منها قوله تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[2].

وخلق الإنسان لعبادته وحده لا شريك له كما صرح بذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3].

ومن الواضح أن الوصول إلى هذه النتيجة لا يكون بمجرد الذكر اللساني الخالي من التفكُّر القلبي والتدبُّر العقلي، وهذا ما ورد النص عليه في الكثير من الروايات وبيان المفسرين لما ورد فيه من الآيات.

وبعد معرفة هذه الحقيقة وأن الذكر الذي مدح الله عباده المؤمنين به هو التفكر واستحضار عظمة الله سبحانه وجلاله وأنه الكامل بالكمال المطلق الذي أوجد الكون بقدرته الجبّارة وسيره لخدمة الإنسان بحكمته البالغة وأنه مصدر الخير كله وأنه الملجأ الأمين لدفع الشر والسلامة منه وأنه لم يكلف عباده بالعبادة إلا ليتوصلوا بها إلى الكمال والسعادة.

أجل: بعد معرفة ذلك كله والاطلاع عليه بوعي وتدبُّر يأتي دور بيان الفوائد المترتبة على هذه العبادة الباطنية التي هي روح العبادة الظاهرية كما يوحي بذلك بعض الروايات المفيدة ما حاصله: أنه لا يكتب للإنسان من صلاته إلا ما أقبل به على ربه.

فأقول: الذكر بالمعنى المذكور يكون حاضراً لدى الإنسان المؤمن الذاكر الملتفت إما تفصيلاً وإما إجمالاً وارتكازاً في كل أحواله وأوضاعه وسأقتصر

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٣.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

على ذكر فائدة حصوله عند أهم الأوضاع التي يكون لوجوده فيها أثر بالغ ودور بارز في حياة الإنسان وتصرفاته وهي ما يلي:

حالتا النعمة والمصيبة، وحالتا الإطاعة والمعصية فعلاً أو الإقدام عليها، وحالتا الرضا والغضب، وهناك أحوال أخرى لم أذكرها إما لرجوعها إلى ما ذكر كحالتي الغنى والفقر لأنهما ترجعان إلى حالتي النعمة والمصيبة ببعض الاعتبارات أو لإمكان الاستغناء عن ذكرها بالخصوص لإمكانية معرفة دور الذكر فيها من معرفة دوره وفائدته فيما ذكر.

أما فائدة ذكر الله سبحانه حال النعمة فواضحة بسبب ما يوحي به تذكر الله سبحانه حال التمتع بنعمه التي لا تُحصى من كونه المصدرَ الحقيقي لكل ما ظفر به وحصل له من النعم وقد نصّ الله على ذلك بقوله تعالى:

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[1].

وأكد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[2].

مع الالتفات التفصيلي ببركة هذا التذكر إلى أنه سبحانه لم يتفضّل عليه بهذه النعمة إلا ليستعين بها على تحقيق الغاية الكبرى التي خُلق من أجلها وهي عبادته وحده لا شريك له وأنه إذا صرفها في هذا السبيل كان شاكراً لله عليها بالشكر العملي الذي يقتضي بطبعه زيادة النعمة وبقاءها عند صاحبها الشاكر مع توفيقه لطول البقاء والسلامة من البلاء لما هو المعروف المشهور من أن الصدقة الواجبة أو المستحبة تطوّل الأعمار وتعمِّر الديار وتدفع البلاء، وقد أبرم إبراماً.

أجل: إن تذكر الله المنعم من قبل صاحب النعمة يؤدي إلى صرفها في

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٨.

سبيل إطاعته سبحانه، وذلك يؤدي إلى هذه النتائج الإيجابية المباركة والفوائد العديدة.

وقد أشار الله تعالى إلى ما يترتب على شكر النعمة الناشىء من ذكر الله المنعم بها والتفكر فيما يستحقه من الشكر وما يترتب عليه من الزيادة والخير والبركة بقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1].

وإذا كان الذاكر لله سبحانه واعياً وملتفتاً ببركة تذكره الواعي إلى أن العذاب المترتب على الكفر بنعمة الله سبحانه ليس مقصوراً على العذاب الأخروي بل هو شامل للعذاب الدنيوي المعجل الذي يتحقق بسلب النعمة عن الكافر بها الصارف لها في غير إطاعة الله سبحانه فإن تذكره هذا والتفاته إلى هذه النتيجة السلبية الخطيرة يدفعه ويحتّم عليه صرف نعمة الله في سبيل إطاعته ليحصل تلك الفوائد العظيمة ويسلم من نتائج الكفر العقيمة الجسيمة.

وقد ذكر الله سبحانه في كتابه المجيد نموذجاً للمؤمن الشاكر الذاكر وبيَّن نتيجة شكره لله على نعمه الكثيرة والكبيرة وهي إعطاؤه ملكاً واسعاً لم يحصل لغيره من الحكام في هذه الدنيا وهو النبي سليمان عليه السلام الذي ملك الدنيا بتوفيق الله وفضله، ولكنها لم تملكه ولم تؤثر على موقفه العبودي من المنعم بها عليه ولم يزده إقبالها عليه من جميع الجهات إلا إقبالاً على الله بالشكر القلبي الذي أبرزه بالشكر اللساني عندما قال:

﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[2].

وتوّج كلا الشكرين القلبي بمعرفة مصدر هذا الملك العظيم واللساني بالاعتراف بأنه من فضل الله تعالى.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٢) سورة النمل، الآية: ٤٠.

أجل: توّج هذين النوعين من الشكر بالشكر العملي الذي تمثل بصرف هذه النعمة الواسعة في سبيل مرضاته تعالى وحصَّل بذلك دوامها مع تحصيله حياة الخلود في هذه الدنيا بالذكر العاطر الذي سجله الله له على صفحات كتابه الكريم بحروف من نور (والذكر للإنسان عمر ثاني) كما ذكر الله سبحانه نموذجاً آخر هو على العكس من الأول وهو قارون الذي أعطاه الله سبحانه المال الكثير الذي عبّر عن كثرته بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾[1] حيث أنه قابل نعمة الله سبحانه بالكفر القلبي بإنكاره وجود تدخل للإرادة الإلهية في حصول هذه النعمة له وترجم هذا الإنكار بحصر سبب حصولها له بعلمه ومهارته حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[2].

وإذا دققنا النظر في مصدر هذا الإنكار والكفر القلبي واللساني وما ترتب على ذلك من الكفر العملي حيث امتنع عن دفع الحق الشرعي الذي تعلق بثروته لمستحقه نرى أن مصدر ذلك هو الغفلة المطبقة وعدم تفكره وتذكره للمصدر الحقيقي لكل النعم التي تحصل للإنسان في هذه الحياة ولذلك أخذه الغرور والطغيان الذي أدى به إلى تلك النتيجة السلبية التي ترتبت على طغيانه هذا وهي خسف الله به وبداره الأرض كما تحدّث بذلك القرآن الكريم حيث قال سبحانه مبيناً مصيره المؤلم المظلم:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾[3].

وقد ذكر الله هذين النموذجين من الناس من أجل أن نستوحي الدرس والعبرة ونبقى دائماً وأبداً على حالة ذكر لله سبحانه وتذكر والتفات إلى كونه هو

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٦.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٨.

(٣) سورة القصص، الآية: ٨١.

المصدر الحقيقي لجميع الآلاء والنعم التي يتمتع بها الإنسان في هذه الحياة وقد أكد هذه الحقيقة الفطرية بقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[2].

كما بيّن لنا نتيجة ذكره وشكره وهي زيادة النعمة ودوامها، ونتيجة الغفلة والتنكر لمصدر النعم وهي سلب هذه النعمة وما يترتب عليه من العذاب النفسي وذلك بقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[3] وقد مرّ بيان ذلك مفصّلاً.

فائدة ذكر اللّه حال الابتلاء بالمصيبة:

أما الفائدة المترتبة على ذكر الله حال ابتلاء الإنسان بالمصيبة فهي تختلف باختلاف مصدرها فإذا كانت حاصلة له بسبب معصيته ومخالفته لمناهج السماء تكون فائدة ذكره لله سبحانه والتفاته إلى أن معصيته له كانت السبب في إصابته بتلك المصيبة، هي التوبة والرجوع إلى منهج الاستقامة لينال ثواب التوبة ويسلم من تلك المصيبة وبذلك تكون الإصابة بالمصيبة على أثر حصول المعصية درساً تربوياً وعقوبة معجلة من الله الرحيم يردع بها الإنسان عن انحرافه ويعيده إلى جادة عبوديته له ويسلمه من التمادي في الانحراف وما يترتب عليه من المضاعفات السلبية الخطيرة كما يسلمه من العذاب الأكبر والأطول يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلب سليم وسلوك مستقيم، وقد أشار الشاعر الحكيم إلى هذا المعنى بقوله:

وقسا ليزدجر وأومن يك راحما   فليقسُ أحياناً على مَن يرحم

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٨.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

وإذا كانت المصيبة حاصلة له بظلم الغير تكون فائدة ذكر الله سبحانه واللجوء إليه بالتضرع والدعاء هي الاستعانة بالقوة العادلة من أجل دفع الظلم عنه وإرجاع الحق إليه.

وإذا اقتضت الحكمة الإلهية تأخير الانتصار لهذا المظلوم إلى المستقبل القريب في الدنيا أو البعيد في الآخرة فإن ذكره لله سبحانه وتذكره عدله وأنه لا بد أن يحكم بينه وبين ظالمه بالعدل عاجلاً أم آجلاً يجعله في حالة تطلُّع وترقُّب لإشراق فجر العدل عليه بنور الانتصار له ودفع الظلم عنه فلا يغرق في ظلام اليأس المظلم المؤلم وهذه أعظم فائدة وأطيب ثمرة يقطفها المؤمن من شجرة ذكره لله وتذكره عدله ورحمته بصورة تفصيلية تزيل عنه ألم اليأس من الفرج وإذا كانت المصيبة حاصلةً له بالقدر والقضاء بدون تدخل عاملٍ اختياري بشري ذاتي أو غيري، فإن فائدة ذكر الله سبحانه وتذكر عدله الشامل ورحمته الواسعة وأنه لا يقدر لعبده المصيبة إلا ليكفر سيئاته ويضاعف حسناته إذا رضي بها وصبر عليها ويدخله بعد ذلك الجنة بغير حساب.

أجل: إن فائدة ذكر الله في هذه الحالة بالتذكر القلبي الواعي تتمثل بالصبر عليها وعدم التبرم والضجر منها وينال بذلك أولاً أن يخف ألمها ويسهل تحملها حاضراً كما ينال ثانياً الجوائز الكبيرة التي وعد الله بها عباده المؤمنين الصابرين بقوله:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[١].

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ و١٥٦ و١٥٧.

فائدة ذكر اللّه سبحانه حال الطاعة والمعصية:

أما فائدة ذكره سبحانه حال الطاعة فهي تتمثل بإعطاء الروح لَها لأن قيمة الإطاعة والعبادة لله تعالى ودرجة ثوابها تكون بقدر ما يكون الإنسان العابد المطيع متذكراً لعظمته تعالى منشداً إليه بسلك الرجاء والطمع في ثوابه والخوف والخشية من عقابه.

وإذا ترقت درجة التذكر والالتفات لعظمة الله ذاتاً وحقاً وأنه أهل لأن يطاع ويعبد لذاته لا لعامل الخوف والرجاء فتلك أعظم فائدة ينالها العابد المطيع وأسمى مرتبة يرقى إليها على سلم العبودية الواعية الخالصة.

وأما فائدة ذكره سبحانه حال المعصية فعلاً أو الإقدام عليها قبل وقوعها فهي تتمثل بالتوبة والرجوع إليه وبترك ذلك الإقدام والتحول منه إلى موقف الإنابة الراجحة والتوبة الناجحة التي تعود عليه بالسلامة من مضاعفات الانحراف عن خط الاستقامة في هذه الحياة مع السلامة من الخطر الأكبر والمصاب الأخطر يوم الحساب مضافاً إلى ما يناله بالرجوع إلى جادة العبودية لله سبحانه من المنافع العظيمة المعنوية والمادية الدنيوية والأخروية.

فائدة ذكر اللّه سبحانه حال الرضا والغضب:

وأما فائدة ذكره سبحانه حال الرضا من الآخرين والتجاوب معهم فهي تظهر بالمحافظة على الاستقامة في خط مرضاة الله سبحانه ومنهج عبادته مهما كانت المغريات قوية والضغوطات شديدة لأن رضا الله سبحانه وحده هو الذي ينفع ويرفع وسخطه هو الذي يحطم ويدمر كيان المغضوب عليه، وبذلك تظهر فائدة ذكر الله حال الغضب وهي الاستمرار على منهج العدالة وعدم الانحراف عنها يميناً أو شمالاً تحت تأثير العامل النفسي الثائر وذلك هو روح العدالة والتقوى التي تعود على صاحبها بالخير العميم والأجر الجسيم الذي ينسى معه الإنسانُ المؤمن التقي كل المتاعب والمصائب التي تطرأ عليه

نتيجة استقامته في خط السماء وعدم تجاوبه مع ميول وأهواء الأعداء.

وقد ترجم الرسول الأعظم ﷺ ذلك بقوله في مناجاة تبتل وانقطاع: «**إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي**» كما ترجمه سيد الشهداء على صعيد الطف يوم عاشوراء عندما ذُبح طفله الرضيع على يده بقوله عليه السلام: «هوَّن ما نزل بي أنه بعينك يا رب» وترجمه أيضاً بلسان المقال أو الحال:

رضاك رضاك لا جنات عَدْنٍ ... وهل عدنٌ تطيبُ بلا رضاكا
ولو قطعتني في الحب إرباً ... لما مال الفؤاد إلى سواكا

وينسجم مع هذا الجو الإيماني قول ذلك الشاعر مخاطباً الله سبحانه:

وليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ ... وليتكَ ترضى والأنامُ غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خرابُ

وإلى نفس هذا المعنى أشرت بمقطوعة شعرية نظمتها سابقاً في النجف الأشرف وهي ما يلي:

كن مع الله والتمس برضاه ... رحمةً منه واستمدَّ ثوابا
أقبل الناس أم أشاحوا وراحوا ... يُرسلون العتاب مراً وصابا
غضب الخلق لا يضير إذا ما ... دنت للحق واتبعت الصوابا
إن هذي الحياةَ منجم كسب ... يحتوي الدر ضائعاً والترابا
كن مع الله إن أردتَ فلاحاً ... واطرحِ القشرَ وأخذنَّ اللبابا

وبعد بيان المراد من الذكر الذي ورد الترغيب فيه والحث عليه في العديد من الآيات والروايات ومعرفة ما يترتب عليه بمعناه العام من الفوائد العديدة.

يأتي دور بيان ما يترتب من الثواب على كل واحد من الأذكار الخاصة التي رتب عليها الثواب الجزيل بعناوينها المحددة.

والمقصود من الأذكار الخاصة هو ما شرع على وجه الوجوب أو الاستحباب في الصلاة وله مصاديق عديدة وسأقتصر على ذكر أهمها، وهو

المطلوب منها أثناء الصلاة كالتسبيحات الأربع، وحال الركوع، وحال السجود، وحين رفع الرأس منهما.

ولنبدأ أولاً ببيان فضل التسبيحات الأربع لكونها مطلوبة على وجه الوجوب التخييري، ولما تشتمل عليه من خصوصيات مميزة كما سيتضح ذلك عند التحدث عنها تفصيلاً.

التسبيحات الأربع ودورها التربوي:

والمراد بها قول المصلي في الركعة الثالثة من الفريضة الثلاثية، وفي الركعتين الأخيرتين من بقية الفرائض الرباعية المعلومة: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر).

وعبّر عنها بالتسبيحات مع اشتمالها على غير التسبيح من التحميد والتهليل والتكبير، وذلك لابتدائها بالتسبيح ولأهميته في نفسه لأن حمد الله سبحانه والاعتراف له بالوحدانية وكونه أكبر من كل كبير وأعظم من كل عظيم، لا يتم إلا بعد تنزيهه من كل ما لا يليق بكماله المطلق.

ولنبدأ الآن بذكر الروايات الدالة على فضل هذا الذكر المبارك وما يترتب عليه من الثواب العظيم مطلقاً وحال الصلاة بصورة خاصة.

منها: ما رواه السكوني من أن أبا عبدالله عليه السلام قال:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «التسبيح نصف الميزان والحمد يملأ الميزان والله أكبر يملأ ما بين السماء والأرض»[1].

ومنها: ما روي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لرجل: «**إذا أصبحت وأمسيت فقل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله**

(١) الوسائل ج٤ ص ١٢٠٦ ح١.

أكبر، فإن لك إن قلته بكل تسبيحة عشر شجرات في الجنة من أنواع الفاكهة وهي الباقيات الصالحات»[1].

ومنها: ما روي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«مَن قال: سبحان الله غرس له بها شجرة في الجنة، ومن قال: الحمد لله غرس له بها شجرة في الجنة، ومَن قال: لا إله إلا الله غرس له بها شجرة في الجنة** فقال له رجل من قريش: يا رسول الله إن شجرنا في الجنة لكثير؟ فقال: **نعم ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها وذلك أن الله عزّ وجل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾»**[2].

ومنها: ما روي عن أبي عبدالله أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«أكثروا من قول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فإنهن يأتين يوم القيامة لهن مقدمات ومؤخرات ومعقبات وهن الباقيات الصالحات»**[3].

ومنها: ما ورد في أهمية الحمد لله وثوابه الجزيل عن أبي عبدالله عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«مَن تظاهرت عليه النعم فليكثر الحمد لله»**[4].

ومنها: ما ورد في ذلك عن الهيثم بن واقد قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «ما أنعم الله على عبد بنعمة بالغة ما بلغت فحمد الله عليها إلا كان حمده لله أفضل من تلك النعمة وأعظم وأوزن»[5].

---

(١) نفس المصدر ج٤ ص١٢٠٥ ح٢.
(٢) سورة محمد، الآية: ٣٣
(٢) الوسائل ج٤ ص١٢٠٦ ح٥.
(٣) الوسائل ج٤ ص١٢٠٦ ح٣.
(٤) المصدر السابق ج٤ ص١١٩٦ ح١.
(٥) المصدر السابق ج٤ ص١١٩٧ ح٣.

ومنها: ما روي عن محمد بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَن تظاهرت عليه النعم فليقل: الحمد لله رب العالمين، ومَن ألحّ عليه الفقر فليكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**»[1].

وروي عن المفضل أنه قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك علمني دعاءً جامعاً فقال لي: «**احمد الله فإنه لا يبقى أحد يصلي إلا دعا لك يقول: سمع الله لمن حمده**»[2].

ومنها: ما ورد في استحباب التهليل والتكبير، وهو ما روي عن فضيل عن أحدهما عليه السلام قال: سمعته يقول: «أكثروا من التهليل والتكبير فإنه ليس شيء أحب إلى الله من التهليل والتكبير»[3].

وورد في ذلك أيضاً عن يعقوب القمي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ثمن الجنة لا إله إلا الله والله أكبر»[4].

ومن مجموع الأخبار المذكورة يستفاد أهمية التسبيحات الأربع التي تبدأ بالتسبيح بمعناه العام الشامل للتحميد والتهليل والتكبير، إما من باب التغليب أو بأن يراد من التسبيح مطلق الذكر الشامل لبقية أجزائه المذكورة ونحتاج إلى أن نقف وقفة تأمل وتدبُّر فيما يوحي به ويدل عليه كل جزء من أجزاء هذا الذكر المبارك فنقول:

إن التسبيح معناه التنزيه فيكون المراد من كلمة سبحان الله تنزيه الذات الإلهية المقدسة الكاملة بالكمال المطلق عن كل صفة منافية لهذا الكمال انطلاقاً من أصول العقيدة الحقة الخمسة القائمة على أساس هذا التنزيه.

---

(١) نفس المصدر ج٤ ص١١٩٧ ح٧.
(٢) نفس المصدر ج٤ ص٩٤٠ ح٢.
(٣) نفس المصدر ج٤ ص١٢٠٩ ح١.
(٤) نفس المصدر ج٤ ص١٢٠٩ ح٢.

فالتوحيد تنزيه لله عن الشرك، والعدل تنزيه له عن الظلم، والنبوة تنزيه له عما ينافي الحكمة والغاية التي خلق الله الإنسان من أجلها وهي عبادته وحده لا شريك له نظراً لعدم تحقق هذه الغاية بدون البعثة والنبوة ونفس الشيء يقال بالنسبة إلى تعيين الوصي المستحق لمنصب الخلافة الذي يعتبر امتداداً لمنصب النبوة فيكون المحدد المختار لصاحبه نفس المعين المختار لصاحب الأول وهو منصب النبوة لأنه أعلم حيث يجعل رسالته، وكذلك الإيمان بالمعاد فهو تنزيه له عن الظلم باعتبار أن الإيمان به فرع الاعتقاد بعدالة الله سبحانه، ويؤكد الإيمان به أي بالمعاد إخباره سبحانه المتضمن لحصوله ليكون المحكمة الكبرى التي يحكم الله فيها بالعدل وينفذ وعده بالثواب ووعيده بالعقاب، وقد نصّ عليهما بصريح قوله سبحانه:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

وأما الحمد فقد ذكر صاحب مجمع البيان (قده) في مقام تفسيره ما يلي:

والحمد والمدح والشكر متقاربة المعنى، والفرق بين الحمد والشكر أن الحمد نقيض الذم كما أن المدح نقيض الهجاء والشكر نقيض الكفر والحمد قد يكون من غير نعمه والشكر يختص بالنعمة إلا أن الحمد يوضع موضع الشكر، ويقال: الحمد لله شكراً فينصب شكراً على المصدر، فالشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم فيكون بالقلب وهو الأصل ويكون أيضاً باللسان، وإنما يجب باللسان لنفي تهمة الجحود والكفران[2].

وعلى ضوء ما يُفهم من كلمة الشكر في مقام استعمالها وهو الاعتراف بالنعمة قلبياً مع ترجمة هذا الاعتراف بما يكشف عنه، ويدل عليه من الكلام

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ و٨.

(٢) مجمع البيان مجلد أول ص ٩٤ طبعة إيران.

المناسب له، والعمل المؤكد لمضمونه والمتمم له وهو يتمثل بصرف النعمة والتصرف بها في سبيل نيل رضا المنعم.

أجل: على ضوء ذلك يصح تقسيم الشكر إلى ثلاثة أقسام وهي:

الشكر القلبي المتمثل بالمعرفة والاعتراف بأن النعمة صادرة من مصدرها الحقيقي وهو الله سبحانه، والشكر الكلامي المتمثل بالحمد والثناء الجميل المعبر عن الاعتراف بالصنع الجميل لصاحبه، والشكر العملي وهو يتمثل بصرف النعمة فيما يقرب من المنعم ويسبب نيل رضاه مع ترك صرفها في طريق معصيته.

والقسم الثالث: من الشكر هو الشكر الحقيقي الذي رتب الله عليه زيادة النعمة ودوامها لصاحبها الشاكر لله عليها حيث قال سبحانه:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1] وبيّن سبحانه أهمية الشكر العملي بالأمر به بعنوانه حيث قال: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾[2].

والمؤمن الواعي الملتفت لأهمية الشكر، وأنه من أنبل وأفضل الصفات الكمالية التي ترفع قدر صاحبها عند الله سبحانه وتقربه منه كما ترفع شأنه وقيمته المعنوية أمام أفراد المجتمع، والله سبحانه لم يأمرنا بشكره على آلائه إلا من أجل أن نستفيد درساً تربوياً يدفعنا لمقابلة المحسنين إلينا من المخلوقين بالمثل، وإن كان بالأكثر فهو نور إلى نور.

وذلك لأن الله سبحانه أراد لعبده المؤمن أن يتجمّل بثوب مكارم الأخلاق في كل مكان وزمان ومع أي إنسان كما يتجمل عادةً بالثوب المادي في إطار حياته الاجتماعية فلا يبرز أمام أفراد المجتمع إلا بالثوب الجميل،

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٣.

وقد عبّر الشاعر الحكيم عن أهمية الأخلاق الفاضلة ودورها الإيجابي في صنع الشخصية الاجتماعية النبيلة بقوله:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويؤكد هذه الحقيقة وأهمية هذه الصفة السامية أن الله سبحانه مدح نبيه الأعظم ﷺ بكونه على خلق عظيم، ولم يمدحه بأية صفة أخرى من الصفات الكمالية بالأسلوب الذي مدحه به بالنسبة إلى الخلق الرفيع كما بيّن الرسول الأكرم ﷺ أهمية الأخلاق النبيلة والمزايا الحميدة باعتبار إتمامها في مجال التشريع، العلة الباعثة لبعثته حيث قال فيما روي عنه مشهوراً: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

وقد أشار إلى ذلك بعضهم بقوله:

ومكارم الأخلاق كانت تشتكي نقصاً فتم بأحمد النقصان

وبقدر ما يؤدي التجمل بمكارم الأخلاق إلى السمو والرفعة في ميزان التفاضل والتفضيل الواقعي عند الخالق الجليل والمخلوق النبيل يؤدي عكسه إلى النتيجة المعاكسة كما هو مضمون الشطر الثاني من البيت السابق الذي يقول فيه:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

والسر في ذلك هو أن الإنسان لم ينل التقدير والتكريم السماوي الذي صرح الله به بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1].

وبأمره سبحانه للملائكة بالسجود له حيث قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

إلا من جهة قابليته للسمو والارتفاع إلى سماء المجد والفضيلة بما أودع الله فيه من العقل المبدع والطاقات الأخرى التي زوّده الله بها من أجل استثمارها في سبيل إدراكه ما أراد وصوله إليه وحصوله عليه من الكمال والسعادة في الدنيا والآخرة، فإذا استثمر هذه الطاقة وأدرك بها تلك الغاية كان ناجحاً في الامتحان واستحق أن تقدَّم له جوائز الاحترام والتكريم، والآية السابقة المشتملة على كلمة التفضيل واردة في هذا السياق، كما أن الآية التي تتحدث عن طائفة أخرى من أفراد المجتمع جحدت ما أودع الله فيها من طاقات الخير والبناء وأدى ذلك إلى سقوطها في الامتحان وانحدارها إلى مستوى الأنعام بل إلى الأنزل لأن سقوطها كان ناشئاً عن سوء تصرفها وتقصيرها في مجال استثمار طاقتها بينما كان سقوط الطرف المقابل ـ وهو الأنعام ـ ناشئاً عن قصورها وعجزها عن الانطلاق في ميدان التقدم والحضارة وعن التحليق إلى سماء المجد والفضيلة، والآية المتحدثة عن هذه الطائفة المتخلفة هي قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[(١)].

والمصير المظلم المؤلم الذي ينتهي إليه هؤلاء نتيجةَ تقصيرهم وانحرافهم عن جادة التقوى ليس مقصوراً على الدار الآخرة الآجلة وعذابها الشديد بل قد يحصل لهم في هذه الدار العاجلة لينالوا جزاءهم العادل العاجل المتمثل بكل النتائج السلبية الخطيرة التي يصاب بها الإنسان بسبب انحرافه عن خط التقوى والفضيلة ومنهج الكمال والسعادة وهو منهج السماء الذي رسمه الله سبحانه وبلّغه رسوله ﷺ ليكون رحمة للعالمين، وقد صرح الله

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

تعالى في العديد من آيات كتابه الكريم منها قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3].

وقد مرّ الحديث في الكتاب الكريم عما حصل لقارون من العذاب العاجل نتيجة كفره بالنعمة وعدم الاعتراف بالمنعم كما سبق الحديث فيه عن النبي سليمان وما تفضّل به الله عليه من النعمة الواسعة نتيجة إيمانه بمصدرها وشكره له قلباً وقولاً وعملاً ليكون مورداً لقوله تعالى:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ بينما كان قارون مورداً لآخر هذه الآية، وهو قوله سبحانه: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾.

وقد مرّ ذكر هذه الآية بصدرها وذيلها في المكان المناسب.

والله سبحانه لم يتعرّض لذكر أخبار الماضين في كتابه الكريم إلا من أجل استيحاء العبرة واستلهام العظة من سيرتهم لنقتدي بسلوك المؤمنين الصالحين، ونتجنب سيرة الضالين المنحرفين، وقد صرّح الله سبحانه بالغاية الحكيمة المستهدفة من ذكر أخبار الماضين بقوله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[4].

---

(١) سورة النحل، الآية: ١١٢.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٣) سورة الروم، الآية: ٤١.

(٤) سورة يوسف، الآية: ١١١.

وحيث أن الاهتداء إلى النهج القويم والصراط المستقيم في العقيدة والسلوك يحتاج إلى تدخل الإرادة السماوية والعناية الإلهية فقد طلب الله منا وجوباً أن ندعوه يومياً وعدة مرات أثناء قيامنا بفريضة الصلاة ليشملنا بعنايته الرحيمة فنتوفق للهداية، والاهتداء إلى هذا الصراط، وذلك بقوله سبحانه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾(١).

ونحن إذا عمّقنا الفكر، ودققنا النظر في مقام استجلاء الحكمة المستهدفة لله الحكيم الرحيم من وراء العقوبات المعجلة في الدنيا والمؤجلة ليوم الآخرة والتفتنا تفصيلاً إلى ما يتصف الله به من الحكمة البالغة والرحمة الواسعة.

ندرك بوعي وعمق أن هذه العقوبات لم تصدر في الماضي ولن تحصل في المستقبل بقصد التشفِّي والانتقام لأن ذلك بعيد كل البعد عن ذاته المقدسة وكماله المطلق وإنما يعاقبهم معجلاً من أجل تأديبهم وردعهم عن الاسترسال والتمادي في المعصية والانحراف عن خط الاستقامة ليعودوا إليه من باب التوبة مشجعاً لهم على ذلك ومرغباً فيه بقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾(٢).

وبذلك تكون العقوبة المعجلة رحمة وإحساناً للعاصي المعاقَب بلحاظ النتيجة الإيجابية المترتبة عليها، وإلى هذا المعنى أشار الشاعر بقوله:

وقسا ليزدجروا ومن يك راحماً   فليقسُ أحياناً على مَن يرحمُ

وهذا بخلاف ما إذا تُرك العاصي على معصيته والظالم على ظلمه واستبداده بدون عقوبة رادعة فإن إهماله وإبقاءه على وضعه المنحرف يزيده انحرافاً لتسوء عاقبته وتضاعف عقوبته، وقد أشار الله سبحانه إلى ذلك بقوله:

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1].

وخلاصة الحديث حول موضوع الشكر هي أن المؤمن الواعي الذي آمن بحكمة الله ورحمته وعدل الله وسائر الصفات الكمالية يبقى دائماً وأبداً مع الله سبحانه في كل الأحوال الحاصلة له فإن كان في حالة نعمة عرف واعترف بأنها منه تعالى لقوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[2].

وقابل هذه النعمة بالشكر القلبي مع ترجمته بالشكر القولي وأكملهما بالشكر العملي، وهذا ما حصل بوضوح من النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ على ضوء ما ورد من الحديث عنه في كتاب الله الحكيم وحصل عكس ذلك كله من قارون كما تقدّم مفصَّلاً وإن طرأت عليه مصيبة رضي بها وصبر عليها مسلماً أمره إلى الله سبحانه ليقضي أمراً كان مفعولاً من أجل أن يعرضه لنيل الأجر الجزيل بالصبر الجميل مع تكفير السيئات إذا لم يكن معصوماً ورفع الدرجات إذا كان كذلك كما هو شأن الأنبياء والأوصياء والسائرين على نهجهم بالتقوى والعمل الصالح وهم المقصودون بقوله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٣) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ ـ ١٥٧.

الإنسان عاجز عن الشكر الحقيقي لله وكل ما يمكن صدوره منه هو اعترافه بعجزه عنه

إذا عرفنا أن شكر الله سبحانه على أية نعمة من نعمه وآلائه هو بنفسه نعمة أخرى من الله مَنَّ بها عليه لأنه لم يصدر منه إلا بالعقل المدرك والقلب السليم واللسان الذاكر، ومن المعلوم أن كل واحدة من هذه الثلاثة وغيرها مما يتوقف شكر الله عليه هو نعمة أخرى منه يستحق الشكر عليها، وقد صرح بذلك الإمام زين العابدين عليه السلام في بعض أدعيته وإليه أشار بعض الشعراء بقوله:

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً ... عليّ له في مثلها يجب الشكرُ
فكيف بلوغُ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيامُ واتصل العمرُ
فإن كنتُ في السراء عم سرورُها ... وإن كنتُ في الضراء أعقبها الأجرُ
فما منهما إلا له فيه نعمةٌ ... تضيقُ بها الأوهامُ والسر والجهرُ

ولذلك لا يبقى أمام المؤمن الذي يريد تقديم الشكر لله سبحانه على ما تفضّل به عليه من النعم والآلاء سوى وسيلة واحدة وهي الاعتراف بالعجز عن القيام بوظيفة الشكر الحقيقي، وحيث أن الله سبحانه هو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين فهو يكتفي بهذا المقدار من الشكر المقدور له ولا يطلب منه ما هو فوق طاقته.

ويظهر ذلك جلياً من الحوار الذي جرى بين الله سبحانه ونبيه موسى

الكليم عليه السلام على ضوء ما روي من أن الله سبحانه أوحى إلى نبيه موسى عليه السلام : **«يا موسى اشكرني حق شكري»** .

فقال عليه السلام : **«يا رب كيف أشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به إلا وأنتَ أنعمت به عليّ؟»** .

قال سبحانه : **«يا موسى الآن شكرتني حيث علمت أن ذلك مني»**(١) .

وكذلك أوحى سبحانه إلى داود عليه السلام فقال : **«يا رب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك؟»** .

وفي لفظ آخر **«يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة أخرى منك توجب عليّ الشكر لك؟»** .

التسبيح والسجود والصلاة للرحمٰن غير مختصة بالإنسان:

ما تقدم ذكره من التسبيح والتحميد ومطلق الذكر لله سبحانه ناظر إلى ما يصدر من ذلك بالإرادة والاختيار تجاوباً مع إرادة الله سبحانه وامتثالاً لأمره، والمقصود منه في محل الكلام هو الصادر من المكلف البشري باعتبار كونه من مصاديق العبادة التي خلق الله الجن والإنس من أجلها كما يفهم ذلك من صريح قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٢) .

ويعبر عنها بالعبادة التشريعية لحصولها من المكلف العابد بإرادته واختياره وفق إرادة الله التشريعية .

ويقابلها ما يصدر من أي كائن من الكائنات من الحركة القسرية الصادرة وفق إرادة الله التكوينية فتشمل الحركة الصادرة من الجزء المادي البدني من كيان الإنسان مثل نبض قلبه وتنفس رئتيه وهضم معدته وجريان دمه في

(١) جامع السعادات ج٣ ص ٣٤٠.

(٢) سورة الذاريات، الآية : ٥٦.

الشرايين ونحو ذلك من الحركات القهرية التي تصدر بدون إرادة واختيار على غرار حركة الكواكب والنجوم في آفاقها والأنهار في مجاريها والأمواج في بحارها وهكذا.

وهذه العبادة التكوينية القسرية هي المعبَّر عنها بالتسبيح والسجود والصلاة في العديد من الآيات الكريمة.

منها: قوله تعالى في التسبيح: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(1).

وقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(2).

وقوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾(3).

ومنها: قوله تعالى في السجود: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾(4).

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾(5).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾(6).

ومنها: قوله سبحانه: في الصلاة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(7).

---

(1) سورة الحديد، الآية: ١.

(2) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(3) سورة الرعد، الآية: ١٣.

(4) سورة الرعد، الآية: ١٥.

(5) سورة النحل، الآية: ٤٩.

(6) سورة الرحمٰن، الآية: ٦.

(7) سورة النور، الآية: ٤١.

فإضافة هذه المفردات العبادية إلى غير العاقل أو إليه مع العاقل على وجه التغليب تدل على أن المراد منها هو الانقياد التكويني للنظام الإلهي التكويني المسيَّر بالإرادة الإلهية التكوينية.

ويراد من التسبيح المضاف إلى غير العاقل هو تنزيهه الله سبحانه بلسان خلقته وتكوينه عن صدور خلقه من قبل الله سبحانه بدون غاية حكيمة مبررة لإيجاده وخصوصاً بعد ورود التصريح في العديد من آيات الكتاب الكريم بأن خلق الجن والإنس كان من أجل عبادته تعالى بالعبادة الاختيارية الصادرة من المكلف العابد باختياره وإرادته وفق إرادة الله التشريعية مع تصريحه بأن خلق الكون، وما فيه كان من أجل خدمة الإنسان، وبذلك يُعرف أن المراد من السجود المضاف إلى الكائنات غير العاقلة هو الخضوع القسري لإرادة الله التكوينية وأن المراد بالصلاة المضافة إلى غير العاقل هو الخضوع القهري لإرادة الله التكوينية أيضاً.

ويتمثل ذلك كله بترتب الغاية المقصودة من خلقها، وهي خدمة الإنسان ومساعدته على قيامه بالدور العبادي الريادي الذي خلقه الله من أجله كما يُفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[1].

وعلى ضوء ملاحظة الآيات الكريمة التي تحدثت عن عبادة العقلاء المكلفين لله سبحانه وخضوع غيرهم من الكائنات لإرادته تعالى التكوينية بالتسبيح والسجود والصلاة، ندرك أن الكون كله ومَن وما فيه من الكائنات عابد له تعالى وخاضع لإرادته التكوينية بصورة عامة حتى الكائن العاقل المختار بلحاظ الجانب المادي من كيانه، وإنما يفترق عنها ويتميز بالجانب المعنوي الخاضع للعقل والإرادة والاختيار الذي يمكن الكائن المختار من ممارسة أعماله الصادرة منه بحرية وإرادة وفق مشيئة الله تعالى حيث شاء له أن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

يكون كذلك ليكون لعبادته له وانقياده لإرادته التشريعية قيمة رفيعة ووزن ثقيل في ميزان التقدير والاعتبار.

والسر في ذلك واضح لأن الحركة العبادية الحاصلة من سائر المخلوقات غير المختارة تحصل منها قهراً بفعل الإرادة الإلهية التكوينية كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1].

وهذا بخلاف الحركة الحاصلة من العاقل المختار المريد وفق إرادة الله التشريعية فهي نابعة من إرادته وصادرة باختياره لتكون محققة لصاحبها الكمال الاختياري الذي يكون للاختيار، والإرادة دخل في حصوله وهو أرقى وأسمى من الكمال الحاصل لبقية الكائنات المتحركة قهراً وفق الإرادة الإلهية التكوينية، وبهذا الكمال الاختياري الأسمى كان الإنسان خليفة الله سبحانه على الأرض وسيدَ الكون وما فيه حتى الملائكة بدليل أن الله سبحانه أمرها بالسجود له سجود تكريم واحترام لا سجود عبادة وخضوع لأن ذلك لا يجوز لغير الله سبحانه كما هو واضح، وقد صدر الأمر الإلهي بالسجود لآدم في عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[3].

وإذا دققنا النظر وعمّقنا الفكر أكثر لندرك السر والحكمة في خلق الله

---

(١) سورة ياسين، الآيات: ٣٨ و٣٩ و٤٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

(٣) سورة الحجر، الآيتان: ٢٨ و٢٩.

الإنسان مختاراً مريداً متميزاً ومتفوقاً بعبادته الاختيارية على سائر الموجودات العابدة له بالعبادة القهرية نعرف أن ذلك هو الذي يتحقق به هدف الخلق والإيجاد الذي استهدفه الله سبحانه من وراء خلق هذا الكون الفسيح، وهو أن يكون المرآة التي تنعكس عليها وبها أنوار الكمال المطلق الذي تفرّد به سبحانه عن سائر الكائنات، وحيث أنه سبحانه كامل بالكمال الاختياري فلا بد أن يكون ولو بعض هذه الكائنات متصفاً به ليصح اعتباره كاشفاً عن كماله تعالى بمقدار من الكشف ومرتبة من التعريف المقصودة له تعالى من وراء الخلق والإيجاد على ضوء ما يفهم من الحديث القدسي المشهور القائل:

«**كنتُ كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق لكي أُعرف**».

باعتبار أن ذلك من لوازم كماله المطلق كما هو المعلوم بالوجدان من أن الكمال المعروف المشهور أسمى وأعلى من الكمال المستور.

كلمة لا إله إلا اللّه توحيد في العقيدة يتممه التوحيد في العبادة:

بعد الفراغ من الحديث حول الكلمات السابقة على كلمة التوحيد المتمثلة بقول الناطق بها: (لا إلّه إلا الله والله أكبر) يصل الدور إلى الحديث حولها من أجل استلهام الدروس التربوية من مضمونها، وهي متنوعة ومنقسمة إلى قسمين:

القسم الأول: يعود إلى العقيدة.

القسم الثاني: يعود إلى العبادة بمعناها العام، وله ثلاثة مجالات:

الأول: مجال الفرد.

الثاني: مجال الأسرة.

الثالث: مجال المجتمع.

ونبدأ أولاً بالنوع الأول فنقول:

إن الدرس الذي نستفيده من نص عبارة التوحيد، وهي قول الموحد (لا إلَه إلا الله) هو الذي يعود إلى التوحيد في العقيدة ومصدر استلهام هذا الدرس كتابان:

الأول: هو كتاب الطبيعة المتمثل بهذا الكون الفسيح وما يحمل في طيه من أسرار الخلق والإبداع المنطلق من خالق واحد ومبدع منفرد.

الثاني: هو كتاب الشريعة وهو كتاب الوحي الإلهي المؤكد لما يوجد في الأول من الآيات البينات الدالة على توحيده سبحانه.

وبيان ذلك باختصار أن التأمل في كتاب الكون الفسيح مع التدبُّر في كتاب التشريع الفصيح يوحي للعاقل المتدبر بأن لهذا الكون خالقاً واحداً أحداً فرداً صمداً لا شريك له ولا ولد، وذلك لأن الملاحظة الدقيقة السائرة على ضوء العلم الحديث تكشف عن خضوع هذا الكون منذ وجد وإلى يومنا هذا لنظام واحد مستمر ومستقر لا يختلف ولا يتخلّف، والنظام الواحد يدل بوضوح على أن الخالق المنظّم واحد، وقد أكد الله سبحانه هذه الحقيقة الموضوعية بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾[1] أي اختل نظامهما، ولم يبقَ مستمراً على نهج واحد.

وتتأكد هذه الحقيقة التوحيدية أكثر بعد نفوذ العقل السليم ونظره بعين التأمل إلى طبيعة الأشياء المخلوقة والكائنات الموجودة وإدراك اشتراكها في العناصر الأساسية التي تتقوم بها طبيعة كل واحد منها لتكون بذلك شبيهةً بالمصنوعات الخشبية التي يصنعها النجار من مادة واحدة، وهي الخشب، ويكون الاختلاف بينها بالشكل والصورة فقط، ومن المعلوم أن وحدة المادة واتفاق العناصر الأساسية في كل المخلوقات يدل بوضوح على أن مصدر خلقها وإبداعها واحد، وقد أشار الشاعر إلى ذلك بقوله:

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

فواعجباً كيف يُعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آيةٌ تدل على أنه واحد

ولا يخفى على العاقل الواعي أن المصدر الذي كان المنطلقَ للإيمان بأصل وجود الخالق لامتناع وجود مخلوق بلا خالق وبوحدة هذا الخالق لوجود ما يدل بوضوح فطري وجداني على وحدته، كذلك يكون هو المصدر نفسه للإيمان بوحدة المدبّر المسيّر للنظام التكويني العام الذي يحكمه، ويتحكم فيه مع الإيمان بوحدة الرازق المحيي والمميت وغير ذلك من الصفات والخصوصيات التي لا تصح نسبتها إلى غير الله سبحانه إلا على وجه المجاز العقلي وهو إسناد الفعل أو ما هو بمعناه إلى غير ما هو له، مثل إسناد شفاء المريض إلى الطبيب أو إلى شرب الدواء الخاص.

ولازم الاعتقاد بوحدة الخالق الرازق المدبر لهذا الكون والمالك له بالملكية الحقيقية هو الإيمان بوحدانيته وانفراده بوضع القانون والتشريع واستحقاقه للخضوع والعبادة، وذلك لاستئثاره بمجموع أمرين يقتضي كل واحد منهما استقلاله بوضع التشريع والقانون واستحقاقه للخضوع والعبادة.

الأول: منها تكويني واقعي لا يخضع لاعتبار المعتبرين وآراء المفكرين وهو كونه خالقاً للإنسان عالماً بحقيقته وطبيعته وعارفاً ـ لذلك ـ بما يصلحُ له ويُصلحة من القوانين والتشريعات.

والثاني: أمر اعتباري تعبدي يخضع لنظام الملك والمالكية وهو استحقاقه سبحانه للعبادة والانقياد بصفته مالكاً حقيقياً للكون كله ولكل مَن فيه وما فيه باعتبار كونه هو الصانع المبدع وكل ما سواه مملوك له، ومن المعلوم عدم جواز خضوع وإطاعة العبد لغير سيده وخصوصاً مالكه الحقيقي وسيده الواقعي وهو الله سبحانه.

وحيث أن كلا الأمرين الموجبين لاستقلال الله سبحانه بالتشريع والعبادة مفقودان في غيره من مخلوقاته ومحصوران فيه وحده لا شريك له، تعين في

حق المؤمن بوحدانية الخالق المدبر المتصرف بهذا الكون كما يشاء، أن يؤمن بتوحيده ووحدانيته باستحقاق وضع القانون والتشريع أولاً لعلمه بالأصلح وثانياً لكونه الخالق المالك الحقيقي الذي لا يجوز شرعاً وعقلاً وعرفاً الخضوع لغيره وعبادة سواه من المخلوقين بتطبيق نظامه لأن ذلك يستلزم الشرك في العبادة، وهو حرام كالشرك في العقيدة والله سبحانه لم يوجب علينا تحصيل الاعتقاد بوحدانيته في الخلق والإيجاد واستحقاقه وضع القانون والشريعة إلا تمهيداً لتوحيده في العبادة بحيث لا يُطاع غيره ولا يُعبد سواه.

وقد أشار الله سبحانه إلى وحدانيته في الخلق والتشريع بقوله:

﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾[1] حيث حصر في ذاته المقدسة وقصر عليها صدور الخلق والتشريع باعتبار أن المراد من كلمة الأمر المعطوفة على كلمة الخلق التشريع، ومصدر استفادة الحصر من هذه الآية الكريمة هو تقديم الخبر على المبتدأ والذي يمثل الخبر في هذه الجملة هو ـ الجار والمجرور ـ أي كلمة ـ له ـ كما أن الذي يمثل المبتدأ، هو كلمة ـ الخلق ـ وقد ذكر علماء البلاغة أن تقديم الخبر على المبتدأ يفيد قصر الأول على الثاني.

وكذلك نصّ الله سبحانه على حصر العبادة في ذاته المقدسة بقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ باعتبار أن تقديم المفعول وهو الكاف ـ على فعله، وهو نعبد ـ يفيد حصر العبادة وقصرها عليه سبحانه، وقد أكد ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٢) سورة البينة، الآية: ٥.

توحيد الله في العبادة الحاصلة في إطار الفرد

يتمثل التوحيد العبادي في إطار الفرد بقيام المكلف بكل ما يجب عليه أو يستحب له نحو نفسه من الواجبات والمستحبات التي تعود عليه بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة، وذلك باعتبار أن نفس الإنسان أمانة لله سبحانه وضعها في يده ليحفظها ويقوم بما يوجب لها السعادة والتقدم في جميع المجالات ومن جميع الجهات، ويجنبها كل ما يوجب لها عكس ذلك، فإذا حفظ هذه الأمانة وقام بما يجب عليه نحوها استحق بذلك الثواب العظيم من الخالق الرحيم والاحترام والتكريم من المخلوق الواعي الحكيم.

وإذا قصر في تأدية الواجب عليه نحوها يكون خائناً للأمانة بتعريضها لما يضرها في حاضر الدنيا ومستقبل الآخرة ولازم ذلك في المنظور الإسلامي استحقاقه للعقاب كما يستحقه على خيانه أمانة الآخرين وعدم حفظها، وقد أوجب سبحانه حفظ أمانة النفس والأهل بصريح قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[(١)].

والذي يقتضي الاهتمام بتأدية ما أمر الله به من الواجبات وترك ما نهى عنه من المحرمات، هو ترتب الآثار الإيجابية الكثيرة على الأولى والآثار السلبية الخطيرة على الثانية، معجلاً في هذه الحياة قبل الانتقال إلى الدار الأخرى المعدَّة للجزاء العادل، وقد صرح الله بذلك في العديد من آيات كتابه

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

الكريم منها قوله سبحانه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[2].

توحيد الله في عبادته ضمن إطار الأسرة:

بعد تأدية الفرد المسلم ما أوجب الله عليه ويستحب له نحو نفسه يأتي دور الأسرة ليقوم بتوحيد الله سبحانه بعبادته وحده لا شريك له في إطار أسرته وذلك بقيامه بما يجب عليه ويستحب له الإتيان به نحو كل فرد من أفرادها من الحقوق الواجبة والمستحبة وهي مذكورة تفصيلاً في كتب الأخلاق وخصوصاً رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام، وقد أشرت إلى بعض هذه الحقوق في الجزء الأول من وحي الإسلام صفحة ٤١ الطبعة الثانية في الخطبة الرابعة التي تخدثت فيها حول موضوع **(الإسلام دين السعادة والسلام)**.

توحيد الله بعبادته ضمن إطار المجتمع:

ويتحقق ذلك بقيام الفرد المسلم بما هو الثابت في حقه نحو أفراد المجتمع ابتداء بالجار ومروراً بإخوانه بالأخوة الإسلامية التي صرح لها بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[3].

وانتهاء بإخوانه بالأخوة الإنسانية التي صرح بها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بقوله المشهور: **«الإنسان أخو الإنسان أحبَّ أم كره»**.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ و٨.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

وأشار لها الإمام علي عليه السلام بقوله في عهده لمالك الأشتر ما حاصله: «الناس صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق».

ولم يقف الإسلام برحمته وعدالته عند حدود أفراد المجتمع البشري بل شمل برحمته الواسعة حتى الحيوانات التي يملكها الإنسان حيث طلب منه الرفق بها والإنفاق عليها بتقديم ما هي مضطرة له من الطعام والشراب ونحوهما من الحاجات الضرورية على وجه الوجوب وطلب منه أن يزيد على ذلك استحباباً من باب التوسعة والرفق كما يستحب له ذلك بالنسبة إلى الأفراد البشرية.

فالمكلف عندما يقوم بما يجب عليه أو يستحب له نحو أفراد المجتمع الكبير مع التزامه بامتثال أي تكليف موجه نحوه في أي إطار ومجال بفعله ما أُمر به وتركه ما نُهي عنه وتخيره بين الفعل والترك عملاً بوظيفة التخيير التي رسمها الشارع له في المورد الذي لم يوجد فيه ما يقتضي طلب الفعل وجوباً أو استحباباً ولا طلب الترك تحريماً أو على وجه الكرامة.

أجل: عندما يقوم المكلف بما هو المطلوب منه شرعاً في إطار المجتمع الكبير بداعي امتثال التكليف الموجه إليه يكون موحداً لله سبحانه بعبادته ومترجماً بذلك توحيده بعقيدته وبمجموع هذين التوحيدين التوحيد في العقيدة والتوحيد في العبادة يتحقق الهدف الكبير والغاية المثلى التي استهدفها الله سبحانه من أمره المكلفين بعبادته وحده لا شريك له وهي نيلهم الكمال والسعادة في الدنيا والآخرة.

الركوع ودوره التربوي في حياة المصلي:

إن المتفكر المتدبر فيما تنطوي عليه الصلاة بأفعالها وأقوالها من أسرار عميقة وأهداف تربوية رفيعة، ينتهي به تفكيره الواعي إلى أن الهدف الأسمى والغاية المثلى المستهدفة من تشريع وجوبها وإلزام المكلف بإتيانها في كل

حال وعدم سقوط وجوبها عنه على كل تقدير هي تقوية الرابطة الإيمانية وتعميق الصلة الفكرية والنفسية بالذات الإلهية، من أجل أن يبقى المؤمن المصلي على صلة بالله سبحانه وصلاة له بكل حركة اختيارية تصدر منه بإرادته واختياره وفق إرادة الله سبحانه بحيث تتحول هذه الحركة بمعناها العام إلى صلاة عامة وصلة تامة وقوية بمبدأ الكون ومبدع الوجود، كما تصبح الأرض كلها مسجداً كبيراً واسعاً ومعبداً فسيحاً شاملاً وتغدو كل جهة يتوجه إليها بقلب سليم ونفس خاشعة ونية خالصة لوجه الله تعالى قبلة عامة يستقبلها ويتوجه إليها بهذه الصلاة الشاملة المستوعبة لكل أنواع نشاطه العملي الصادر عن قصد التعبد لله سبحانه والخضوع لإرادته التشريعية.

وعلى ضوء هذا المعنى للصلاة الخاشعة وفلسفتها الحكيمة ندرك أنها تمثل بمجموعها المؤلف من المعاني العبادية الرابطة للمصلي العابد المخلوق بالإلّه الخالق المعبود من أجل أن يبقى متصلاً به فكرياً وروحياً وجسمياً ومتحركاً في فلك العبودية وإطار الربوبية مستمداً من شمس الكمال المطلق نور الكمال والسعادة في الدنيا والآخرة.

ومن الحركات البدنية التي تعبر كل واحدة منها عن معنى من تلك المعاني وتجعله كائناً حياً متحركاً بروح الحياة الحقيقية نحو الهدف السامي المقصود منه هي حركة الركوع باعتبار كونها من الحركات التي يقوم بها المصلي من أجل أن يعبر بها عن خضوعه الفكري والنفسي وانخفاض كيانه البشري أمام العظمة الإلهية التي لا أفق لها ولا حدود لسموها، ويأتي ذكر الركوع الذي جرت العادة لدى المتشرعة على الإتيان به حاله وهو قول المصلي: (سبحان ربي العظيم وبحمده) ليكون معبراً عن تلك العظمة المطلقة لأن التسبيح تنزيه للذات الإلهية عن كل ما لا يتناسب مع كمالها المطلق كما تقدم والحمد شكر وثناء على ما تفضلت به على العبد من النعم والآلاء التي لا تعد ولا تحصى، وقوله المصلي عند رفع رأسه من الركوع

(سمع الله لمن حمده) دعاء لله وتضرع بين يديه من أجل أن يستجيب دعاء من دعاه وانقطع إليه وتوكل عليه، ويكون رفع الرأس من الركوع رمزاً لارتفاع الدرجة وسمو المكانة التي يحصل عليها المصلي الخاضع أمام عظمة الله سبحانه والمتواضع بين يديه لأن الله سبحانه لم يطلب منا الخضوع له والتواضع أمام عظمته إلا من أجل أن نستفيد درساً تربوياً في التواضع للآخرين، ويكون خضوعنا له سبحانه ـ وتواضعنا لهم ـ سلماً معنوياً نصعد عليه ونرقى به إلى مرتبة السمو الحقيقي والرفعة المعنوية.

وهكذا لم يطلب منا التعبد له وخضوع إرادتنا لإرادته في كل تصرفاتنا الاختيارية إلا من أجل أن نتوصل بذلك إلى الحرية الحقيقية والتحرر من الخضوع للأهواء والأشخاص الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ويعبدون سواه، وقد ورد مدح التواضع والمتواضعين وذم التكبر والمتكبرين في العديد من آيات الكتاب الكريم، وروايات سنة النبي العظيم وأهل بيته الطاهرين.

من الآيات الواردة في مدح التواضع والمتواضعين قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

فإن الذلة التي مدح الله بها القوم الذين يختارهم لحمل رسالته والقيام بواجب عبادته هي لين العريكة والتواضع مع إخوانهم المؤمنين مع اتصافهم بالعزة والإباء والشموخ مع الكافرين الذين لا يعرفون قيمة التواضع ويفسرونه بالجبن والخوف منهم.

ولأهمية التواضع عند الله سبحانه فقد أمر به نبيه محمداً ﷺ من أجل أن يقدم القدوة الحسنة والنموذج الرفيع بين أفراد المجتمع ليقتدوا به بالتجمل بهذه الصفة النبيلة، وغيرها من المحامد السامية والمزايا الغراء التي كان

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

متجملاً بها قبل بعثته، وتأكد التزامه بها بعدها ليكون محققاً للغاية التي بُعِثَ من أجلها ـ وهي إكمال مكارم الأخلاق ـ بسيرته المستقيمة قبل أن يكون داعياً لها بكلمته البليغة وموعظته الحسنة.

والآية التي أمر الله فيها نبيه بالتواضع هي قوله سبحانه:

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[١].

وروي عن النبي ﷺ في مدح التواضع وذم التكبُّر قوله ﷺ:

«إن أحبكم إلي وأقربكم مني يوم القيامة مجلساً أحسنُكم خُلُقاً وأشدكم تواضعاً، وإن أبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون وهم المستكبرون»[٢].

وروي عن الإمام أمير المؤمنين قوله عليه السلام: «ما أحسن تواضعَ الأغنياء للفقراء، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله»[٣].

وعن الإمام الصادق عليه السلام في مدح التواضع وذم التكبر قوله عليه السلام: **«إن في السماء ملكين موكلين بالعباد فمن تواضع لله رفعاه ومن تكبره وضعاه»**[٤].

ومن الآيات الواردة في ذم التكبُّر والمتكبرين قوله تعالى:

﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾[٦] وقوله سبحانه: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾[٧].

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

(٢) أخلاق أهل البيت عليهم السلام ص٤٠ نقلاً عن كتاب قرب الإسناد.

(٣) أخلاق أهل البيت عليهم السلام ص٤٠ نقلاً عن نهج البلاغة.

(٤) أخلاق أهل البيت عليهم السلام ص٤٠.

(٥) سورة لقمان، الآية: ١٨.

(٦) سورة النحل، الآية: ٢٣.

(٧) سورة الزمر، الآية: ٦٠.

وروي عن الرسول ﷺ قوله في مدح التواضع وذم الكبر:

«لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار مَن كان في قلبه مثقال حبة من إيمان»(١).

وقال أبو العلاء المعري في مدح التواضع وذم التكبر:

يا واليَ المصر لا تظلمنْ ... فكم جاء مثلك ثم انصرف
تواضع إذا ما رُزقتَ العلى ... فذلك مما يزيد الشرف

وقال آخر حول نفس الموضوع:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... إلى طبقات الجو وهو وضيع

وقال ثالث حول الموضوع نفسه:

ملأى السنابل تنحني بتواضع ... والفارغات رؤوسهن شوامخ

الدرس التربوي المستفاد من الركوع الصلاتي:

بعد الانتهاء من الجولة الفكرية في رحاب أبرز الشعائر الدينية وأهم أجزاء الصلاة وأركانها الأساسية وهو الركوع وما يجب فيه من الذكر نحتاج إلى أن نقف منه وقفة تدبُّر وتفكُّر فيما يمكن أن يُستلهم منه ويستفاد من الدروس التربوية التي تنور العقل وتهذب النفس وتنطلق معها في رحاب هذه الحياة وتواكب كل خطوة من خطواتها العملية من أجل أن تحوّلها إلى ركوع وخضوع أمام العظمة الإلهية والإرادة السماوية والخضوع بهذا المعنى العام هو روح العبادة بمعناها الكلي الشامل والتواضع بمعناه المتقدم المحمود المقابل للتكبر المذموم أحد مصاديق الخضوع أمام العظمة الإلهية حال الصلاة ونحوها من العبادات باعتبار أنه مطلوب لله سبحانه ومستهدف من الركوع

---

(١) مجموعة ورام ج١ ص١٩٨ دار التعارف بيروت.

الصلاتي، وقد ذكرتُ فيما تقدم من أبحاث هذا الكتاب، وما تقدمه من الكتب الثلاثة السابقة عليه، أن الله سبحانه لم يأمرنا بالعبادات الخاصة وما يتعلق بها من الأجزاء والشروط التعبدية التي يشترط في صحتها قصد التقرب بها إلا من أجل أن تقوى رابطة الإيمان بالله سبحانه ليبقى العبد المؤمن منشداً إليه ومرتبطاً به بكل تصرف اختياري يصدر منه بإرادته، ويكون بذلك محققاً للعبادة بمعناها المقصود من قوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(١).

وعلى ضوء هذا المعنى العام للعبادة، ندرك أن العبادات الخاصة المعهودة هي مطلوبة في ذاتها لما يترتب عليها مباشرة من الفوائد الروحية والجسمية بعنوانها الخاص وكيفيتها المحدودة كما أنها مطلوبة لهدف أوسع وغاية أشمل، وهي تقوية الروح العبادية في حياة المؤمن العابد لتصبح جزء من كيانه الرسالي فلا ينفصل عنها ولا تفارقه في أي تصرف يصدر منه بإرادته واختياره. ونتيجة هذه الملازمة، وذلك الارتباط الوثيق هي عدم تركه ما يريد الله منه فعله وعدم فعله ما يريد منه تركه وخصوصاً إذا كان طلب الفعل أو الترك إلزامياً يترتب على مخالفته استحقاق العقوبة ويعبر عن هذه الحالة الملازِمة للمؤمن العابد بوعي وتدبُّر بملكة التقوى، وهي صفة نفسية وملكة قدسية تثبت للنفس العابدة الملتزمة بخط الاستقامة والثابتة عليه بالعقيدة الصحيحة الراسخة والسيرة المستقيمة المجسمة لتلك العقيدة على الصعيد العملي.

وقد ورد التصريح في العديد من الآيات الكريمة والروايات المشهورة بأن التقوى بمعناها المذكور هي روح العبادات والغاية الأساسية المقصودة منها بحيث إذا وقعت مجردة عنها وخالية منها تكون سقطاً فاقداً للحياة والحيوية التي تحركها في طريق الهدف المقصود.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

من جملة الآيات المذكورة قوله تعالى في مقام بيان غاية الصوم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(١).

وقوله سبحانه في مقام بيان الهدف الذي شرعت الصلاة من أجله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾(٢).

وقوله تعالى في مقام بيان الغاية المقصودة من إيجاب تقديم الهدي على من وجب عليه حج التمتع ويلحق به ما يستحب تقديمه كالأضحية ونحوها:

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾(٣).

وخلاصة ما أشرت إليه ونبّهت عليه فيما تقدم من أبحاث هذا الكتاب هي أن الله سبحانه لم يوجب علينا العباداتِ الخاصة بشكلها وصورتها المؤطرة بحدودها وقيودها المعينة إلا من أجل أن يُتوصل بها إلى هدف خاص وفائدة محددة تترتب عليها مباشرة مع ترتب غاية أوسع وفائدة أشمل وهي تعميق الرابطة الإيمانية وتغذية الروح العبادية في حياة المؤمن العابد من أجل أن تنطلق من حدود وإطار العبادات المعهودة وترافقه في درب الحياة الطويل لتصبغ كل عمل يمارسه بإرادته بلونها، ويكون تجسيداً لها على الصعيد العملي ونتيجة هذا الانطلاق من حدود الصورة والشكل والتحليق إلى أفق الهدف الأسمى والغاية الفضلى هي أن يصبح كل عمل راجح في نفسه وصادر من فاعله بإرادته واختياره وفق إرادة الله سبحانه صلاةً تقربه من الله زلفى وكل إمساك عن فعل غير محبوب لله سبحانه بقصد امتثال النهي المتعلق به صوماً مقبولاً ينال به الثواب الجزيل، وكل أفعالِ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٣) سورة الحج، الآية: ٣٧.

وتروكٍ تنسجم بطبيعتها مع مناسك الحج وأعماله وتروك إحرامه، تجسيداً حياً لتلك المناسك وحكمتها وتحقيقاً عملياً لأهدافها المقصودة وغايتها المنشودة.

وإذا تجاوزنا حد الشكل العام والصورة الكاملة للصلاة المعهودة ودخلنا فكرياً في عمق حقيقتها وجوهرها لنصل بذلك إلى أحد أركانها الأساسية وهو الركوع موضع البحث وموضوع الحديث.

ونقول في مقام استيحاء الدرس الكبير منه:

إن الشارع المقدس لم يوجب علينا الصلاة المؤلفة منه ومن بقية الأجزاء إلا من أجل أن نستخرج من شكلها وصورتها روحها وجوهرها الذي يبقى معنا أثراً ونبقى معه وعياً وتأثراً بحيث نظل دائماً وأبداً في حال صلة بالله تعالى وصلاة له في كل الأعمال التي نمارسها على الصعيد الخارجي بإرادتنا وَفق إرادته سبحانه، ونتيجة ذلك ولازمه أن نبقى دائماً على حالة ركوع معنوي وخضوع نفسي أمام عظمته تعالى بتحقيق إرادته وامتثال أحكام شريعته بفعل ما أراد فعله وترك ما أراد تركه وبالتخيير بين الإقدام والإحجام عندما يجعلنا مخيرين بينهما بدون ترجيح أحدهما على الآخر، وهذا الركوع المعنوي العام هو روح ذلك الركوع الخاص المتمثل بتلك الهيئة الخاصة التي لم تطلب منا حال الصلاة إلا من أجل أن تكون رمزاً وإشارةً إلى الركوع المعنوي المقصود الذي يطلب منا أن نحصله حال الصلاة ونحفظه ونحافظ عليه بعد الانتهاء منها وإيجادها في الزمان والمكان المحددين لها.

ومن أجل التوضيح نشبّه الركوع المعنوي بالروح التي تنطلق من قيود البدن بالوفاة لتسبح في عالمها الرحب المجرد من قيود الزمان والمكان وهكذا روح الصلاة بشكلها العام وركوعها بصورة خاصة هي الخضوع الروحي والخشوع النفسي أمام عظمة السماء ولازم ذلك هو ذوبان الإرادة البشرية في الإرادة الإلهية فلا تكون هناك إرادة للإنسان العبد وراء إرادة

خالقه ومالكه الحقيقي وحيث أن هذا الذوبان للإرادة البشرية في الإرادة الإلهية هو روح الصلاة والصوم والحج والزكاة وبقية العبادات الخاصة فيصح أن نعبر عن كل واحدة منها بأنها صلاة وصيام وحج وزكاة وهكذا، وذلك بلحاظ الروح والجوهر المشترك بينها كما يصح أن يعبر عن كل واحد منها، وجميع التصرفات الإرادية الخاضعة للإرادة الإلهية بأنها ركوع دائم وخضوع مستمر أمام عظمة السماء في محراب الأرض الواسع الشامل لكل مكان.

وخلاصة الخلاصة لما تقدم من الحديث حول العبادات بصورة عامة والصلاة بصورة خاصة وركوعها بصورة أخص هي أن العبادة المطلوبة لله سبحانه المقربة منه هي التي تصدر من المؤمن العابد كاملة تامة بجسمها وهو الشكل والصورة وبروحها وجوهرها، وهو قصد التقرب بها ويتمثل كمالها حين الإتيان بها بإيجاد جسمها مع روحها الصغرى التي تعطيه الحياة الصغيرة والقصيرة، وهي تمضي به إلى أمد قصير وهدف صغير يتمثل بفراغ الذمة من العبادة الكاملة بالمعنى النسبي للكمال العبادي ويبقى أمام المؤمن العابد الهدف الأسمى المقصود من العبادة بكل أنواعها وأشكالها، وهو الذي يتجاوز المعنى السلبي لكمال العبادة الذي يفسر بفراغ الذمة منها بعد الإتيان بها واجدة لشروط الصحة وفاقدة لموجبات البطلان المعهودة بحيث لا يُحتاج إلى إعادتها في الوقت ولا إلى قضائها خارجه.

أجل: بعد إتيان العبادة كاملة بالكمال النسبي المتمثل بفراغ الذمة منها، يبقى أمام المؤمن العابد لله بوعي وعمق لهدف العبادة الأسمى أن يبذل جهده في سبيل الوصول إليه والحصول عليه، وهو رسوخ فكرة العبادة في ذهنه وتعمق هدفها في قلبه من أجل تحصيله على الصعيد العملي والمحافظة عليه باستمرار ليبقى دائماً وأبداً في عبادةِ لله سبحانه، وذلك بتطبيق جميع تصرفاته على الوظيفة الشرعية الثابتة في حقه، بحيث لا يفعل

إلا ما يريد الله منه فعله وجوباً أو استحباباً، ولا يترك إلا ما يريد منه تركه تحريماً أو كراهة، ولا يَرى نفسه مخيراً بين الفعل والترك إلا إذا جعل الله له التخييرَ في ذلك.

وإذا أردنا أن نعبر عن العبادة الخالصة لله تعالى والعبودية المخلصة له والرابطة للعبد المخلص لسيده وخالقه بالعبادة الدائمة والخضوع المطلق لإرادته تعالى بكل عمل يمارسه بإرادته واختياره، يأتي عنوان التقوى ليكون التعبيرَ الواضح والمستوعب لكل التصرفات الاختيارية التي يمارسها المؤمن بإرادته وفق إرادته تعالى سواء كان التصرف فعلاً أو تركاً، ولذلك فسرت التقوى بأنها فعل الواجبات وترك المحرمات على أن يكون هذا الفعل، وذلك الترك نابعاً عن قوة روحية لازمة وملازمة لصاحبها وإن فرض تخلف أثرها في بعض الأحيان نتيجة عدم العصمة وحصول مزاحم ضاغط قوي، فسرعان ما يعود صاحبها إلى جادة الاستقامة من باب التوبة والله سبحانه ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1].

وخلاصة الحديث حول العبادة الكاملة هي أن العبادة لها نوعان من الكمال، الأول هو الكمال النسبي الأدنى الذي يتحقق به فراغ الذمة من العبادة وَوُصِفَ بكونه نسبياً لأن اتصاف العبادة به كان بالنسبة إلى الهدف الأدنى الذي هو فراغ الذمة، في مقابل النوع الثاني من كمال العبادة، وهو الكمال الأرقى الذي يتمثل به الهدف الأسمى، وهو وصول العابد إلى مرتبة التقوى الثابتة له، والمنطلقة معه في رحاب الحياة لتحول كل تصرف يصدر من العبد بدافعها إلى عبادة يتقرب بها إلى الله زلفى.

وقد مرّ معنا أن الله سبحانه نبّه في العديد من آيات كتابه الكريم الموضحة بالعديد من الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام على أن الهدف

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢ نقل لبعض الآية.

الأسمى المقصود من تشريع العبادات الخاصة المعهودة هو التوصل بها إلى صفة التقوى اللازمة والعبودية الدائمة بمعنى أن حالة التعبُّد والتقيُّد التي يُطلب من المؤمن العابد أن يكون عليها حال صلاته وصيامه وحجه وسائر عباداته، بإتيانها كاملة صورة وشكلاً وروحاً وقلباً، متمثلاً بقصد التقرب بها لله سبحانه والإخلاص له بالنية والقصد، يطلب منه أن يستمر عليها بعد فراغه من عملها وتفريغ ذمته من مسؤوليتها وذلك بالتحول والتطور المتمثل بالانتقال من الهدف الأدنى المترتب على العبادة بسبب كمالها النسبي المحقق لفراغ الذمة إلى الهدف الأسمى، وهو بلوغ درجة التقوى والاستقامة في جادة العبودية باستمرار واستقرار فإذا توفق العبد لبلوغ الهدف الأسمى والغرض الأقصى كان عابداً لله سبحانه بالعبادة الكاملة بالكمال الأدنى النسبي المحقق للهدف الأدنى، وهو فراغ الذمة منها مع الكمال الأسمى المحقق للهدف الأرقى، وهو بلوغ درجة التقوى الثابتة والعبودية الواعية الكاملة.

وإذا قصرت همته واكتفى بالمرتبة الدنيا من كمال العبادة ولم يتحول بها إلى المرتبة العليا والغاية الفضلى كما هو شأن الكثيرين كان مصداقاً للروايات التي تعتبر الوجود الناقص للعبادة الواقف على درجة الكمال النسبي ملحقاً بالعدم نظراً لعدم ترتب الهدف الأرقى والكمال الأسمى على إيجادها.

من جملة تلك الروايات ما نقل عن الرسول الأعظم ﷺ المتضمن لما حاصله:

«رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش».

ونظيرها الرواية الثانية المتضمنة لما حاصله: مَن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً.

وقد تحدثت حول هذا الموضوع مفصلاً في أكثر أبحاث الكتب الثلاثة السابقة لهذا الكتاب.

السجود ودوره التربوي في سلوك المؤمن المصلي:

حيث أن السجود مرتبة عالية من الخضوع فهو بلحاظ جوهره والغاية المقصودة منه نوع من الركوع، ولذلك نستطيع أن نكتفي بما ذكرناه حول فلسفة الركوع والهدف الأساسي المقصود منه ونقتصر على ذكر بعض الخصوصيات التي ميزته عنه أي عن الركوع وجعلته أعلى رتبة وأعمق أثراً فنقول: إن السجود بكيفيته الخاصة المعهودة يمثل قمة الخضوع والانكسار أمام عظمة الله وجلاله حيث يضع المؤمن الساجد أشرف وأفضل جزء من بدنه وهو الجبهة على الأرض وما أنبتت باستثناء المأكول والملبوس باعتبار أن محل السجود وهو الأرض أسفل درجة وأنزل رتبة من الجبهة التي هي أشرف جزء من بدن المؤمن الساجد فيكون وضعها على ما هو أنزل درجة منها بقصد التعبُّد لله سبحانه ممثلاً لما هو غاية في الخضوع لعظمته الإلهية.

ولا يخفى أن الأسفلية والانحطاط الذي نسب إلى الأرض ومحل السجود منها بالنسبة إلى الجبهة التي أعطيت لها صفة الأفضلية والأشرفية إنما هي بلحاظ الظاهر والمقياس المادي لا بالميزان الواقعي الحقيقي لأننا إذا نظرنا إليها من خلال المنظار الواقعي والمقياس الحقيقي لأدركنا وجود مرتبة سامية لها ومنزلة عالية من عدة جهات.

منها: أنها أصل خلق الإنسان والحيوان والنبات والوعاء الذي يحمل في طيه الكثير من المخلوقات والعديد من المعادن والكنوز ونحوها من الأشياء الثمينة التي توفر للإنسان مصدراً من مصادر الثروة والتوسع الاقتصادي مضافاً إلى ما تحمله فوقها من التربة الصالحة للزراعة وإعطاء ما يحتاجه من الحبوب على أنواعها كما أنها صالحة لأن تغرس فيها كل أنواع الأشجار التي تعطي للبشر مختلف أنواع الفواكه والثمار، وذلك بسبب ما تحمله في طيها من الخصوبة والعناصر المتنوعة التي تساعد على نجاح عملية الغرس والزراعة التي تعود على الإنسان بالخير العميم والنفع الكثير كما هو ظاهر، وقد أشار الله سبحانه إلى ذلك بقوله:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[1].

ومنها: أنها المستودع الذي يُوارى فيه الإنسان بعد موته ليصونه مما ينافي كرامته وحرمته كما تصون الأحياء مما يترتب على عدم الدفن في الأرض من انتشار المكروبات التي لا يمنع من سريان خطرها وانتشار ضررها ولا يقضي عليه إلا بالتراب والمواراة فيه كما أفاد الطب الحديث، ولذلك يتعين تطهير الإناء بالتراب مع الماء إذا تنجس بشرب الكلب منه لأن ذلك يسبب وصول مكروب خطير إلى الإناء، ولا يُقضى عليه إلا بالتراب مع الماء وللأرض فوائدها الأخرى الكثيرة واقتصرت على ذكر بعضها ليكون شاهداً على أهمية الأرض وترابها المبارك الذي هو مصدر الكثير من الخير والعطاء، وما ذكرناه من كون السجود ممثلاً قمة الخضوع لله سبحانه، كان بلحاظ ما ذكرناه من الخصوصية الأولى، وهي كونه حاصلاً بوضع أشرف جزء من بدن الإنسان على ما يمثل الضعة والانحطاط بالمقياس المادي الظاهري، وهو ما يصح السجود عليه من الأرض وما أنبتت، وليس بالمقياس الحقيقي والميزان الواقعي للتفاضل بين الأشياء كما تقدّم.

الخصوصية الثانية: المميزة للسجود على الركوع هي وضع المساجد السبعة على الأرض وما يصح السجود عليه منها مباشرة بالنسبة إلى موضع السجود ويصح وضع بقية المساجد على المفروشات ونحوها مما لا يصح السجود عليه.

الخصوصية الثالثة: هي قول الساجد (سبحان ربي الأعلى وبحمده).

وقد مرّ معنا تفسير كلمة سبحان فلا نعيد كما مر تفسير كلمة الرب عند تفسير سورة الحمد، وهي مشتقة من التربية، وقد ذكرنا أن التربية التي تولاها

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٥.

الله سبحانه بالنسبة إلى الإنسان قسمان: تربية تكوينية وتربية تشريعية، وكلمة الأعلى تناسب طبيعة السجود لأن المناسب للعابد الواقف بين يدَي جبار السموات والأرض البالغ قمة العلو والرفعة أن يقابل ذلك بما يمثل غاية الخضوع والانكسار أمام عظمة الخالق الجبار، وهو السجود بكيفيته الخاصة وكلمة الأعلى في ذكره تناسب تلك العظمة، وذلك الجلال والجلالة غير المحدودة في مقابل منزلة العبد الفقير الضعيف البالغ غاية الانحطاط والانسحاق أمام عظمة المبدع الخلاق.

وقد ذكرنا أن للركوع جسماً، وهو كيفيته الخاصة وروحاً، وهي خضوع نفس المؤمن الراكع وخشوعها أمام جبار السموات والأرض وانحناء إرادته الراكعة التابعة لإرادة السماء المتبوعة بكل التصرفات الصادرة من الإنسان المؤمن بإرادته واختياره، وذكرنا أن الركوع يبقى بروحه الذائبة في روح المصلي حتى بعد انفصال جسمه وكيفيته عن جسمه ـ أي جسم المصلي ـ ونتيجة ذلك هي أن يبقى في حالة ركوع دائم وخضوع مستمر للإرادة الإلهية.

ونفس الشيء يقال بالنسبة إلى السجود لأنه يمثل أعلى مراتب الخضوع والركوع المعنوي أمام عظمة الله سبحانه ومقامه الأعلى.

وبذلك يُعرف أن كل ما يمكن استفادته من الركوع بهيئته ومبناه وروحه ومعناه من الدروس التربوية يمكن استفادته من السجود أيضاً وبطريق أولى.

ورفع الرأس من السجود كرفعه من الركوع من جهة كونه رمزاً للرفعة المعنوية التي ينالها المؤمن المصلي بخضوعه لله سبحانه وانقياد إرادته لإرادته في جميع تصرفاته الإرادية وهذا وذاك هو السر في كون الميزان للسمو الحقيقي والرفعة الواقعية هو التقوى والعمل الصالح والخلق الفاضل كما هو صريح قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

ونستكشف أهمية هذين الركنين الأساسيين المقومين لحقيقة الصلاة صورةً ومبنى وهدفاً ومعنى من الحديث عنهما والأمر بهما بصورة خاصة وبالصراحة الواضحة في آيات الكتاب الكريم وسنّة النبي العظيم ﷺ.

من الآيات قوله تعالى مخاطباً عباده المؤمنين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

وقوله تعالى مخاطباً مريم العذراء عليها السلام:

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[2].

وقوله تعالى في مقام مدح الرسول الأعظم ﷺ والمؤمنين برسالته والمستقيمين على خطه:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾[3].

ومن جملة الروايات الواردة في فضل الركوع والسجود ما ورد في مصباح الشريعة من قول الإمام الصادق عليه السلام:

«لا يركع عبد لله ركوعاً على الحقيقة إلا زيّنه الله بنور بهائه، وأظلّه في ظل كبريائه، وكساه كسوة أصفيائه، والركوع أول، والسجود ثاني وفي الركوع أدب، وفي السجود قرب، ومَن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب فاركع ركوع خاشع في قلبه متذلل وَجِل تحت سلطانه خافض له بجوارحه»[4].

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٣.

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٤) عن مفتاح الخلاص ص٢٨٠ نقلاً عن البحار ج٨٢ ص ١٠٨.

وروي عن الحسن بن محبوب يرفعه إلى أبي جعفر عليه السلام أنه سئل أيهما أفضل في الصلاة كثرة القراءة أو طول اللبث في الركوع والسجود؟ فقال عليه السلام: «كثرة اللبث في الركوع والسجود» أما تسمع لقوله تعالى:

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ «إنما عنى بإقامة الصلاة طول اللبث في الركوع والسجود»(١).

وما روي عن زرارة من قوله: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الفرائض في الصلاة فقال عليه السلام: «الوقت والطهور والقبلة والتوجه والركوع والسجود والدعاء».

قلت: ما سوى ذلك؟.

قال: «سنّة في فريضة»(٢).

وهناك روايات وردت في السجود خاصة لبيان أهميته.

منها: ما روي عن محمد بن مسلم عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: أتى زجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «أُدع الله أن يدخلني الجنة».

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**أعنّي بكثرة السجود**»(٣).

وروي أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك ويرزقني مرافقتك في الجنة.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**أعني بكثرة السجود**»(٤).

وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «**ما تقرّب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي**»(٥).

---

(١) سورة المزمل، الآية: ٢٠ عن مفتاح الخلاص ص٢٨٢ عن البحار ج٨١ ص٢٢٣.

(٢) الوسائل ج٤ ص٩٣٢ ح٥.

(٣) عن مفتاح الخلاص ص٢٩٨ عن الفقيه ج١.

(٤) عن المحجة البيضاء ج١ ص٣٤٥ ح٣.

(٥) عن المحجة البيضاء ج١ ص٣٤٥ ح٤.

وروي عنه أيضاً قوله ﷺ: **«ما من مسلم يسجد لله سجدةً إلا رفعه بها درجة وحطّ بها عنه خطيئة»**[1].

وهناك روايات تدل على فضل السجود وزيادة الثواب بطول مدته.

وروي عن الإمام الكاظم عليه السلام، أنه كان يسجد بعدما يصلي فلا يرفع رأسَهُ حتى يتعالى النهار[2].

والوجه في مضاعفة الثواب المترتبة على طول السجود واضح لأن النتيجة تتبع المقدمة، ولذلك اشتهر في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام ما مضمونه: «**أفضل الأعمال أحمزها**» أي أكثرها مشقة ولذلك نقل عن الإمامين الحسنين عليهما السلام أنهما حجا لبيت الله الحرام خمساً وعشرين مرة مشياً على الأقدام، وإن النجائب لتقاد بين يدَي كل واحد منهما، وكان ذلك لما ذكرناه من إيثارهما المقدمة الأصعب لينالا الثواب الأكثر، وقد اقتدى بهما الكثيرون من الموالين لهما بالسعي إلى زيارة الحسين عليه السلام مشياً من الأماكن البعيدة لنفس الغرض المذكور، وهو زيادة الثواب المترتبة على زيادة المشقة، ورجحان ذلك مما لا ريب فيه بشهادة الوجدان السليم مع ورود الروايات الكثيرة المرغِّبة فيه، ولكن الأهم من ذلك كله هو التفات المكلف المؤمن الذي توفق للالتزام بالعبادات المعهودة، وخصوصاً الصلاة، إلى الهدف الأسمى المقصود من تشريعها والأمر بها، وهو التقوى والعمل الصالح والخلق الفاضل باعتبار أن هذه المعاني الكريمة والمُثل الرفيعة هي روح العبادة وقلبها النابض بالحيوية والحركة في الطريق المستقيم الموصل إلى رضا الله سبحانه والقرب منه بصورة مستمرة ودائمة مهما كانت العوائق والصعوبات أو الإغراءات التي تقتضي بطبعها الانحراف عن خط الاستقامة بالنسبة إلى من لم تصل به صفة التقوى إلى

---

(١) المحجة البيضاء، نفس الصفحة ح٥.

(٢) نفس المصدر والصفحة نقلاً عن الفقيه.

الدرجة العالية والمرتبة القوية التي تمكنه من الثبات في وجه تلك العوامل المؤدية إلى النتيجة السلبية والعاقبة السيئة، ولو فرض وجود الصفة المذكورة وبلوغها الدرجة القوية والمرتبة العالية، ومع ذلك انهزم صاحبها في بعض المعارك المعنوية أمام جنود إبليس والنفس الأمّارة بالسوء، فإن بلوغها الدرجة الرفيعة من القوة والصلابة تساعده على استئناف الجهاد الأكبر بصبر وثبات واستعانة بالله سبحانه وتوكل عليه إلى أن ينتصر على عدويه المذكورين وينفض عنه غبار الهزيمة الطارئة ويعود إلى ربه من باب التوبة نادماً مستغفراً بلسان صادق وقلب سليم ونفس مطمئنة لرحمة الله ومغفرته على ضوء الحديث المشهور القائل: «**التائب من ذنبه كمَن لا ذنب له**».

أما العبادة التي لا تثمر لصاحبها قوة الإرادة وصلابة الموقف والاستقامة في خط السماء بعزيمة ماضية وثبات دائم أو في الأعم الأغلب من أوضاعه وأحواله بحيث لا ينحرف عنه إلا قليلاً نتيجة عوامل وأسباب موضوعية ضاغطة، وسرعان ما يعود بعد ذلك إلى النهج القويم والصراط المستقيم.

أما هذا النوع من العبادة الذي لا يترتب عليه الهدف الأسمى والغرض الأقصى وهو التقوى والاستقامة في خط السماء، فهو يعتبر في ميزان الحقيقة ومقياس الموضوعية ناقصاً أبتر لا يترتب عليه سوى فراغ الذمة وعدم وجوب الإعادة أو القضاء إذا صدر واجداً لما يجب فيه ويعتبر في صحته من الأجزاء والشروط.

وذلك لما ذكرناه سابقاً من أن التقوى بمعناها المعهود هي روح العبادة وقلبها النابض فإذا صدرت من العابد الواعي واجدة لهما كانت حية قوية تستطيع أن تتحرك وتحرك صاحبها في طريق العبودية الدائمة والعبادة المستمرة المتمثلة بالخضوع المطلق لإرادة الله سبحانه، وهذا الخضوع الدائم والانقياد الكلي لإرادة السماء هو ركوع معنوي ثابت وسجود عبادي مستمر وبالتالي هو صلاة لازمة وملازمة لكيان المؤمن العابد الواعي يمارسها دائماً وأبداً في

محراب الحياة ومعبد الوجود، وبذلك ندرك أن طول الركوع والسجود إنما تكون له قيمة ووزن في مقياس الاعتبار وميزان التقدير إذا كان مؤدياً إلى دوام الركوع المعنوي والسجود الحقيقي المتمثل بانحناء إرادة العابد المخلوق أمام إرادة خالقه ومعبوده في كل تصرفاته الاختيارية بحيث لا يصدر منه أي تصرف في أي موقف خلاف إرادة سيده ومالكه المعبود بالحق، وأما إذا كان كل من الركوع والسجود مجرد حركة جسمية يمارسها بمحض العادة والتقليد الفارغ من جوهر الهدف، وروح الغاية المنشودة منه فإنهما يكونان مع بقية أجزاء الصلاة وشروطها المشاركة لهما بالممارسة التقليدية المجردة من الوعي والالتفات إلى حكمة التشريع وغاية التكليف، مجرد[١] حركة جسمية تصدر من جسم المصلي بدون روح وحياة، ومعنى ذلك هو أن تقع سقطاً فاقداً للحياة والحركة في طريق الهدف المقصود، ولهذا يكون هذا النوع من العبادة باقياً في مكانه وزمانه ولا ينطلق مع إنسانه في درب الحياة ليحقق له الهدف المنشود، وهو استقامة السلوك في خط العبادة الدائمة والعبودية الواعية المستمرة.

التشهد وفضله الأخروي ودوره التربوي:

تظهر قيمة التشهد ودوره الفعال في تحقيق هدف الصلاة، والغاية المقصودة منها بملاحظة كونه المنطلق والأساس لإسلام المسلم، وإيمان المؤمن الذي يقوم عليه بناء صرح الشريعة ويستند إليه القيام بواجب العبودية الذي هو علة الخلق والإيجاد لنوع الإنسان، وما خلق لأجله في هذا الكون من مختلف أنواع المخلوقات، ولذلك يكون الإيمان بالشريعة بصورة عامة والعبادات بصورة خاصة والصلاة بصورة أخص وأخص، منطلقاً من الإيمان بأصول الدين المعهودة، ويتمثل بالاعتراف والشهادة لله بالوحدانية والعدالة وللرسول الأعظم ﷺ بالرسالة ولأهل بيته بعده بالولاية والقيادة الشرعية

---

(١) خبر يكونان في السطر السابع.

لكونهم المقصودين من كلمة ﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ الواردة في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[١].

ويأتي الاعتراف بالمعاد يوم القيامة ليكون متمماً للاعتراف بما قبله من الأصول الاعتقادية الأربعة وهي: التوحيد والعدل والنبوة والإمامة باعتبار كونها امتداداً للنبوة الخاتمة والخالدة وهي نبوة الرسول الأعظم ﷺ، على ضوء البيان التفصيلي المذكور لذلك في محله من كتب العقائد الإسلامية.

وبذلك ندرك جيداً أن الشهادة لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة في آخر الصلاة الثنائية وفي وسط غيرها من بقية الفرائض تكون استحضاراً تفصيلياً للعقيدة التي انطلق منها الإيمان بالشريعة بصورة عامة وفريضة الصلاة بصورة خاصة لتكون صادرة بمجموعها من المصلي بوعي والتفات تفصيلي لمصدر تشريعها ومَن يؤتى بها من أجله، وهو الله سبحانه، ولشخصية من بلغ وجوبها ضمن تبليغه ما أنزل إليه من ربه من أحكام الشريعة الغراء، ومن المعلوم أن المصلي بقدر ما يكون مستحضراً لعظمة الله سبحانه وقدسية رسوله المبلغ عنه أثناء صلاته يكون أكثر إقبالاً عليه وخشوعاً بين يديه لينال بذلك المزيد من الثواب العظيم والأجر الجسيم حيث يكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[٢].

وقد ورد في بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام ما مضمونه: «لا يُكتب للعبد من صلاته إلا ما أقبل به على ربه» والمراد من هذه الرواية أنه لا يكتب للعبد الثواب الجزيل المترتب على الخشوع لله فيها والإقبال عليه بها إلا مع تحقق ذلك لأن المسبب يتبع سببه وجوداً وعدماً فهي نظير الرواية الأخرى الدالة على أهمية الصلاة في المسجد وخصوصاً بالنسبة إلى جاره

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ١ و٢.

حيث ورد فيها: «**لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد**» والقرينة الدالة على إرادة المعنى المذكور من الروايتين هي عدم اشتراط صحة الصلاة بالإقبال على الله فيها، وإنما هو شرط في كمالها وزيادة ثوابها في مقابل الثواب القليل المترتب عليها مع عدم توفر صفة الخشوع والإقبال، ونفس الشيء يقال في الصلاة المأتي بها في البيت فهي تقع صحيحة بلا ريب إلا أن الثواب المترتب عليها فيه يعتبر بمنزلة المفقود بالنسبة إلى الثواب الجزيل والأجر العظيم الحاصل من الإتيان بها في المسجد.

وقد ورد بيان ثواب التشهد وأهميته بين بقية أجزاء الصلاة في عدة روايات.

من ذلك ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام من قوله في كتاب مصباح الشريعة المنسوب إليه: «التشهد ثناء على الله فكن له عبداً في السر خاضعاً له في الفعل كما أنك عبد له بالقول والدعوى وصل صدق لسانك بصفاء صدق سرك فإنه خلقك عبداً وأمرك أن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك وأن تحقق عبوديتك له بربوبيته لك، وتعلم أن نواصي الخلق بيده فليس لهم نفَسٌ ولا لحظة إلا بقدرته ومشيئته وهم عاجزون عن إتيان أقل شيء في مملكته إلا بإذنه وإرادته، وقد أمرك بالصلاة على نبيه محمد صلى الله عليه وآله فأوصل صلاته بصلاته وطاعته بطاعته وشهادته بشهادته، وانظر أن لا تفوتك بركات معرفة حرمته فتُحْرَم من فائدة صلاته، وأمر بالاستغفار لك والشفاعة فيك إن أتيت بالواجب في الأمر والنهي والسنن والآداب، وتعلم جليل مرتبته عند الله عزّ وجل»(١).

والحديث المذكور وإن كان وارداً في التشهد عنواناً إلا أن الأسرار والحكم التي تضمنها مشتركة بينه وبين بقية العبادات غير الصلاة وبقية أجزائها، من ذلك قوله عليه السلام: «فكن له عبداً بالسر خاضعاً له في الفعل كما

---

(١) المحجة البيضاء ج١ ص٣٩٢ و٣٩٣ نقلاً عن مصباح الشريعة.

أنك له عبد بالقول والدعوى، وصل صدق لسانك بصفاء صدق سرك فإنه خلقك عبداً وأمرك أن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك وأن تحقق عبوديتك له بربوبيته لك» . . إلخ .

وروي في عيون الأخبار والعلل عن الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «إنما جعل التشهد بعد الركعتين لأنه كما قدم قبل الركوع والسجود من الأذان والإقامة والدعاء والقراءة فكذلك أيضاً أخر بعدها التشهد والتحية والدعاء»[1] .

وروي عن عبيدة الحذاء عن أبي جعفر عليه السلام قال: «مَن قال: أشهد أن لا إلَه إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، كتب الله له ألف حسنة»[2] .

وروى سعد بن سهل الأنصاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله، في حديث أن الله نادى أمة محمد:

«مَن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا أنا وأن محمداً عبدي ورسولي أدخلته الجنة برحمتي»[3] .

وروي عن أبي بصير وزرارة عن أبي عبدالله عليه السلام حيث قال: «إن الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله من تمام الصلاة إذا تركها متعمداً فلا صلاة له»[4] .

واستفادة كون الصلاة على النبي وآله عليهم السلام جزء من التشهد الواجب مما لا خلاف فيه عند جميع المسلمين، ولذلك التزموا بها من أجل أن يكملوا الصلاة ويُتموها بإضافتها إليها، وهي وإن كانت مطلقة وغير مقيدة بضم الصلاة على أهل بيته إلى الصلاة عليه، ولكنها مقيدة بالروايات الكثيرة الواردة في مقام

(١) مفتاح الخلاص ص٣٠٩ نقلاً عن عيون الأخبار والعلل.
(٢) الوسائل ج٤ ص١٢٢٨ ح١.
(٣) الوسائل ج٤ ص١٢٢٨ ح٣.
(٤) الوسائل ج٤ ص٩٩٩ ح١.

تفسير المراد من الصلاة عليه ﷺ وبيان الكيفية الخاصة المطلوبة لله سبحانه.

من جملة تلك الروايات ما ورد في مجمع البيان عند تفسيره الآية الآمرة بالصلاة على النبي ﷺ، وهو ما روي عن أبي حمزة الثمالي بسند متصل إلى كعب بن عجره قال: لما نزلت هذه الآية قلنا: يا رسول الله هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك؟ قال:

«قولوا: اللهم صلِّ على محمد وآل محمد كما صلَّيت على إبراهيم، وآل إبراهيم إنك حميد مجيد»[1].

ولم يكتفِ الرسول الأعظم ﷺ بالبيان الإيجابي الذي شرح به كيفية الصلاة على شخصه الكريم التي ورد الأمر بها في الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[2] بل أكد ذلك بنهيه عن أن يُصلُّوا عليه الصلاة البتراء، وذلك بقوله ﷺ:

«لا تصلُّوا عليّ الصلاة البتراء».

فقالوا: وما الصلاة البتراء؟.

قال ﷺ: **تقولون: «اللهم صلِّ على محمد وتمسكون بل قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد»**[3].

فقد استفدنا من مجموع ما تقدم أن الصلاة على النبي وعلى آله جزء من التشهد الذي هو جزء من الصلاة، وحيث أن جزء الجزء جزء تكون النتيجة اشتراط صحة الصلاة بضمها إلى الشهادتين واللازم الواضح، لذلك هو بطلان الصلاة إذا تجرّدت عنها، وقد مرّ التصريح بذلك في رواية أبي بصير

---

(١) مجمع البيان ج٧ ص٥٧٩ طبعة طهران ونفس المضمون ورد في تفسير نور الثقلين.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.
(٣) مختصر ينابيع المودة ص١٩.

وزرارة عن أبي عبدالله عليه السلام، حيث قال فيها: «إن الصلاة على النبي من تمام الصلاة، إذا تركها متعمداً فلا صلاة له» وهذا متفق عليه بين جميع المذاهب الإسلامية، وقد نص على ذلك الإمام الشافعي بقوله:

يا أهل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم الفخر أنكم مَن لم يصلِّ عليكم لا صلاة له

وبعد التسليم بذلك لا بد من التأمل في الوجه والحكمة التي اقتضت جعل الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم شرطاً في صحة الصلاة ليجب على المكلف أن يأتي بها فيها مع التأكيد على استحبابها في نفسها وخصوصاً عندما يؤتى على ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ضوء الروايات الكثيرة المتضمنة لترتب الثواب الجزيل على الإتيان بها في كل حال، ومع ذكر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بصورة مؤكدة وقبل بيان الوجه في اعتبارها شرطاً في صحة الصلاة، أذكر الروايات المتضمنة لبيان أهميتها وترتب الثواب العظيم عليها.

منها: قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **«مَن صلّى عليّ مرة فتح الله عليه باباً من العافية»**[1].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«مَن صلّى عليّ مرة لم يبق له من ذنوبه ذرة»**[2].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إن أقربكم مني يوم القيامة في كل موطن أكثركم عليّ صلاة في دار الدنيا، ومَن صلّى يوم الجمعة أو في ليلة الجمعة مائة مرة قضى الله له مائة حاجة سبعين من حوائج الآخرة وثلاثين من حوائج الدنيا»**[3].

ومنها: ما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام من قوله: «من لم يقدر على ما يكفِّر به ذنوبه فليكثر من الصلاة على محمد وآله فإنها تهدم الذنوب هدماً»[4].

(١ و٢ و٣ و٤) عن جامع الأخبار صفحة ٥٧ مؤسسة الأعلمي بيروت.

والبعض من الروايات التي ذكر فيها الصلاة على النبي ﷺ ولم يذكر معه آله يراد بها الصلاة على آله مع الصلاة عليه بقرينة ما تقدّم على ضوء تفسيره، وبيانه كيفية الصلاة عليه، وأنها عبارة عن الصلاة عليه مع آله، وعلى ضوء ما ورد عنه ﷺ من النهي عن الصلاة البتراء مفسراً لها بعد السؤال عن المراد منها بأنها الصلاة عليه وحده دون أهل بيته.

والرسول الأعظم ﷺ كما أكد استحباب الصلاة عليه وعلى آله كما ذكر ـ بالنهي عن الصلاة عليه دون آله ـ كذلك أكد ذلك في آية مناسبة يؤتى على ذكره فيها بالتحذير من تركها نظراً لما يترتب عليه من الشقاوة في الدنيا والآخرة.

من جملة هذه الروايات ما روي عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَن ذكرني ولم يصلِّ عليّ فقد شقي، ومَن أدرك شهر رمضان فلم تصبه الرحمة فقد شقي، ومَن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبر فقد شقي»[(١)].

وقد مرّ ذكر بعض الروايات الدالة على دخالة الصلاة على النبي ﷺ في استجابة الدعاء، وأنه يبقى معلقاً ولا يُرفع إلا مع الصلاة على النبي ﷺ، ولأهميتها في نفسها وتأثيرها في استجابة الدعاء ورد استحباب الإتيان بها قبله وأثناءه وبعده، وقد مرّ ذكر ذلك مفصّلاً حول موضوع القنوت من هذا الكتاب صفحة ١٩٣.

بيان الوجه في أهمية الصلاة على النبي وآله:

بعد بيان أهمية الصلاة على النبي وآله في نفسها ومطلوبيتها وجوباً في التشهُّد واستحباباً في غيره وخصوصاً حال ذكره ﷺ وحال الإتيان بالقنوت

(١) جامع الأخبار ص٥٧.

كما تقدم، يأتي دور بيان ما يمكن أن يكون الوجه في هذه الأهمية انطلاقاً من مبدأ الحكمة البالغة التي نؤمن باتصاف الذات الإلهية بها وعدم تجردها منها في خلق أي شيء وجعل أي حكم، والذي جال في ذهني على ضوء الاطلاع التفصيلي والمعرفة الجازمة بمدى ارتباط دور الإمامة والولاية الشرعية الثابتة لأهل بيت الرسول الأعظم ﷺ، بعده ـ بدور النبوة الثابتة له جزماً ـ باعتبار أن الإمامة امتداد لها وتمثيل لها في العصور التالية لعصره ﷺ، ليكون مستمراً برسالته العملية ودعوته السماوية، وبذلك يتحقق مضمون قوله تعالى في حقه وحق شريعته الخالدة:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

وذلك لأن رسالته السمحاء لا تكون رحمة للأجيال المتعاقبة، وفي العصور التالية لعصر النبوة إلا إذا توفر العنصر الثاني الأساسي الدخيل في تحقق هذه الرحمة وباستمرار في جميع الأعصار، وهو عنصر القيادة الشرعية القادرة على الاضطلاع بالمسؤولية الكبرى التي نهض بها الرسول الأعظم في أيامه المباركة حيث استطاع أن يُخرج الأمة من الظلمات إلى النور ويجعلها خير أمة أُخرجت للناس.

ومن المعلوم أن القيادة الشرعية القادرة على النهوض بالمسؤولية الكبرى بعد الرسول الأكرم ﷺ مقصورة على أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وأمر بإطاعتهم في سياق الأمر بإطاعته وإطاعة رسوله ﷺ كما أوجب مودتهم، وأكد الرسول ﷺ ذلك بحديثَي الثقلين والسفينة، وجاء الأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على النبي ﷺ وجوباً في التشهد بحيث يحكم ببطلان الصلاة إذا تُركت تعمداً ليكون تنبيهاً على أن سائر الممارسات العملية التي يقوم بها الفرد أو الجماعة لا تحقق الهدف

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

المقصود منها إلا إذا وقعت منسجمة مع خط أهل البيت عليهم السلام كما أن الصلاة المجردة من الصلاة عليهم تقع باطلة بإجماع الأمة.

وبذلك يعرف الوجه في الطلب الاستحبابي المؤكد الباعث للإتيان بالصلاة على آل النبي مع الصلاة عليه مطلقاً وخصوصاً في المورد الذي يؤتى فيه على ذكره أو وقت القنوت كما تقدّم.

وذلك لترتب الثواب العظيم على الإتيان بالصلاة على الرسول وآله كما تقدّم، ولأن الالتزام بهذا المستحب المؤكد بكيفيته المطلوبة، وهي الإتيان بالصلاة على الآل مع الصلاة عليه صلى الله عليه وآله، يُعمق الترابط في عالم الذهن والشعور بين دور النبوة القائدة، ودور الإمامة النائبة الرائدة، وذلك يؤكد الالتزام بامتثال الأمر بإطاعة الرسول صلى الله عليه وآله، مع امتثال الأمر بإطاعة أولي الأمر المقصود بهم الأئمة الاثنا عشر المنصوص عليهم إجمالاً في الآية الآمرة بإطاعتهم مع إطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله، وتفصيلاً في الروايات العديدة المشتملة على ذكر عددهم وأسمائهم.

التسليم نهاية للصلاة الخاصة وبداية للصلاة العامة:

التسليم الصلاتي هو الجزء الأخير من أجزاء الصلاة الذي تتم به ويحل ما كان محرماً على المصلي قبله من منافياتها والواجب منه إحدى الصيغتين:

الأولى: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

والثانية: السلام عليكم.

وإذا اقتصر المصلي على الثانية فالأحوط الأولى أن يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ويستحب الجمع بين الجملتين، وأن يقول قبلهما: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته[١].

---

(١) منقول عن المسائل المنتخبة لآية الله العظمى السيد الخوئي (قده) ص ١٣٣.

والمشهور المتعارف بين المصلين، هو الجمع بين الجملتين المذكورتين والإتيان بالسلام على النبي ﷺ قبلهما ويكون الإتيان بالمجموع كما يلي:

السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

والإتيان بالسلام الأول بأسلوب الخطاب للرسول الأعظم ﷺ بعد الصلاة عليه وعلى آله بأسلوب الغائب من أجل لفت النظر والتنبيه على أهمية الصلاة عليه بكيفيتها المعهودة بعد الشهادة له بالعبودية الخالصة والرسالة الكاملة حيث تقتضي حضوره مع آله الكرام في ذهن المصلي بصورة تفصيلية تجعلهم بحكم الحاضرين بالحضور الجسمي الحسي المادي الذي يقتضيه توجيه السلام والتحية إليه بأسلوب الخطاب الموجَّه لشخصه الكريم.

وهي تتضمن في بدايتها توجيه تحية التقدير والتكريم لشخصه العظيم وتنتهي في نهايتها إلى الدعاء له بإفاضة المزيد من الرحمة والبركة من قِبَل الله سبحانه مكافأة له على ما بذله من الجهد المشكور في سبيل تبليغ الرسالة وإخراج الأمة من الظلمات إلى النور حتى أصبحت بهذا الإخراج الحضاري خير أمة أُخرجت للناس.

وبعد السلام على الرسول ﷺ بالصيغة المذكورة، يسلّم المؤمن على نفسه وعلى عباد الله الصالحين، ويختم بالسلام على الملائكة الحافّين به يصلُّون بصلاته ويؤمنون على دعائه بطلب الرحمة لهم والبركات مكافأةً على ما قاموا ويقومون به من حفظه من بين يديه ومن خلفه يقونه العثرات ويسددونه في الطاعات[١].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث أنه قال:

---

(١) عن مفتاح الخلاص بالمضمون المختصر صفحة ٣١٢.

«معنى السلام الأمان، أي مَن أدّى أمر الله وسنّة نبيه ﷺ خالصاً للّه خاشعاً فيه فله الأمان من بلاء الدنيا وبراءة من عذاب الآخرة»[1].

وروي عن عبدالله بن الفضل أنه قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن معنى التسليم في الصلاة فقال: عليه السلام

«التسليم علامة الأمن وتحليل الصلاة».

قلت: وكيف ذلك جُعِلْت فداك؟ قال عليه السلام:

«كان الناس فيما مضى إذا سلّم عليهم وارد أمنوا شره، وكانوا إذا ردُّوا عليه أمن شرهم، وإن لم يسلّم لم يأمنوه، وإن لم يردُّوا على المسلم لم يأمنهم، وذلك خلق في العرب فجعل التسليم علامة على الخروج من الصلاة، وتحليلاً للكلام، وأمناً من أن يدخل في الصلاة ما يفسدها، والسلام اسم من أسماء الله عزّ وجل، وهو واقع من المصلي على الملكين الموكلين»[2].

وروي عن المفضل بن عمر الجعفي أنه قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن العلة التي من أجلها وجب التسليم في الصلاة، قال:

«لأنه تحليل الصلاة» قلت: فلأي علة يُسلم على اليمين ولا يُسلم على اليسار؟.

قال: «لأن الملك الموكل الذي يكتب الحسنات على اليمين والذي يكتب السيئات على اليسار، والصلوات حسنات ليس فيها سيئات فلهذا يسلم على اليمين دون اليسار» قلت: فلمَ لا يقال: السلام عليك والملك على اليمين واحد ولكن يقال: السلام عليكم؟.

قال: «ليكون قد سلّم عليه وعلى مَن على اليسار وفضل صاحب اليمين عليه بالإيماء إليه» إلى أن قال:

---

(١) مفتاح الخلاص نقلاً عن البحار ج٨٢ ص ٣٠٧ وعن المحجة البيضاء ج١ ص٣٩٤.

(٢) الوسائل ج٤ ص١٠٠٦.

قلت: فلمَ صار تحليل الصلاة التسليم؟.

قال: «لأنه تحية الملكين، وفي إقامة الصلاة بحدودها وركوعها وسجودها وتسليمها سلامة للعبد من النار وفي قبول صلاة العبد يوم القيامة قبول سائر أعماله فإذا سلمت له صلاته سلمت جميع أعماله، وإن لم تسلم له صلاته رُدّت عليه ورُدّ ما سواها من الأعمال الصالحة»[١].

الدروس التربوية المستفادة من التسليم الصلاتي:

حيث أنّا بنينا الحديث في هذا الكتاب على أساس محاولة التحليل والنظر بعين البصيرة إلى أعماق الصلاة على أمل استجلاء ما يمكن استجلاؤه من أسرار واستيحاء ما يتسع المجال لاستيحائه من الدروس التربوية التي تنطلق مع المؤمن المصلي في رحاب الحياة الواسعة من أجل أن تصبغ جميع تصرفاته التي يمارسها على صعيد هذه الحياة بلونها الجميل وتبعث فيها روحها الطاهرة لتحركها في خط الهدف الكبير الذي شرعت الصلاة من أجله وهو نهيها للمصلي عن الفحشاء والمنكر وانتهاؤه بهذا النهي عن كل ما يبعده عن الله سبحانه ورحمته في دنياه وآخرته، وبذلك يُصبح كل عمل راجح في نفسه وصادر من فاعله بإرادته وبقصد التقرب به إلى الله تعالى، صلاة يتقرب بها إليه زلفى كما تصبح كل أرض يمارس ذلك العمل فوقها مسجداً عاماً ومعبداً شاملاً يعبد الله فيه ويتعبّد له بتضرُّع وانقياد.

وتلك هي العبادة بمعناها العام التي اعتبرها الله سبحانه العلة الغائبة الداعية لخلق هذا الكون كله بما فيه الإنسان حيث قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢].

---

(١) الوسائل ج٤ ص١٠٠٥ ح١١.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

دور الصلاة الإصلاحي في حياة الفرد:

وعندما تتحرك الصلاة في طريق هدفها الكبير وتتحرر من قيودها المعلومة وصورتها المعهودة لتنطلق في سبيل إدراك هذا الهدف الذي شُرعت من أجله، فأول ساحة تصل إليها بأول خطوة تخطوها نحو ذلك الهدف هي ساحة نفس المصلي من أجل أن تقوم بدور البناء والإصلاح بدفعها نحو ما يجب عليها أن تقوم به نحو ذاتها من واجبات نافعة ومستحبات تزيدها انتفاعاً وارتفاعاً مع منعها من كل ما حرم الله عليها مما يضرها ويحطمها معنوياً ومادياً دنيوياً وأخروياً.

وقيام الصلاة بهذين الدورين الخطيرين، وهما دور الدفع نحو ما ينفع ويرفع ودور المنع مما يضر ويضع هو ما عناه الله سبحانه بقوله:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1] لأن نفس الطاقة والروح التي تقتضي نهيها ومنعها عن الفحشاء والمنكر تقتضي أيضاً دفعها نحو المعروف والعدل والإحسان والفضيلة.

وبهذا تكون الطاقة الصلاتية التي توجد فيها وتولد معها عندما تصدر من المؤمن المصلي بوعي وإدراك لهدفها الكبير مصداقاً لصفة العدالة التي تتجمّل بها نفس المؤمن وتقتضي بطبعها الدفع نحو ما يفيد ويرفع من صالح الأعمال وصفات الكمال والمنع من ضد ذلك.

دور الصلاة الإصلاحي في إطار الأسرة:

وبعد أن تتجاوز الصلاة برحلتها الإصلاحية ساحة نفس الفرد تصل إلى ساحة الأسرة لتتحرك في إطارها، وتحرك المصلي ليقوم بما يجب عليه ويستحب له من صالح الأعمال، وما يطلب منه من التجمُّل به من جميل الخصال.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

وحيث أن الأسرة غالباً تتكون ابتداء من الزوجين، وبعد ذلك تتسع لتصبح مشتملة على الأولاد مع الأبوين عندما يوفق الله سبحانه الزوجين لأن ينجبا ويصبحا أبوين، وقد ينضم إلى هذه الأفراد في بعض الظروف والدا الأبوين أو أحدهما فتتسع دائرةُ المسؤولية، وتأتي الصلاة الواعية الهادفة لتحرك المصلي نحو القيام بما يُطلب منه نحو كل فرد من أفراد هذه الأسرة فيقوم الزوج بما يُطلب منه من الحقوق نحو الزوجة، وكذلك هي تقوم بذلك نحو زوجها ويقوم الأبوان بذلك نحو الأبناء، وكذلك الأبناء نحو الأبوين وبذلك يصبح المنزل الذي تُقيم فيه هذه الأسرة وتقوم بما يطلب من كل فرد منها نحو الآخر مسجداً تؤدى فيه الصلاة بمعناها العام الذي هو العبادة بمفهومها الشامل المنطبق على كل عمل راجح في نفسه وصادر من فاعله بقصد التقرب إلى الله سبحانه.

وقد ينضم إلى أفراد الأسرة فرد إضافي ليعيش معها ويصبح جزءاً معنوياً منها، وتأتي الصلاة بروحها الطاهرة، وقلبها النابض بالحيوية والشعور بالمسؤولية نحو هذا الفرد الجديد لتعامله بالرفق والإحسان والعطف والحنان فلا تكلفه فوق طاقته وقدرته ولا تقابله بما يجرح شعوره ويمس كرامته من الكلام المثير الجارح وإذا كان العمل الذي كلف به مقتضياً بطبعه مقداراً من المشقة والمعاناة فهم يتعاونون معه ويعينونه على القيام بوظيفته، ولا يميزون أنفسهم ويفضلونها عليه بما يتناولونه من الطعام والشراب ونحوهما من الحاجات الحياتية المادية بل يطعمونه مما يأكلون ويسقونه مما يشربون ليحس بأنه أصبح جزءاً من كيانهم وفرداً من أسرتهم، وبذلك يكونون قد شكروا الله سبحانه على ما تفضّل به عليهم وأحسن إليهم من نعمة اليسر والسعة في الرزق التي تمكنهم من الاستعانة بالآخرين لتحقيق مطالبهم وتجعلهم مخدومين من قبل غيرهم وتدفع عنهم الاحتياج لأن يكونوا خادمين له.

ونتيجة هذا الشكر العملي هي زيادة النعمة لقوله تعالى:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1] ودوامها ودفع البلاء، وقد أبرم إبراماً.

وهذه جوائز معجلة يقدمها الله المنعم للناجحين في امتحان النعمة بصرفها في سبيل إطاعته، وترك صرفها في طريق معصيته، وأما الجوائز المؤجلة ليوم الحساب والمجازاة فهي ما وعد به في كتابه الكريم وسنّة نبيه العظيم وأحاديث أهل بيته الطاهرين.

وحيث أن الرسول الأعظم ﷺ وكل واحد من عترته المعصومين يمثل القرآن الناطق والإسلام العملي المتحرك، فقد رسموا لنا النهج العملي العادل، والقدوة الحسنة من أجل أن نقتدي بهم في كل التصرفات، وفي مختلف المجالات وخصوصاً مجال الأسرة، ولا سيما بالنسبة إلى الفرد الإضافي المملوك أو الخادم.

وقد تناولت الكتب الإسلامية الحديث مفصلاً حول موضوع الأسرة في الإسلام، وذكرت ما يُطلب من كل فرد من أفرادها نحو الآخر.

وتأتي رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام لتكون في الطليعة بين هذه الكتب حيث بيّن فيها الحقوق الثابتة لكل فرد من أبناء المجتمع على غيره في إطار الأسرة وغيرها.

دور الصلاة الإصلاحي في إطار المجتمع:

وبعد أن تخرج الصلاة من إطار الأسرة وتدخل في رحاب المجتمع فأول فرد تطلب من صاحبها أن يؤديه حقه الشرعي والأخلاقي هو الجار، وبعده يأتي دور الأخ في الإسلام، والإيمان لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2]، وبعده الأخ في الإنسانية لأن الإنسان أخ الإنسان أحبَّ أم كره،

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

كما ذكر الرسول الأعظم ﷺ، وأكده الإمام علي عليه السلام بقوله في عهده لمالك الأشتر ما حاصله: «الناس صنفان إما أخ لكَ في الدين أو نظير لك في الخلق».

وهكذا تتسع نظرة الإسلام إلى الكون والحياة والإنسان لتجعل من الكون كله ـ على امتداده وسعته وتنوعه ـ أسرةً واحدةً تلتقي في المصدر الواحد، وهو الله سبحانه فاطر السموات والأرض، وبالهدف الواحد، وهو الخضوع العام القسري للإرادة الإلهية التكوينية من أجل أن يقوم كل مخلوق بدوره الذي خلقه الله من أجله ويشترك الإنسان مع غيره من المخلوقات في هذا الكون بلحاظ الجانب المادي منه كما تقدم بيانه في بعض أبحاث هذا الكتاب ويفترق عنها بلحاظ الجانب المعنوي المتمثل بالعقل والإرادة والاختيار، والقدرة على امتثال التكاليف الموجهة إليه من قبل الله سبحانه من أجل أن يحقق الغاية الأساسية التي خلقه من أجلها، وهي عبادته بالخضوع الاختياري لإرادته التشريعية ليتوصل بذلك إلى ما أراد سبحانه وصوله إليه وحصوله عليه بهذه العبادة، وهو الكمال والسعادة في الدنيا والآخرة.

وبالخصوصيات المذكورة التي تميز بها عن غيره وبما أودع الله فيه من الطاقة الجبارة والقدرة على الخلق والإبداع، كان خليفة الله في هذا الكون وسيده المستحق للاحترام والتكريم الذي صرح الله به في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا﴾(١).

وترجمه أيضاً بأمر الملائكة بالسجود له سجود احترام وتكريم بقوله تعالى:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

والذي يؤكد في نظر المؤمن المصلي وجود الوحدة الكونية التي تلف في إطارها الواسع جميع موجودات هذا الكون هو ما يفهم من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من وجود الرعاية الإلهية الشاملة للجميع بالتربية التكوينية العامة والإدارة الإلهية الحكيمة، ولهذا وذاك فهو لا يحس بالغربة والوحدة والاستقلال عن موجودات هذا العالم حتى ولو قُدِّر له يوماً أن يعيش في مكان خال من الآخرين ممن يتجاوب معهم فكرياً وروحياً ما دام مؤمناً بأن الله معه يرعاه ويراقبه، وأن موجودات هذا الكون هي أخوة له بالأخوة الوجودية العامة بلحاظ صدور وجودها كلها من مصدر الوجود الواحد والخالق المبدِع.

وبعد هذه الجولة الفكرية التي انطلقنا بها في ظلال الصلاة وأبعادها العميقة، وأهدافها السامية الشاملة نحتاج إلى الرجوع للحديث حول (السلام) لنبين ما يمكن أن يُستلهم منه بعنوانه الشامل من الدروس التربوية المستهدفة من الصلاة بشكل عام ومن جزئها الأخير بصورة خاصة فأقول:

إن ما ذكرناه من الآثار الإيجابية والدروس التربوية المترتبة على الصلاة الواعية الصادرة من المصلي بدافع امتثال أمرها وتحقيق الهدف العام المقصود منها في إطار الفرد والأسرة والمجتمع ينسحب على جزئها الأخير ـ السلام ـ لأن جزئيته منها وارتباطه بها يقتضي أن يكون عضواً حياً مشتركاً مع بقية أعضاء الصلاة الأساسية في ترتب الهدف المقصود منها.

وتوضيح ذلك باختصار أن الصلاة الواعية الهادفة التي تتحرر من قيود الشكل والصورة لتنطلق في ميدان الهدف الكبير تكون الساحة الأولى التي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

تتحرك فيها لتحصيل الهدف هي ساحة نفس الفرد وبعدها ساحة الأسرة وبعدها ساحة المجتمع كما بيّنّا ذلك آنفاً.

وحيث أن تحقق الغاية المنشودة منها في المجالات الثلاثة يترتب عليه ظفر كل واحد من الفرد والأسرة والمجتمع ـ بما ينفعه ويرفعه ـ وسلامته مما يضره ويضعه، صحّ أن ينسب ذلك الظفر وتلك السلامة إلى (السلام) بما أنه الجزء الأخير المتمم للصلاة شكلاً وصورة والمساعد على حصول هدفها المقصود منها.

ففي إطار الفرد تسبب له الصلاة الكاملة المشتملة على جزئها الأخير وهو (السلام الصلاتي) بناء شخصيته لتصبح شخصية رسالية مثالية تؤمن بالمبدأ الحق، وهو الله الواحد الأحد، وبالهدف الحق الذي أوجدها من أجله وهو عبادته وحده لا شريك له من أجل أن تتوصل بهذه العبادة إلى الكمال والسعادة، كما أنها تؤمن بالمصير الحق فتقوم بكل ما ينفعها ويرفعها يوم وصولها إليه مهما كلفها ذلك من تضحيات غالية لأن الهدف أعلى وأغلى، وبذلك تنال السلامة في الدنيا من أخطار المخالفة والانحراف عن جادة العبودية الحقة.

ونفس الشيء يقال بالنسبة إلى الأسرة والمجتمع لأن سلوك سبيل الاستقامة يؤدي بطبعه إلى السعادة والسلامة، وكل أنواع الشقاء والتعب والعناء إنما نشأت بسبب مخالفة نظام سير السماء الأمر الذي أدى إلى حصول الحوادث واصطدام سيارات الأفراد والمجتمع وقد أشار الله سبحانه إلى ذلك بصريح قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٢].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤١.

هذا كله إذا أريد من كلمة السلام معنى الأمان والسلامة وبهذا المعنى كان أحد أسماء الله الحسنى.

وإذا أريد معناه الآخر، وهو الظاهر من كلمة السلام يكون المراد من السلام الأول، وهو السلام على النبي محمد ﷺ تقديم تحية التقدير والإجلال لشخصه العظيم لما قام به وتحمله من التعب والمشقة الشديدة في سبيل نشر الدعوة الإسلامية من أجل أن يخرج بها الناس من الظلمات إلى النور، وينطلق بهم في درب الحضارة والتقدم في جميع المجالات ومن جميع الجهات.

ويقصد بالسلام الثاني توجيه التحية والاحترام لنفسه ولإخوانه المؤمنين من عباد الله الصالحين، ويقصد بتوجيهها لنفسه أنه احترمها بوضعها في موضعها اللائق بها، وهو موضع العبودية لله سبحانه والانقياد لإرادته الحكيمة بكل تصرفاته الاختيارية المحققة للغاية المقصودة من خلقه، وهو في الوقت نفسه لا يستغرق في ذاته وينسى سواه من إخوانه في الإيمان بل يلتفت إليهم وينفتح عليهم بتقديم التحية والسلام إليهم ثم يختم التحيتين الأولى والثانية بالتحية الثالثة التي يوجهها إلى ملائكة الله المقربين الحافين به والقائمين بالمهمة الموكلة إليهم بالنسبة إليه قائلاً:

(السلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

والمؤمن الواعي الذي أدرك فلسفة الصلاة وعاشها حين الإتيان بها خشوعاً وخضوعاً يبقى في أجوائها العبادية ونفحاتها الروحية لذلك يفشي السلام بكلا معنييه في أجواء أسرته حيث يبدأهم بالسلام أول رجوعه إليهم بعد غيابه عنهم لأي سبب اقتضى ذلك، ويقرأ سورة التوحيد ثلاث مرات عملاً بالمستحب، ونيلاً للثواب المترتب على ذلك وتحصيلاً للسعة في الرزق، ويضم إلى سلام التحية السلامَ الأمني فلا يسبب الضرر ولا يثير الرعب في نفس أي فرد من أفراد أسرته وغيرهم، وهكذا ينطلق في رحاب

المجتمع الكبير، وهو يعيش سلام التحية والاحترام وسلام الأمن والإحسان، فلا يصدر منه إلا ما ينسجم مع طبيعة رسالته السمحاء ومع صلاته التي يتصل بواسطتها بخالقه العظيم ويعيشها معه حين الإتيان بها خشوعاً وتضرُّعاً ليعيشها بعد ذلك مع خلقه بالعطف والحنان والبر والإحسان وبصدق الحديث وأداء الأمانة ومعاملتهم بما يُحب أن يعاملوه به وترك التعامل معهم بما يكره أن يتعاملوا به معه، وبذلك يكون قد ترجم أهداف الرسالة الإسلامية بصورة عامة وأهداف الصلاة بصورة خاصة، وأثبت مصداقيته لعنوان المسلم الواقعي والمصلي الحقيقي الذي أدرك جوهر الإسلام وفلسفة صلاته وحقق الهدف السامي المقصود من تشريع أحكامه بصورة عامة ومن تشريعها بصورة خاصة.

وبذلك يكون قد أدى سلام التحية وحقق سلام الأمن والسلامة لأن تطبيق الأحكام الشرعية على الصعيد العملي يكون تحية احترام للرسول الأعظم ﷺ ورسالته الخالدة وللنفس والمؤمنين والملائكة المقربين بلسان العمل والممارسة، وهو أوضح وأفصح من تحية القول والكلمة، ولذلك أمر الله سبحانه آل داود ودعاهم إلى الشكر العملي بقوله:

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾(١) ولم يكتفِ بالشكر القولي منهم.

وسلام التحية يكشف عن تحقق سلام الأمان في مرتبة سابقة عليه عندما يكون تحية حقيقية واحتراماً واقعياً لما ذكرنا من أن سلام القول والكلمة لا يكون تحيةً حقيقيةً إلا إذا اقترن بتحية العمل وسلام التطبيق.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

الفصل الثالث

معقود للحديث حول التعقيبات المستحبة

بعد الفراغ من الحديث حول سلام الصلاة بما ذكرنا يأتي دور الحديث حول التعقيبات المستحبة التي ورد استحبابها في الروايات المعتبرة، وهي كثيرة وسأقتصر على ذكر أهمها وأكثرها ثواباً، وهناك تعقيب عام لا ينحصر القيام به في زمان معين ومكان محدد، وهو متمم لأصل فعل الصلاة ولما يؤتى به بعدها من التعقيبات الخاصة وسأشير إليه وأنبه عليه بعد الفراغ من ذكر التعقيبات الخاصة كما أن هناك أموراً مبغوضة لله سبحانه ومؤثرة على قيمة الصلاة وقبولها بحيث تجعلها بحكم المعدومة، وهي كثيرة لا مجال لذكرها، لذلك رجحت الاقتصار على ذكر بعضها الأهم، وذلك من أجل أن يكون المصلي على بصيرة من أمر صلاته فلا يقتصر على التعقيبات الخاصة ويهمل العامة الهامة المتممة لها، وكذلك لا يرتكب تلك الأمور المبغوضة المؤدية لإحباط ثواب صلاته ومنعها من الوصول إلى ساحة الرضا والقبول المقرب من الله ورحمته ورضوانه ومغفرته وعلى هذا سيكون ختام الحديث عن الصلاة في ثلاثة محاور:

الأول: نتحدث فيه حول التعقيبات الخاصة.

الثاني: نتحدث فيه حول التعقيب العام الهام.

الثالث: نتكلم فيه حول الأمور المبغوضة لله سبحانه المؤدية لسقوط قيمة

الصلاة واحتراق ثوابها وبطلان أثرها المنشود منها في حاضر الدنيا ومستقبل الآخرة.

ومن أجل أن يكون ختام الختام مسكاً رجحت التحدث حول موضوع حيوي هام بالنسبة إلى الصلاة خاصة وبالنسبة إلى جميع أحوال المؤمن عامة وهو موضوع حضور الذهن وخشوع النفس أثناء الصلاة بدرجة قوية من الحضور والخشوع لتبقى ملازمة له ومنطلقة معه من أجل أن تبعث روح الصلاة وخشوعها في كل عمل يمارسه بإرادته على صعيد هذه الحياة، وبذلك تتحقق فلسفة الصلاة والغاية الأساسية المقصودة منها كما تتحقق العبادة بمعناها العام الذي جعله الله سبحانه الغاية الداعية لخلق الكون بما فيه ومَن فيه وخصوصاً الإنسان.

التعقيبات الصلاتية الخاصة:

ونبدأ بالتعقيبات الخاصة التي ورد استحباب الإتيان بها بعد كل فريضة من فرائض الصلاة واقتصرت على نقل ما ذكره العلامة حجة الإسلام والمسلمين المرحوم المقدس السيد محسن الأمين في الجزء الأول من مفتاح الجنات وذلك لكونها مشهورة مع كون الكتاب ومؤلفه محل العناية والاحترام من قبل أهل العلم والفضل، قال (رحمه الله): (الفصل السابع عشر[1] في التعقيب المشترك بين جميع الفرائض) والظاهر استحبابه أيضاً بعد النوافل أيضاً، وبعد الفرائض آكد، وقد ورد أنه أبلغ في طلب الرزق من الضرب في البلاد ومن عقب فهو في صلاة.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «مَن صلّى فريضة وعقب إلى أخرى فهو ضيف الله وحق على الله أن يكرم ضيفه».

وبعد أن ذكر السيد (رحمه الله)، ذلك بدأ بذكر التعقيبات المستحبة بعد

(١) الجزء الأول من مفتاح الجنات للمرحوم المحسن الأمين ص٨٥ إلى ٩٠.

الصلاة فقال: وهو ـ أي التعقيب المستحب ـ (الله أكبر) ثلاث مرات، رافعاً بكل واحدة منها يديه إلى شحمتَي أذنيه ثم يقول: (لا إله إلا الله إلهاً واحداً، ونحن له مسلمون، لا إله إلا الله ربنا ورب آبائنا الأولين، لا إله إلا الله لا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره المشركون، لا إله إلا الله وحده وحده وحده، أنجز وعده ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده فله الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، ويميت ويحيي، وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير).

فعن النبي ﷺ **«مَن كبّر ثلاثاً عقيب كل مكتوبة، وقال ذلك فقد أدى حقه من شكر الله تعالى على تقوية الإسلام وجنده»**.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: قال جبرائيل لرسول الله: «طوبى لمَن قال من أمتك: لا إله إلا الله وحده وحده ثم يقول: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثم يقول: اللهم اهدني من عندك وأفض عليّ من فضلك وانشر عليّ من رحمتك وأنزل عليّ من بركاتك، فمَن واظب عليه فتح الله له ثمانية أبواب من أبواب الجنة، يدخل من أيها شاء.

ثم يقول: سبحانك لا إله إلا أنت اغفر لي ذنوبي كلها جميعاً فإنه لا يغفر الذنوب كلها جميعاً إلا أنت.

ثم يقول: اللهم إني أسألك من كل خير أحاط به علمك، وأعوذ بك من كل شر أحاط به علمك، اللهم إني أسألك عافيتك في أموري كلها، وأعوذ بك من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، وأعوذ بوجهك الكريم وعزتك التي لا تُرام، وقدرتك التي لا يمتنع منها شيء من شر الدنيا والآخرة، وشر الأوجاع كلها، وشر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم يقول: توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن لهُ ولي من الذل وكبره تكبيراً».

تسبيح الزهراء كيفيته وفضله وثوابه:

ثم تابع المرحوم الأمين (قده) قوله وهو يذكر بقية التعقيبات المستحبة بعد الصلاة فقال: ثم تسبح تسبيحة الزهراء عليها السلام، وهو أفضل التعقيب وصورته: (الله أكبر) أربعاً وثلاثين مرة (الحمد للّه) ثلاثاً وثلاثين مرة (سبحان الله) ثلاثاً وثلاثين مرة.

فعن الإمام الباقر عليه السلام: «ما من عبدٍ عبد الله بشيء من التمجيد أفضل منه أي من تسبيح الزهراء «ولو كان شيء أفضل لنحله رسولُ الله فاطمةَ عليها السلام».

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «مَن سبّح تسبيح الزهراء قبل أن يثني رجليه من صلاة الفريضة غفر الله له».

وعنه عليه السلام: «إنا نأمر صبياننا بتسبيح الزهراء عليها السلام كما نأمرهم بالصلاة فالزمه فإنه لم يلزمه عبد فشقي».

وعنه عليه السلام: «تسبيح فاطمة الزهراء في كل يوم دبر كل صلاة أحب إليّ من صلاة ألف ركعة في كل يوم».

وورد أنه من الذكر الكثير الذي قال الله تعالى فيه:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا﴾(١).

ثم تقول: لا إله إلا الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾(٢).

لبيك اللهم لبيك، وسعديك، اللهم صلِّ على محمد وآل بيت محمد، وعلى ذرية محمد عليه وعليهم السلام ورحمة الله وبركاته، وأشهد أن التسليم منا لهم والائتمام بهم والتصديق لهم، ربنا آمنا بك وصدقنا رسولك وسلمنا تسليما، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول وآل الرسول فاكتبنا مع الشاهدين.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤١.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

ثم تقول: اللهم إني أسألك أن تصلي على محمد وآل محمد، وأسألك خير ما أرجو، وخير ما لا أرجو، وأعوذ بك من شر ما أحذر، ومن شر ما لا أحذر.

ثم تقول ثلاثاً: اللهم إني أسألك العفو والعافية والمعافاة في الدنيا والآخرة.

ثم تقول للخلاص من الضيق مرة أو ثلاثاً: اللهم صلِّ على محمد وآل محمد واجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، وارزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب.

ثم يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ اثنتي عشر مرة، ثم يبسط يديه ويرفعهما إلى السماء، ويقول: «اللهم إني أسألك باسمك العظيم، وسلطانك القديم، يا واهب العطايا، ويا مطلقَ الأسارى، يا فكاك الرقاب من النار، أسألك أن تصلي على محمد وآل محمد، وأن تعتق رقبتي من النار، وأخرجني من الدنيا سالماً، وأدخلني الجنة آمناً، وأن تجعل دعائي أوله فلاحاً، وأوسطه نجاحاً، وآخره صلاحاً، إنك أنت علاّم الغيوب.

ثم يقرأ الحمد وآية الكرسي وآيتَي الملك: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[(١)].

وهناك تعقيبات أخرى كثيرة ذكرها المرحوم المحسن الأمين في كتابه الجليل الجزء الأول من مفتاح الجنات آثرت عدم ذكرها رغبة في الاختصار والاقتصار على المقدار الوسط من التعقيب، وبإمكان القارىء الكريم الرجوع إليها والاستفادة منها عندما تسمح له الفرصة بذلك.

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٢٦ و٢٧.

التعقيب العام المتمم للتعقيب الخاص:

بعد الوفاء بالوعد بذكر ما اتسع المجال لذكره من التعقيبات الخاصة يأتي دور الوفاء بالوعد الآخر بذكر التعقيب العام المتمم للتعقيب الخاص لأنه يمثل الثمرة اليانعة المقتطفة من شجرتها الطيبة فنقول ومنه سبحانه نستمد العون والتوفيق:

إن التعقيبات الخاصة المستحبة تعتبر بمنزلة الجزء من الصلاة المفروضة الذي يؤتى به في آخرها كالتسليم، ومن هنا تأخذ حكمها وتشاركها في الدور الإيجابي، والأثر العملي المقصود ترتبه عليها واستفادته منها، ولذلك تكون مصاحبة لها، ومنطلقة معها بالأثر والتأثير على السلوك العام لمقيم فريضة الصلاة، فكما أن روح هذه الفريضة والغاية المقصودة منها، لا تقف عند حدود الزمان والمكان اللذين أُديت فيهما بل هي تتجرد من قيودهما وتتجاوز حدودهما لتنطلق مع المؤمن المصلي بوعي في دروب الحياة، ومسالك الزمن من أجل أن تصبغ كل تصرفاته الاختيارية بلونها الجميل، وتجعل منها صلاةً واعية تصل بين المخلوق العابد وخالقه المعبود برباط العبودية الخالصة المخلصة لتصل بعد ذلك بين أفراد المجتمع البشري بعلاقة المحبة والوئام والتعاون على تحقيق المصالح المشتركة، كذلك روح التعقيبات تنطلق مع روح الصلاة نحو الهدف المشترك، والتقاء روح التعقيبات الخاصة بروح الصلاة التي يؤتى بها(١) عقيبها وتعانق هاتين الروحين بعد ذلك لتنطلقا معاً جنباً إلى جنب مع المؤمن المصلي من أجل أن يبقى في حالة صلاة خاشعة بين يدَي الله سبحانه، وفي محراب الحياة الواسع.

أجل: إن هذا التلاقي بين روح الصلاة وروح تعقيباتها والتعانق الودي

---

(١) أي بالتعقيبات الخاصة.

بين هاتين الروحين هو التعقيب العام المتمم للتعقيب الخاص الواقع بعد الصلاة الخاصة.

ولتوضيح ذلك بشيء من التفصيل المختصر نقول:

إن التعقيبات الخاصة التي تتمثل بما يقوم به المصلي بعد صلاته من تلاوة بعض السور والآيات القرآنية وقراءة بعض الأدعية والأذكار المستحبة ومن جملتها تسبيح الزهراء عليها السلام لم يكن طلب التعقيب بها بعد الصلاة إلا من أجل أن تقوى روحها وتؤكد حصول الهدف الكبير المقصود منها، فإذا ترتب عليها هذا الأثر وتحقق بها ذلك الهدف، وهو هدف التقوية المساعدة على حصول هدف الصلاة الكبير كان ذلك تعقيباً عاماً غير مقصور على زمان الصلاة ومكان إقامتها بل يشمل كل مكان وزمان يمارس فيهما المؤمن المصلي نشاطه العملي المنسجم مع إرادة السماء، ومن المعلوم أن هذا التعقيب لا ينال صفة العمومية والشمول إلا إذا كان الإتيان بتلك التعقيبات الخاصة مقترناً بالتدبر والالتفات الواعي لمضامين ما يعقب به المصلي من السور والآيات والأذكار والأدعية من أجل أن يحصل التفاعل والانفعال الإيجابي بها، وبذلك تنتقل تلك المضامين المربية من طي الكلمات والعبائر إلى داخل العقول، والمشاعر لتؤثر فيها وعياً تحرك به صاحبه في طريق التقوى والاستقامة والكمال والفضيلة، ولأهمية التفكر الواعي والتدبر المنفتح على ساحة الواقع، فقد ورد الأمر بهما والحث عليهما من أجل استيحاء العقيدة الصحيحة من التفكر في آيات الكتاب التكويني الفسيح مع التدبر والتأمل في مضامين آيات الكتاب التشريعي الفصيح، والعمل بتلك العقيدة والسير على ضوء هداها في سبيل تحقيق الغاية الكبرى المقصودة من خلق الإنسان، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وبذلك يعرف أن التفكير المنطقي هو الوسيلة لتحصيل العقيدة الراسخة والقيام بالعبادة الصحيحة بمعناها العام الشامل لكل التصرفات الاختيارية التي يمارسها المكلف بإرادته

وفق إرادة الله سبحانه، كما أنه الوسيلة للقيام بتلك التعقيبات، وتحقيق الغاية المقصودة منها، وهي تقوية روح الصلاة لتتحرك مع المؤمن المصلي وتحركه نحو الهدف الأسمى الذي خُلق من أجله.

وبإهمال فريضة التفكير المثمر يترتب عدم الإيمان أو ضعفه، وهما يشتركان في النتيجة ويتشابهان في المصير والنهاية لأن النتيجة المترتبة على عدم الإيمان هي عدم العمل والمترتبة على ضعفه، إما عدم العمل أصلاً لفقد الباعث القوي المحرك أو حصول صورة العمل وشكله المجرد من روح الغاية المنشودة من طلبه، وهذا هو السر في عدم ترتب الهدف المقصود من العبادات الخاصة فالصوم لا يثمر التقوى المقصودة من تشريعه، وكذلك الصلاة والحج ونحوهما لا تثمر الغاية المذكورة، وهي التقوى والعمل الصالح، وكذلك التعقيبات المأتي بها بعدها فهي تكون مثلها من جهة وقوعها فاقدة للروح والجوهر لتصبح بحكم المعدومة، ويظهر ذلك جلياً في سيرة البعض الذين يثابرون، ويهتمون بتلك التعقيبات وغيرها من المستحبات ومع ذلك يشاركون الآخرين الذي لا يأتون بشيء من الواجبات فضلاً عن المستحبات، أو يأتون بهذه، وتلك ولكن تصرفهم الخارجي وسلوكهم الاجتماعي بعيد كل البعد عن روح الإسلام وتعاليمه القيِّمة ومُثُله السامية، وإلى هؤلاء أشار الرسول الأعظم ﷺ بقوله المشهور: «**رُبَّ صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش، وقائم ليس له من قيامه إلا التعب والسهر**».

وإليهم أشار فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة أبو العلاء المعري بقوله:

صل وصم وطف بمكة ناسكا   سبعين لا سبعاً فلست بناسك
جهل الديانة مَن إذا عرضت له   أهواؤه لم يُلف بالمتماسك

وخلاصة الحديث حول موضوع التعقيب العام هو أن التعقيب الخاص الذي يقوم به المصلي بعد فراغه من فريضة الصلاة ليس مطلوباً لذاته وصورته بل لغاية سامية وهدف رفيع يلتقي مع الهدف الكبير المقصود من الصلاة

نفسها، وهو تحصيل ملكة التقوى التي تبقي صاحبها على حالة صلة بالله وصلاة له بالمعنى العام للصلاة والعبادة، وهو الانقياد الكلي والخضوع المطلق لإرادة الله سبحانه بكل عمل يمارسه بإرادته أو ترك يصدر منه باختياره وفق إرادة الله واختياره.

وجوب حفظ الحسنات من إحراقها بنار السيئات:

كما ذكرنا التعقيبات التي يحصِّل بها المصلي المزيد من الحسنات مضافاً إلى ما يحصِّله منها بإتيانه أصل الصلاة، يترجح ذكر بعض التصرفات المنافية لروح العبادة وجوهر الصلاة والمؤدية بسبب ذلك لإتلاف وإحراق ما حصَّله من الثواب الجزيل بأعماله الصالحة وخصوصاً الصلاة وتعقيباتها، وبذلك يرجع إلى نقطة الصفر، وكأنه لم يصنع شيئاً مذكوراً، وتترتب على ذلك نتيجة سلبية خطيرة ومصيبة كبيرة، وهي:

أولاً: حرمانه من الجنة ونعيمها الخالد ورضوان الله الأكبر.

وثانياً: دخوله سجن جهنم المعدة للعصاة المنحرفين عن نهج السماء، إما بالإيمان والعقيدة، أو بالسلوك والممارسة، وقد أشار الله سبحانه إلى المصيرين في العديد من آيات كتابه الكريم وهما: مصير المؤمن المتقي ومصير الكافر أو المنافق الشقي.

من تلك الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾[1].

(١) سورة النبأ، الآيات: ٢١ ـــ ٣٦.

بعض الصلوات المستحبة:

هناك صلوات مستحبة بدرجة عالية من الاستحباب، لذلك آثرت ذكرها في آخر هذا الكتاب تتميماً للفائدة واقتصرت على ذكر هذا النوع منها لضيق المجال عن غيره، وهو موجود في كتب الأدعية والأذكار المعهودة، من تلك الكتب: مفاتيح الجنان للقمي (قده)، ومفتاح الجنات للمرحوم الأمين (قده)، وضياء الصالحين للجوهرجي (قده)، ولنبدأ بصلاة الليل.

صلاة الليل

وهي كما ورد في مفتاح الجنات ج١ صفحة ٧٥ وضياء الصالحين صفحة ١٠ الطبعة الجديدة، إحدى عشر ركعة ثمان ركعات صلاة الليل، وركعتا الشفع وركعة الوتر ووقتها بعد انتصاف الليل إلى طلوع الفجر الصادق وأفضله السحر، وهو الثلث الأخير من الليل وأفضله القريب من الفجر، وهي من المستحبات المؤكدة.

قال النبي ﷺ: **«يا علي عليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الليل»**.

وقال ﷺ لأبي ذر: **«مَن ختم له بقيام الليل ثم مات فله الجنة»**.

وقال ﷺ لجبرائيل: **«عظني»**

فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب مَن شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه، شرف المؤمن صلاته بالليل، وعزه كف الأذى عن الناس.

وقال ﷺ: **«من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»**.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «قيام الليل مصحةٌ للبدن، ورضا الرب وتمسكٌ بأخلاق النبيين، وتعرضٌ لرحمته تعالى».

وقال له رجل: إني قد حُرمت الصلاة بالليل فقال له: «أنت رجل قد قيدتك ذنوبك».

وقال عليه السلام: «إذا أراد الله أن يصيب أهل الأرض بعذاب قال: لولا الذين يتحابون بجلالي ويعمرون مساجدي ويستغفرون بالأسحار لأنزلت عذابي».

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ثلاث هن فخر المؤمن وزينته في الدنيا والآخرة: الصلاة في آخر الليل، ويأسه مما في أيدي الناس، وولايته للإمام من آل محمد عليهم السلام».

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: «صلاة المؤمن بالليل تذهب بما عمل من ذنب في النهار».

وقال عليه السلام: «إن البيوت التي يصلى فيها بالليل بتلاوة القرآن تضيء لأهل السماء كما تضيء نجوم السماء لأهل الأرض».

وقال عليه السلام: «عليكم بصلاة الليل فإنها سنّة نبيكم، ودأب الصالحين قبلكم ومطردة الداء عن أبدانكم، صلاة الليل تبيض الوجه، وصلاة الليل تطيب الريح، وصلاة الليل تجلب الرزق» وفي رواية «**صلاة الليل تحسن الوجه وتذهب بالهم**».

وقال عليه السلام: «المغبون مَن حُرِم قيام الليل».

ثم تابع المحسن الأمين (قده) قوله حول صلاة الليل: ويستحب لمن فاتته صلاة الليل أن يقضيها كما يجوز للمسافر والشاب الذي يصعب عليه فعلها في وقتها تقديمها على نصف الليل، وكذا الكبير السن والخائف من البرد أو الاحتلام والمريض، وقضاؤها أرجح من تقديمها، وإذا قدمها ثم انتبه في وقتها فلا إعادة.

وكان الإمام زين العابدين عليه السلام يصلي أمام صلاة الليل ركعتين خفيفتين يقرأ في الأولى بعد الحمد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وفي الثانية بعد الحمد ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ويستحب الجهر بالقراءة في صلاة الليل، ويستحب تسبيح الزهراء بعد كل ركعتين وسجود الشكر.

ثم يدعو عقيب الثمان ركعات (صلاة الليل) بهذا الدعاء:

«اللهم إني أسألك بحرمة من عاذ بك منك ولجأ إلى عزك واستظل بفيئك، واعتصم بحبلك، ولم يثق إلا بك يا جزيل العطاء، يا مطلق الأسارى، يا من سمى نفسه من جوده وهّاباً أدعوك رغباً ورهباً وخوفاً وطمعاً وإلحاحاً وإلحافاً وتضرعاً وتملقاً وقائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً وراكباً وماشياً وذاهباً وجائياً، وفي كل حالاتي، وأسألك أن تصلي على محمد وآل محمد، وأن تفعل بي كذا وكذا.. ويدعو بما يحب.

كيفية صلاة الليل:

على ضوء ما ورد في بعض كتب الأدعية المعتبرة كما يلي:

أن تصلي أولاً ركعتين تقرأ في الأولى بعد الحمد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وفي الثانية بعد الحمد ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ثم تصلي ست ركعات ركعتين ركعتين تقرأ فيهما ما شئت ثم تصلي ركعتي الشفع تقرأ في الأولى بعد الحمد ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وفي الثانية بعد الحمد ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ ولا قنوت فيها، ثم تصلي ركعة الوتر تقرأ فيها بعد الحمد التوحيد ثلاثاً والمعوذتين مرة واحدة ثم تقنت، وقيل: يستغفر لأربعين مؤمناً يقول: اللهم اغفر لفلان اللهم اغفر لفلان إلى أن يأتي على ذكر الأربعين ثم يقول سبع مرات: هذا مقام العائذ بك من النار ثم يقول: العفو ثلاثمائة مرة، ثم يكبّر ويركع ثم يدعو بعد إتمام الصلاة بهذا الدعاء:

«أنَاجيكَ يَا مَوْجُودُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، لَعَلّكَ تَسْمَعُ نِدَائِي فَقَدْ عَظُمَ جُرْمِي وَقَلَّ حَيَائِي، مَوْلايَ يَا مَوْلايَ أيَّ الأهْوالِ أتَذَكّرُ، وأيَّهَا أنْسى، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إلاَّ ألْمَوْتُ، لَكَفى كَيْفَ، وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ أعْظَمُ وَأدْهىٰ، مَوْلايَ يا مَوْلايَ حَتَى مَتَى وَإلى مَتَى، أقُولُ لَكَ الْعُتْبىٰ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، ثُمَّ لا تَجِدُ عِنْدِي صِدْقاً وَلاٰ وَفَاءً، فَيٰا غَوْثَاهُ ثُمَّ وَاغَوْثَاهُ بِكَ يا أَللهُ مِنْ هَوىً قَدْ غَلَبَني، وَمِنْ عَدُوٍّ قَد اسْتَكلَبَ عَلَيَّ، وَمِنْ دُنْيَاً قَدْ تَزَيّنَت لِيّ، وَمِنْ نَفْسٍ أَمَّارَةٍ بالسُّوءِ إلاَّ مَنَ رَحِمَ رَبِّي، مَوْلاٰيَ يٰا مَوْلاٰيَ إنْ كُنْتَ رَحِمْتَ مِثْلِي فَارْحَمْنِي، وَإنْ كُنْتَ

قَبِلْتَ مِثْلِي فَاْقْبَلْني، يٰا قَابِلَ الحَسَرَةِ إقْبَلْنِي، يٰا مَنْ لَمْ أَزَلْ أتَعَرّفُ مِنْهُ الْحُسْنَى، يٰا مَنْ يُغَذِّينِي بِالنِّعَم صَبَاحاً وَمَساءً ارْحَمْنِي يَوْمَ آتِيكَ فَرْداً شَاخِصاً إلَيْكَ بَصَرِي مُقَلِّداً عَمَلي، قَدْ تبَرَّأ جَمِيعُ الْخَلْقِ مِنِّي، نَعَمْ وَأبِي وَأمِّي وَمَنْ كانَ لَهُ كَدِّي وَسَعْيِي، فإنْ لَمْ تَرْحَمْنِي فَمَنْ يَرْحَمُنِي، ومَنْ يُؤْنِسُ فِي الْقَبرِ وَحْشَتِي، وَمَنْ يُنطِقُ لِسَانِي إذَا خَلَوْتُ بِعَمَلِي، وَسَألتَني عَمَّا أَنْتَ أعلَمُ بِهِ مِنِّي فَإنْ قُلتُ نَعَم فَأَينَ المَهْرَبُ مِنْ عَدْلِكَ، وَإنْ قُلتُ لَمْ أَفْعَلْ قُلتَ: أَلَمْ أكُن الشَّاهِدَ عَلَيْكَ فَعفْوَكَ عَفْوَكَ يا مَوْلاي قَبْلَ سَرابيلِ القَطِرانِ، عَفْوَكَ عفوَكَ يٰا مَوْلايَ قَبْلَ جَهَنَّمَ والنِّيرانِ، عَفْوَكَ عَفْوَكَ يا مَوْلاَيَ قَبْلَ أن تُغَلَّ الأَيدِي إلَى الأعْنَاقِ، يٰا أَرْحَمَ الراحِمِينَ وخَيْرَ الْغَافِرين».

وهذا إذا كان الوقت موسعاً، وأما إذا كان ضيقاً فيقتصر على ثلاث ركعات، وهي ركعتا الشفع وركعة الوتر، وفي الخبر «**مَن قام قبل الفجر وصلّى الوتر وركعتي الفجر كُتبت له صلاة الليل**» وفي جنة الواقية.

من أدعية السحر عن النبي ﷺ «**أن الله تعالى يغفر لصاحب هذا الاستغفار ذنوبه جميعاً ولو كانت ملء السماوات السبع والأرضين السبع وثقل الجبال وعدد الأمطار، وما في البر والبحر، وكتب الله له بعدد ذلك حسنات، ولا يقوله عبدي يومه أو ليلته ويموت إلا دخل الجنة**» وهو كما يلي:

«أَللّٰهُمَّ إنِّي أَسْتَغفِرُكَ مِمَّا تُبْتُ إلَيْكَ مِنْهُ ثُمَّ عُدْتُ فِيهِ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِما أَرَدْتُ بِهِ وَجْهَكَ فَخالَطَنِي فِيهِ ما لَيْسَ لَكَ، وأَسْتَغْفِرُكَ لِلْنِعَم الَّتِي مَنُنْتَ بِهَا عَلَيَّ وَتَقَوَّيتُ بِهَا عَلَى مَعَاصِيكَ أَسْتَغْفِرُ الله الَّذي لا إلٰهَ إلاَّ هُوَ الحَيُّ الْقَيُّومُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ، لِكُلِّ ذَنْبٍ أَذْنَبْتُهُ، وَلِكُلِّ مَعْصِيَةٍ ارْتَكَبْتُهَا.

أَللّٰهُمَّ ارْزُقْني عَقلاً كَامِلاً وَعَزْماً ثَابِتاً، وَلُبّاً رَاجِحاً، وَقَلْباً زَكِيّاً، وَعِلْماً كَثِيْراً، وَأَدَبًا بَارِعَاً، وَاجْعَلْ ذَلِكَ كُلَّهُ لِيّ، وَلاَ تَجْعَلْهُ عَلَيّ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَصَلَّى الله عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ أَجْمَعِينَ».

صلاة أول الشهر

من المستحبات المؤكدة صلاة أول الشهر حيث روي عن الإمام الجواد عليه السلام قوله: «إذا دخل شهر جديد فصلِّ في أول يوم منه ركعتين الحمد في الأولى والتوحيد ثلاثين مرة، وفي الثانية الحمد مرة والقدر ثلاثين مرة، وتصدَّق بما تيسر»، ويجوز فعلها في تمام اليوم وليس لها وقت معين.

وذكر بعض العلماء استحباب قراءة هذه الآيات بعدها وهي كما يلي:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[3].

﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[4].

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[5].

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[6].

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[7].

---

(١) سورة هود، الآية: ٦.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٧.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ٧.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٣٩.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

(٦) سورة غافر، الآية: ٤٤.

(٧) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[1].

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[2].

صلاة كل عام

ومن المستحبات صلاة كل عام حيث روي عن الشيخ مساعد في كتابه (بيدر الصلاح) أنه يصلي ركعتين بما يشاء أول يوم من المحرم فإذا سلّم قال: (اللهم أنت الأبدي القيم الغفور الرحيم، وهذه سنة جديدة فأسلك العصمة فيها من الشيطان الرجيم والعون على هذه النفس الأمّارة بالسوء والاشتغال بما يقربني إليك يا ذا الجلال والإكرام والفضل والإنعام يا أرحم الراحمين) ثلاثاً[3].

صلاة لزيادة الرزق

روي أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني ذو عيال كثير وعليّ دين قد اشتد حالي فعلّمني دعاء أدعو الله به عزّ وجل يرزقني ما أقضي به دَيني.

فقال رسول الله ﷺ: يا عبد الله توضّأ وأسبغ وضوءك ثم صلِّ ركعتين تتم الركوع والسجود ثم قل: «يا ماجد يا واحد يا كريم، أتوجه إليك بمحمد نبيك نبي الرحمة، يا محمد يا رسول الله، إني أتوجه بك إلى الله ربي وربك ورب كل شيء، وأسألك اللهم أن تصلي على محمد وأهل بيته وأسألك نفحة كريمة من نفحاتك، وفتحاً يسيراً ورزقاً واسعاً، ألمُّ به شعثي وأقضي به دَيني

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٩.

(٣) عن مفتاح الجنات ج١ ص٣٥٨ و٣٥٩.

وأستعين به على عيالي برحمتك يا أرحم الراحمين»[١] (بحق محمد وآله الطاهرين)[٢].

صلاة أخرى لزيادة الرزق[٣]

إذا أردت الذهاب إلى حانوتك ـ أي دكانك ـ فابدأ بالذهاب إلى المسجد، وصلِّ أربع ركعات، وقل: غدوت بحول الله وقوته وغدوت بلا حول مني ولا قوة، ولكن بحولك وقوتك يا رب، اللهم إني عبدك ألتمس من فضلك كما أمرتني فيسر لي ذلك (برحمتك يا أرحم الراحمين بحق محمد وآله الطيبين الطاهرين)[٤].

صلاة أخرى لسعة الرزق[٥]

وهي ركعتان يقرأ في الأولى الحمد مرة و﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ ثلاث مرات، وفي الثانية الحمد مرة، وكل من المعوذتين ثلاث مرات.

صلاة أخرى لزيادة الرزق[٦]

وتسمى بصلاة الغفيلة، وهي ركعتان بين العشاءين رواها هشام بن سالم عن الإمام الصادق عليه السلام يقرأ في الأولى بعد الحمد آية ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ

---

(١) عن الباقيات الصالحات ص٦٦.
(٢) ما بين هلالين زيادة من المؤلف.
(٣) عن الباقيات الصالحات للقمي ص٦٦.
(٤) الموضوع بين هلالين هو إضافة من المؤلف.
(٥) نفس المصدر والصفحة.
(٦) نفس المصدر والصفحة.

إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وفي الثانية بعد الحمد آية ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[2] ثم يرفع يديه ويقول: اللهم إني أسألك بمفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا أنت أن تصلي على محمد وآل محمد وأن تفعل بي كذا وكذا.

اللهم أنت ولي نعمتي القادر على طلبتي تعلم حاجتي فأسألك بحق محمد وآله عليه وعليهم السلام لما قضيتها ليّ (ويسأل حاجته فإنه يُعطى ما سأل).

وسائل أخرى لسعة الرزق وقضاء الحاجة:

هناك وسائل أخرى مفيدة لسعة الرزق وقضاء الحاجة رجحت ذكرها في هذا الكتاب من أجل تحصيل المزيد من الفوائد الأخروية والدنيوية وخصوصاً فائدة سعة الرزق وقضاء الدَين فإنها تعتبر من أهم الفوائد التي تساعد الإنسان وخصوصاً المؤمن بالله سبحانه الواثق بكرمه ولطفه والمتوكل عليه المتقي له لأن الثقة القوية وحسن الظن بلطف الله ورحمته والتوكل عليه مع التجمل بصفة التقوى هي بنفسها من موجبات السعة في الرزق والتوفيق لنيل الأهداف الراجحة والغاية السامية المحبوبة لله تعالى والمقرِّبة منه.

من جملة تلك الوسائل قراءة بعض السور والآيات المجرَّبة للسعة في الرزق، ومن جملة هذه السور المجرَّبة لذلك قراءة سورة (ياسين) حيث روى أبو بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

«إن لكل شيء قلباً، وقلب القرأن (ياسين) فمن قرأ (ياسين) في نهاره قبل أن يمسي كان من المحفوظين والمرزوقين حتى يمسي، ومَن قرأها في

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٧ و٨٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

ليلة قبل أن ينام وكل به ألف ملك يحفظونه من كل شيطان رجيم، ومن كل آفة»[1].

وقال سماحة العلامة الرضوي مؤلف المجربات: حدثني العلامة الورع الجليل الحجة السيد ميرزا حسن الشيرازي (قده)، قال: تقرأ هذه السورة (ياسين) ثلاثاً: ليلة النصف من شعبان مرة بقصد الحياة والبقاء إلى عام، وأخرى بقصد الصحة والعافية، وثالثة بقصد سعة الرزق فإنها مجرَّبة لذلك.

وقال المؤلف المذكور: ورأيت في هامش (مقصود الزائرين) أن هذا الدعاء يُقرأ في كل مرة بعد الفراغ منها ـ أي من سورة (ياسين) ـ وهو:

بسم اللّه الرحمٰن الرحيم، اللهم يا ذا المن ولا يُمن عليك، يا ذا الطول لا إله إلا أنت ظهر اللاجئين وجار المستجيرين وأمان الخائفين، إن كنتُ شقياً محروماً مقتراً في الرزق فامح في أم الكتاب شقاوتي وحرماني وإقتار رزقي وأثبتني عندك مرزوقاً موفقاً للخيرات فإنك قلت في كتابك المنزل ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2].

ومن السوَر المجربة لسعة الرزق.

قراءة الذاريات والطلاق والمزمل وألم نشرح:

روى الصدوق (قده) بإسناده إلى الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ في يوم أو في ليلة أصلح الله له معيشته وأتاه برزق واسع».

ومن موجبات سعة الرزق قراءة سورة الطلاق والمزمل وألم نشرح كل يوم فهي مجربة لأمر المعاش والسعة في الرزق من حيث لا يحتسب بنحو تعجز العقول والأفكار عنه وإذا فاتته القراءة نهاراً قضاها ليلاً[3].

(١) مجربات الإمامية للسيد الرضوي صفحة ٢٨.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٩ منقول عن مجربات الإمامية صفحة ٢٨ و٢٩.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

ومنها: ما هو من مجربات الشيخ المفيد (قده)، لطلب الرزق، وهو قراءة آية ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾[1] سبعاً، ويقرأ بعدها سبعاً: اللهم أدم نعمتك والطف بنا فيما قدرته علينا[2].

ومنها: ما ذكره السيد أبو القاسم الأصفهاني (قده) في (أبواب الجنان) من أن لقراءة سورة الواقعة للسعة في الرزق أثراً غريباً، وذكر لها ثلاث صور:

الأولى منها: هي أن يبدأ ليلة السبت فيقرأها كل ليلة ثلاث مرات، وليلة الجمعة ثمان مرات إلى خمسة أسابيع مواظباً على هذه الكيفية، وقبل الشروع في القراءة يقرأ الدعاء التالي وهو:

«اللهم ارزقنا رزقاً واسعاً حلالاً طيباً من غير كد، واستجب دعوتي من غير رد، وأعوذ بك من فضيحتَي الفقر والدين، وادفع عني هذين بحق الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام برحمتك يا أرحم الراحمين»[3].

ذكر مؤلف كتاب مجربات الإمامية (دام ظله) أن بعض الأفاضل أخبره أنه جرب هذه الصورة ونقل عن المرحوم السيد محمد خامنئه أنه قال: إن لها تأثيراً غريباً للسعة في الرزق والمعيشة، وهي من المجربات التي لا تخلُّف فيها.

أدعية مأثورة ومجرَّبة في سعة الرزق وأداء الدَين:

منها الدعاء التالي:

«اللهم يا سبب من لا سبب له يا سبب كل ذي سبب يا مسبب الأسباب من غير سبب صلِّ على محمد وآل محمد وأغنني بحلالك عن حرامك وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك يا حي يا قيوم صلِّ على محمد وآل محمد وتبِ عليّ يا كريم واغفر ليَّ يا حليم، وتقبل مني واسمع دعائي،

(١) سورة الشورى، الآية: ١٩.
(٢) المجربات صفحة ٢٧.
(٣) نفس المصدر صفحة ٣١.

ولا تُعرض عني فإني عبدك وابن أمتك فقير بين يديك سائلك ببابك واقف بفنائك أرجو منك وأطلب ما عندك واستفتح من خزائنك سبحانك أنت الله العظيم الحليم الجواد الكريم جُد عليّ من فضلك وتكرّم من رحمتك وتب عليّ يا سيدي توبةً نصوحاً فإني أستغفرك وأتوب إليك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلّى الله على سيدنا محمد النبي وآله الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً برحمتك يا أرحم الراحمين»[١].

ومنها: ما رواه الكليني (قده) في الكافي بإسناده إلى ابن عمار قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام أن يعلِّمني دعاء للرزق فعلمني دعاء ما رأيت أجلب للرزق منه قال: قل:

«اللهم ارزقني من فضلك الواسع الحلال الطيب رزقاً واسعاً حلالاً طيباً بلاغاً للدنيا والآخرة هنيئاً مريئاً من غير كد ولا مَنٍّ من أحد من خلقك إلا سعة من فضلك الواسع فإنك قلت: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾»[٢].

فمن فضلك أسأل ومن عطيتك أسأل ومن يدك الملأى أسأل[٣].

قال الشيخ أحمد موحدي القمي: ولقد جربناه كثيراً فرأيناه كما قال ابن عمار.

ومنها: ما نقله مؤلف المجربات الإمامية حيث قال: وجدت بخط السيد العالم الرباني جدي السيد مرتضى الكشميري (طاب ثراه) للغنى من الأسرار المكنونة كل يوم سبع مرات، جربه كثير وهو كما يلي:

---

(١) من مجربات الإمامية للسيد الرضوي صفحة ٣٥ طبعة جديدة الدار الإسلامية بيروت.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٢.

(٣) نفس المصدر ص٣٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

«اللهم إني ضعيف فقوِّني، اللهم إني ذليل فأعزني، اللهم إني فقير فاغنني، برحمتك يا أرحم الراحمين»[١] (بحق محمد وآله الطيبين الطاهرين)[٢].

وروى الصدوق (قده) مسنداً إلى الإمام الباقر عليه السلام، عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ديناً كان عليّ فقال: **يا علي قل: «اللهم أغنني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك»، فلو كان عليك مثل صبير[٣] ديناً قضاه الله عنك.**

قال الشيخ البهائي (قده) بعد نقله لهذا الحديث: كثر عليّ الدين في بعض السنين حتى تجاوز ألفاً وخمسمائة مثقال ذهباً وكان أصحابه متشددين في تقاضيه غاية التشديد حتى شغلني الاهتمام به عن أكثر أشغالي، ولم يكن ليّ في وفائه حيلة فواظبت على هذا الدعاء فكنت أكرره كل يوم بعد صلاة الصبح، وربما دعوت بعد الصلوات الأخر أيضاً فيسّر الله سبحانه قضاءه وعجّله في مدة يسيرة بأسباب غريبة ما كانت تخطر بالبال ولا تمر بالخيال[٤].

وروى العياشيّ عن عبدالله بن سنان قال: أتيت مولاي الصادق عليه السلام فقال: تريد أن أعلمك دعاء إن أنت قرأته قضى الله دينك وحسن حالك؟.

قلت: نعم ما أحوجني إلى مثل ذلك قال: قل بعد صلاة الصبح «توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً، اللهم،

(١) نفس المصدر والطبعة ص٣٧.

(٢) بين الهلالين زيادة من المؤلف.

(٣) صبير: جبل في اليمن.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

إني أعوذ بك من البؤس والفقر، ومن غلبة الدين والسقم، وأسألك أن تعينني على أداء حقك إليك وإلى الناس»[1].

ومن جملة الأدعية النافعة لقضاء الحاجة وأداء الدين ما علّمه أحد الأئمة عليهم السلام لأحد أصحابه وهو أن يقول بعد كل صلاة «اللهم إني أسألك يا لا إله إلا أنت بحق لا إله إلا أنت، أن ترحمني بلا إله إلا أنت، اللهم إني أسألك يا لا إله إلا أنت بحق لا إله إلا أنت، أن ترضى عني بلا إله إلا أنت، اللهم إني أسألك يا لا إله إلا أنت، بحق لا إله إلا أنت، أن تغفر لي بلا إله إلا أنت».

وطلب الإمام عليه السلام أن يعيد هذا الدعاء ثلاث مرات بعد كل صلاة فريضة.

قال ذلك الشخص وهو الحسين بن خالد: فأدمتها فوالله ما مضت بي إلا أربعة أشهر حتى اقتضيت دَيني وقضيت ما عليّ واستفضلت مائة ألف درهم[2].

ومن جملة ما جرب لقضاء الديون ورفع الشدائد الدعاء التالي:

«اللهم صلِّ على فاطمة وأبيها وبعلها وبنيها» بعدد ما أحاط به علمك تقرأه أربعمائة وثلاثين مرة أياماً حتى تقضي حاجتك وربما تُقضى في اليوم الثالث أو في الأسبوع، وقد جربه كثيرون وكان له أهمية بالغة.

ومن وسائل سعة الرزق وزوال المرض ما رواه الكليني (قده) بإسناده إلى إسماعيل بن عبد الخالق قال: أبطأ رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله، ثم أتاه فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: **«ما أبطأ بك عنا؟»** فقال: الغم والفقر، فقال: أفلا أعلِّمك دعاءً يُذهب الله عنك السقم والمرض؟. فقال: بلى يا رسول الله، فقال قل:

---

(١) نفس المصدر السابق صفحة ٣٨ و٣٩.

(٢) نفس المصدر صفحة ٤٠.

«لا حول ولا قوة إلا بالله توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً».

قال: فما لبث أن عاد إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله قد أذهب الله عني السقم والفقر[١].

ومن وسائل قضاء الحاجات وإنجاز المهمات ما رواه ابن فهد عن الرضا عليه السلام: «مَن قال بعد كل صلاة الأوراد التالية لم يلتمس حاجة إلا تيسرت له وكفاه الله ما أهمّه وهي كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

«بسم الله وصلّى الله على محمد وآل محمد، وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد، فوقاه الله سيئات ما مكروا، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين، حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ما شاء الله، لا ما شاء الناس ما شاء الله، وإن كره الناس حسبي الرب من المربوبين حسبي الخالق من المخلوقين حسبي الله رب العالمين حسبي من هو حسبي حسبي من لم يزل حسبي حسبي من كان منذ كنت لم يزل حسبي حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم[٢].

ومن الأذكار النافعة لسعة الرزق وقضاء الدَين وسعادة الدنيا والآخرة ما ذكره العلامة السيد علي خان (رحمه الله) وأنه مجرَّب يقرأ بعد كل صلاة سبع مرات وهو:

---

(١) نفس المصدر صفحة ٤٦.

(٢) نفس المصدر صفحة ٤٧.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً[(١)].

ومن جملة ما جرب لسعة الرزق ودفع الفقر ما ذكره العلامة السيد عبدالله البلادي البوشهري، وهو أن يقرأ بعد فريضة الصبح كل يوم سبعين مرة أربعين يوماً، وقال هو مجرب وهو الآية التالية: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[(٢)].

ما جرب لعلاج الحمى على اختلاف أنواعها:

وبمناسبة ذكر ما يساعد على سعة الرزق وزوال الفقر رجحت ذكر بعض المجربات لعلاج بعض العوارض التي تقع كثيراً ويكون علاجها بالأدوية العصرية غير مفيد أو بطيء الحصول من جملة ما جرب لعلاج الحمى على اختلاف أنواعها ما روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا علي إن أشد الناس بلاءً النبيون ثم الأوصياء ثم الذين يلونهم، إلى أن قال: أتحب أن يكشف الله ما بك؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله قال: قل: «**اللهم ارحم جلدي الرقيق وعظمي الدقيق وأعوذ بك من فورة الحريق يا أم ملدم إن كنت آمنتِ بالله فلا تأكلي اللحم ولا تشربي الدم ولا تفوري من الفم وانتقلي إلى من يزعم أن مع الله إلهاً آخر فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله**» قال: فعلتها فعوفيت من ساعتي[(٣)].

(١) نفس المصدر صفحة ٥٠.

(٢) سورة القصص، الآية: ٢٤ نقل عن المصدر السابق ص٥٢.

(٣) نفس المصدر صفحة ٥٧.

ومن جملة ما جُرِّب لعلاج الحمى (دعاء النور).

وهو الذي علمته فاطمة الزهراء عليها السلام لسلمان الفارسي وكانت عليها السلام تقرأه غدوة وعشية قالت له:

«إن سرك أن لا يمسك أذى الحمى ما عشت في دار الدنيا فواظب عليه» ـ أي على دعاء النور ـ وهو على ما في رواية السيد الأجل علي بن طاوس (قده) كما يلي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

«بسم الله النور، باسم الله نور النور، بسم الله نور على نور، بسم الله الذي هو مدبّر الأمور، بسم الله الذي خلق النور من النور، الحمد لله الذي خلق النور من النور، وأنزل النور على الطور، في كتاب مسطور في رق منشور بقدر مقدور على نبي محبور، الحمد لله الذي هو بالعز مذكور، وبالفخر مشهور، وعلى السراء والضراء مشكور، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين»[١].

وذكر العلامة السيد عباس مكي في كتاب (نزهة الجليس) فائدة مجرَّبة للحمى وهي أن تكتب الأذكار التالية، وتعلق على عضد المحموم اليمنى:

«بسم الله، وبالله، ومن الله، وإلى الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون، لا إله إلا أنت، آمنت بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، إن رحمة الله قريب من المحسنين، اللهم أنت الشافي، ولا شافي سواك، اللهم اشفه شفاءً لا يعقبه سقم، يا الله يا الله يا الله»[٢].

(١) نفس المصدر السابق صفحة ٥٨.

(٢) نفس المصدر صفحة ٥٩.

دعاء لرفع وجع الرأس:

من جملة ما جرب لرفع وجع الرأس وغيره من العلل الدعاء التالي:

«أقسمت عليكِ أيتها العلة بعزة عزة الله وعظمة عظمة الله وبجلال جلال الله وبقدرة قدرة الله وسلطان سلطان الله وبلا إلَه إلا الله وبما جرى به القلم من عند الله وبلا حول ولا قوة إلا بالله إلا انصرفتِ».

ذكر مؤلف كتاب المجربات أن العلامة السيد علي أكبر التبريزي أخبره بأنه جرب هذا الدعاء وانتفع به وأنه يُقرأ ثلاث مرات على محل الوجع[١].

دعاء آخر لوجع الضرس:

تُقرأُ سورة الحمد والمعوذتين وقل هو الله أحد وتقرأ البسملة مع كل واحدة من هذه السور كما تقرأ بعد السورة الأخيرة ـ أي سورة التوحيد ـ وبعد ذلك تقرأ الآيات التالية:

وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

ثم يقول بعد ذلك: اللهم يا كافي من كل شيء ولا يكفي منك شيء اكف عبدك وابن أمتك من شر ما يخاف ويحذر ومن هذا الوجع الذي يشكوه إليك.

قال الاشتياني في (أبواب الجنان) نقلاً عن المجلسي (قده): إنه تعويذ مجرب لوجع الأسنان[٢].

---

(١) نفس المصدر ص٦٤.

(٢) نفس المصدر السابق صفحة ٦٧.

مجربات للشفاء من وجع العين وضعفها ولزيادة نور البصر:

ذكر مؤلف كتاب المجربات لرمد العين مجرب قراءة البيتين التاليين:

إذا ما مقلتي رمدت فكحلي ... ترابٌ من تراب أبي تراب
هو البكاء في المحراب ليلاً ... هو الضحاك في يوم الحراب[1]

وقال العلامة الشيخ محمد حسين الأعسم (قده) في بركة وتأثير طين قبر الإمام الحسين عليه السلام في الشفاء من العوارض الصحية:

وللحسين تربة فيها الشفا ... تشفي الذي على الحمام أشرفا

وأما غبار زوار الحسين عليه السلام فهذا العلاّمة المحدث السيد نعمة الله الجزائري (قده) يحدثنا عنه فيقول: كان قد أصابني ضعف في الباصرة فحضرت زيارة عاشوراء تحت قبة سيد الشهداء عليه أفضل الصلوات فلما خرج زواره في اليوم الثاني أو الثالث كنس الخدمة الروضة المطهرة من التراب ليضعوا الفراش فوقفت أنا وجماعة تحت القبة الشريفة فثار غبار غليظ ففتحت عيني حتى امتلأت من ذلك التراب فما خرجت من الروضة إلا وعيناي كالمصباح المتوقد وإلى الآن ما أعالج وجع العين إلا بالتكحل من ذلك التراب[2].

وروي عن الإمام علي عليه السلام قوله: «إذا اشتكى أحدكم عينه فليقرأ عليها آية الكرسي وليضمر في قلبه أنه يبرأ ويُعافى فإنه يعافى إن شاء الله تعالى»[3].

قال العلامة المحقق الكبير محمد محسن الفيض الكاشاني (قده)، بعد ذكره لهذا الحديث العلوي الشريف: وإن شاء فليقل قبل قراءتها ـ أي قراءة آية الكرسي: «أعيذ نور بصري بنور الله الذي لا يطفأ»، ويمسح بيده على

---

(١) نفس المصدر ص٦٨.
(٢) نفس المصدر السابق ص٦٩ نقلاً عن زهر الربيع للمؤلف صاحب القصة.
(٣) نفس المصدر ص٧٠.

عينه، فقد حكي أن بعض الصالحين جرّب قراءة الاستعاذة قبل قراءة آية الكرسي وقرأ هذه الآية بعدها ومسح بيده على عينيه فصحّ بصره[١].

وذكر العلامة السيد الجليل حسين الفاطمي (قده) أنها من مجرباته وأنه كان يداوم عليها مع الدعاء المذكور بعد كل صلاة قال: في أيام طلبي للعلم أُصيبت عيناي فجأةً فأخذني والدي إلى أطباء طهران وباشروني ومنعوني من المطالعة فببركة مداومتي على هذا الحرز المقدس وقى الله عيني من العمى وحفظ لي نور بصري.

وأضاف السيد الجليل قائلاً: وقد بلغ والدي من العمر ما يقارب مائة سنة فكان يقرأ ويكتب ويقول: إن نور بصري هذا بدعاء ذكره العلامة المجلسي (قده) وهو أن يضع يده على عينيه بعد كل فريضة ويقول: أعيذ نور بصري بنوره الله الذي لا يُطفأ ثم يقرأ آية الكرسي ويداوم على ذلك[٢].

وقال العلامة الكفعمي (قده): ومما جرب لوجع العين وجميع أوجاع الأعضاء التوسل بالإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام.

قال العلامة المبيدي في كشكوله بعد نقل ذلك عن الكفعمي أيضاً: لا يخفى أن ذلك من ضروريات مذهبنا في كل الأمور من دون احتياج إلى التجربة وإنما نقلت ذلك لمزيد توجه القلب بحسب الطبع كما هو الشأن في المجربات.

وقال عبد المطلب بن محمد غياث الدين ما معناه: ومما جرب للشفاء من جميع أوجاع الأعضاء خصوصاً لوجع العين: التوسل بالإمام موسى بن جعفر عليه السلام والتوسل بهذا النحو تقول:

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) نفس المصدر ص٧٠.

«اللهم بحق وليك موسى بن جعفر الكاظم أن تسلمني في جميع جوارحي ما ظهر منها وما بطن يا جواد يا كريم وصلى الله على محمد وآله أجمعين»[١].

وذكره صاحب اللآلىء المخزونة بهذه الصورة:

«اللهم إني أسألك بحق وليك موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام إلا عافيتني به في جميع جوارحي وسلّمتني في جميع حوائجي ما ظهر منها وما بطن ودفعت عني جميع الآلام والأسقام يا جواد يا كريم يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله أجمعين».

وأضاف صاحب اللآلىء المخزونة قائلاً: وعندما يشتد المرض وخاصة إذا كان المريض طفلاً تنذر مقداراً من النقود له عليه السلام وتضعه تحت وسادة المريض وتتصدق به غدوة وتستشفع به عليه السلام يبرأ في الحال خاصة لوجع العين وهو مجرَّب[٢].

ورؤي في بغداد امرأة تهرول فقيل لها: إلى أين؟ قالت: إلى موسى بن جعفر عليه السلام، فإنه حبس ابني، فقال لها رجل غير موالٍ لأهل البيت: إنه ـ يعني الإمام موسى الكاظم عليه السلام ـ قد مات في السجن، فقالت: بحق المقتول في السجن أن تريني القدرة فإذا بابنها قد أُطلق وأُخذ ابنُ المستهزىء بجنايته[٣].

وجاء في كتاب (القطرة من بحار مناقب النبي والعترة) أن الأبيات التالية مشهورة ومجربة عند الخواص تكتب وتطرح على قبر الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، للاستشفاء والاستشفاع به ولقضاء الحوائج وهي:

لم تزل للأنام تُحسن صنعا وتُجّير الذي أتاك وترعى

---

(١) نفس المصدر ص٧٢.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) نفس المصدر صفحة ٧٣ نقلاً عن بحار الأنوار ج٢٢.

وإذا ضاقت الفضا بي ذرعاً يا سمي الكليم جئتك أسعى
والهوى مركبي وحبك زادي
أنت غيثٌ للمُجدبين ولولا فيض جدواكم الوجود اضمحلا
قسماً بالذي تعالى وجلا ليس تقضى لنا الحوائج إلا
عند باب الرجاء جد الجواد

وقال العلاّمة الكبير المرحوم الشيخ محمد حسين الأصفهاني (قده) في الإمام الكاظم عليه السلام:

وبابه شفاء المرضى وكل حاجة لديه تقضى
وبابه باب حوائج الورى لأجله غدا به مشتهرا

وقال عبد الباقي العمري الحنفي:

لُذ واستجر متوسلا إن ضاق أمرك أو تعسر
بأبي الرضا جد الجواد محمدِ موسى بن جعفر[1]

وقال آخر:

لُذ إن داهمتك الدواهي والدهر عيشك نكد
بكاظم الغيظ موسى وبالجواد محمد

وقال محمد بن إدريس الشافعي: قبر موسى الكاظم عليه السلام ترياق مجرَّب لإجابة الدعاء.

وعن الخطيب البغدادي في تاريخه بإسناده عن علي بن الخلال قال: ما أهمني أمر فقصدت موسى بن جعفر وتوسلت به إلا سهل ليّ ما أحب.

وبالمناسبة أختم الحديث عن كرامات هذا الإمام العظيم عليه السلام، التي حصلت له في مرقده الشريف بنقل قصة ذكرها مؤلف كتاب (مجربات الإمامية) وهي تدل على مدى قوة ارتباط أهل البيت عليهم السلام بالله سبحانه

---

(١) نفس المصدر صفحة ٧٤.

وفنائهم في ذاته حباً وخضوعاً لإرادته وإخلاصاً في عبادته فقابلهم الله سبحانه بما يدل على سمو منزلتهم عنده وقربهم منه بحيث إذا توسل بهم لله تعالى مؤمنٌ ذو حاجة ماسة وحالة استثنائية صعبة ليقضي سبحانه حاجته ويحل مشكلته التي يعجز عن قضائها وحلها البشر بطاقتهم البشرية المحدودة فإن الله سبحانه بقدرته القادرة يحقق لذلك المؤمن غايته ببركة توسله بواحد من أهل هذا البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

وحيث أن الإمام الكاظم عليه السلام من هؤلاء المعصومين المطهَّرين فقد حصلت له عدة كرامات ومعاجز في مقامه الشريف لتدل على قوة علاقة صاحب هذا المقام بالخالق العظيم القادر على كل شيء، وفيما يلي نص القصة المشار إليها، وقد نُشرت في عدة مجلات وجرائد لأهميتها ونقلها المؤلف عن هذه المصادر بقوله: وهي ما نشرته مجلة الهدى الغراء في ج٢ من سنتها الأولى المؤرخ ٦ صفر ١٣٤٧هـ وإليك ما ذكرته بألفاظه تحت عنوان **(البصير الجديد يتكلم كيف برئت عيناي)**:

أصيبت عيناي كلتاهما بداء أفقدهما النور مرة واحدة، وبقيت أتخبط على أيدي الأطباء عساني أجد فيهم فلاحاً وعلاجاً، ولكن لم يكن شيء من ذلك، وقبل بضعة أسابيع اضطررت إلى الرواح إلى مستشفى المجيدية ـ وتعرف اليوم بالمستشفى الجمهوري ـ يقودني ابن عمي السيد علوان، وقد باشرني الطبيب جلال بك مباشرة من بعضها أنه طعم عيني بالإبر، ولم يكن في كل هذا ما أوده من تحسين عيني حتى أن دواء الإبر هذه أزاد الوجع حرقة شديدة، وقد يئست تماماً من برء عيني فعدت أدراجي من المستشفى، وبعد مدة باشرت عند الطبيبة (فرحة خاتون) عسى أن يكون لديها ما يفيد، وقد خاب الظن إذ ازدادت عيناي ألماً ووجعاً، وقد مر عليّ نحو شهر بعد مباشرتي عند هذه الطبيبة وأنا يائس ولا أدري ما أصنع، وفي الأخير اهتديت إلى أن أزور جدي الإمام موسى الكاظم عليه السلام، ولقد ذهبت ليلة الجمعة

الماضية إلى الإمام مستجيراً به، وعندما وصلت الصحن الشريف طلبت من الكليدار ـ السادن ـ الشيخ علي أن يتفضل ويفتح لي باب الضريح المقدّس، ولكنه امتنع أولاً ولم يرضَ بالمرة وبعد أخذ ورد رقّ لحالتي وفتح لي باب ضريح الإمام موسى الكاظم عليه السلام، فدخلته ضارعاً إلى الله عزّ وجل أن يعيد إلي بصري، وبعد مرور خمس دقائق أو حولها أحسست بعمود من البرق قد انبثق من هناك ومر على عينَي فمسح ما بهما من ظلام، وقد عادتا تبصران كأحسن ما يكون، وأنا بمن الرحمٰن لا أحس وجعاً ولا أجد ألماً وأشكره عزّ شأنه على هذه النعمة إنه الرؤوف بعباده وله الحمد أولاً وآخراً.

السيد مصطفى الحسني
من أهالي محلة الحاج فتحي ببغداد

دعاء مأثور ومجرَّب لقضاء الحوائج ودفع الشدائد:

«اللهم إني أصبحت أشهدك وكفى بك شهيداً، وأشهد ملائكتك، وحمَلة عرشك، وسكان سبع سماواتك وأرضيك، وأنبيائك ورسلك والصالحين من عبادك، وجميع خلقك فاشهد ليّ وكفى بك شهيداً، إني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت المعبود وحدك لا شريك لك، وأن محمداً ﷺ عبدك ورسولك، وأن كل معبود مما دون عرشك إلى قرار أرضك السابعة السفلى باطل مضمحل ما خلا وجهك الكريم فإنه أعز وأكرم وأجل وأعظم من أن يصف الواصفون كنه جلاله أو تهتدي القلوب إلى كنه عظمته، يا مَن فاق مدح المادحين فخر مدحه وعدا وصف الواصفين مآثر حمده، وجلّ عن مقالة الناطقين تعظيم شأنه، صلِّ على محمد وآل محمد، وافعل بنا ما أنت أهله يا أهلَ التقوى وأهلَ المغفرة» (ثلاثاً)(١).

صلاة ودعاء لقضاء الدَين:

قال الكفعمي (قده): روي لقضاء الدين أن يصلي المديون ركعتين ويقرأ بعدهما آيتي الملك، ثم يقول: «يا رحمٰن الدنيا والآخرة، ورحيمهما تعطي منهما مَن تشاء، وتمنع منهما مَن تشاء، صلِّ على محمد وآله، واقض عني دَيني».

فعن النبي ﷺ أنه من فعل ذلك قضى الله عنه ديونه ولو كان عليه ملء الأرض ذهباً، وإن كان مهموماً أو مكروباً فرَّج الله همه ونفَّس كربه(٢).

وفيما يلي آيتا الملك، وهما قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ

(١) مجربات الإمامية صفحة ١٧١.

(٢) نفس المصدر صفحة ١٩٦ و١٩٧ نقلاً عن المصباح.

﴿ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

مجربات لقضاء الحاجات والخلاص من الشدائد:

منها: ما وجد مكتوباً بخط بعض أصحابنا مما جرب لكل مشكل، وهو أن تقرأ بعد صلاة الصبح بدون تكلم مع أحد سورة (ياسين) ثم تقرأ بعدها عشر مرات:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«يا قديم، يا دائم، يا حي، يا قيوم، يا فرد، يا وتر، يا واحد، يا أحد، يا صمد، يا مَن لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وصلّى الله على محمد وآله أجمعين، برحمتك يا أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين».

ومنها: ما روي عن الإمام علي عليه السلام من أنه تردد الأبيات التالية للخلاص من الشدة:

وكم للّه من لطف خفي ... يدق خفاه عن فهم الذكي
وكم يُسر أتى من بعد عُسر ... ففرج كربةَ القلب الشجي
وكم أمرٍ تساء به صباحاً ... وتأتيك المسرةُ بالعشي
إذا ضاقت بك الأحوال يوماً ... فثق بالواحد الفرد العلي

قال العلامة النراقي ـ (رحمه الله) : مَن كرر هذه الأبيات الأربعة حصل له الفرج مما فيه من الشدة وهو من المجربات، وقال المحقق الفيض الكاشاني (طاب ثراه): وهذا من المجربات عندي.

وقد حُكي أن واحداً من الملوك أودع عند بعض وزرائه درة كثيرة القيمة فكسرها صبي من صبيانه فاغتمّ لذلك غمّاً شديداً فأخذ يردد هذه الأبيات

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٢٦ و٢٧.

فاتفق أن عرض للملك علة فبعث إلى الأطباء فأشاروا إلى دواء يكون أحد أجزائه تلك الدرة فبعث الملك إلى الوزير أن دق تلك الدرة دقاً جيداً وأت بها سريعاً.

وأضاف (رحمه الله) قوله: وفي بعض الروايات أضيف إلى الأربعة، بيتان آخران وهما:

توسل بالنبي فكل خطب يهون إذا تُوسل بالنبي
ولا تجزع إذا ما ناب خطبٌ فكم للّه من لطف خفي

وذكر هذه الأبيات العلاّمة الشيخ محمد باقر البير جندي (رحمه الله تعالى) ونسبها إلى أمير المؤمنين عليه السلام وزاد عليها بيتين آخرين وهما:

وبالمولى العلي أبي تراب وبالنور البهي الفاطمي
وبالأطهار أهل الذكر حقاً سلالة أحمد وُلد الوصي

وفي الصحيفة العلوية أنه عليه السلام كان يقرأ هذه الأبيات عند كل شدة.

ومن جملة المجربات لقضاء الحاجة والخلاص من الشدة أن ينذر الشخص تسعة أعداد من نقود على اختلاف أنواعها حسب وسعه مع ملاحظة الأمر الذي ينذر له، وأهميته فلا ينذر تسع فلوس من العملة العراقية أو تسع ريالات من العملة الإيرانية مثلاً لشراء ما لَه قيمةٌ معتد بها أو لزواج أو لخلاص من ورطة وبلية بل ينذر لذلك مقداراً معتداً به عرفاً مثل تسعة آلاف ليرة لبنانية أو تسعة دولارات، وهكذا وبعد حصول المراد يدفعها إلى مَن ينتمي نسبه إلى الإمام الحسين عليه السلام سواء في ذلك الذَكَر والأنثى ويُهدي ثواب ذلك إلى السيدة العقيلة زينب الكبرى بنت أمير المؤمنين عليهما السلام ويلزم أن يُحضر الناذر في ذهنه المهديَّ لها سلام الله عليها والمُعطى إليه.

وبعد ذكر مؤلف المجربات الإمامية العلامة الرضوي (دام ظله)، النذر المجرب لقضاء الحاجة وكشف الشدة، قال:

حدثني به سيدي العلامة الوالد (قدس الله روحه) وقال: هو مجرب لقضاء الحاجة مهما كان نوعها لحصول خير أو لدفع شر، وقد جربته مراراً، وعلمته جماعة فنالوا مرادهم، وبعد نقل المؤلف ذلك عن والده المقدس قال: وأنا جربته أيضاً.

وذكر المؤلف (حفظه الله) نذراً حصل من شخص كان قد أجّر داره من شخص، ولما أراد إخراجه منها بعد انتهاء مدة الإيجار تمرد المستأجر وعصى ولم تكن له حيلة في إخراجه منها، فأخرج من ماله مبلغاً على عدد اسم زينب عليها السلام، وقدره ٦٩ توماناً مثلاً وجعله على حده ونذر إن قضيت حاجته بأن خرج المستأجر المعتدي من داره في يوم عينه يدفع المبلغ المذكور إلى أحد العلويين ويهدي ثواب هذا النذر إلى روحها عليها السلام فخرج الرجل المتمرد من الدار اختياراً وسلمها إليه قبل اليوم المعين. ثم تابع المؤلف (دام ظله) قائلاً:

وحدثني أيضاً أن رجلاً أصيب ولد له بالفالج ويئس من معالجة الأطباء له فأخرج عم الولد مبلغاً باسم السيدة زينب عليها السلام، وهو مبلغ (٦٩)، وجعله على حده، ونذر إن عافى الله ابن أخيه في وقت عينه يدفع المبلغ المذكور إلى أحد العلويين بثواب السيدة زينب عليها السلام، فعافى الله الولد من مرضه الذي يئس من علاجه أبوه وغيره.

وبعد ذلك طرقت عليه ـ أي على العم الناذر ـ باب الدار، وإذا برجل علوي جاء، وقال: رأيت البارحة في المنام عمتي معصومة ـ يعني بنت الإمام الكاظم عليه السلام، وهي تأمرك أن تدفع ليّ المبلغ الذي نذرته باسم السيدة زينب عليها السلام وهو الآن في المكان الفلاني لأجعله رأس مالٍ لي وأكتسب به، قال: فقام وأخرج المبلغ المذكور من ذلك المكان وقدمه له.

النذر إلى بلال الحبشي مجرب لقضاء الحاجة:

حكي أن رجلاً دفع إلى رجل مبلغاً خطيراً، ولم يأخذ منه به وثيقة وعندما طالبه به أنكر عليه ذلك فنذر صاحب الدَين ختمةً من القرآن يُهدي ثوابها إلى روح بلال الحبشي إذا أرجع ذلك الرجل ماله إليه فجاء إليه وقدّم المبلغ له واعتذر منه وطلب العفو وأن يجعله في حل معترفاً بإساءته إليه[١].

وهناك مجربات عديدة، وكنوز مفيدة من عدة جهات مذكورة في كتاب التحفة الرضوية في مجربات الإمامية، لسماحة العلامة الجليل والمجاهد المخلص السيد محمد الرضا الرضوي (دام ظله)[٢] ولم يتسع المجال لذكرها مع ما ذكرت ونقلت عن هذا الكتاب النفيس، ولذلك أرجح اقتناءه لتحصيل تلك الفوائد الجليلة.

وقد يحتمل محتمل أن ذكري تلك المجربات في هذا الكتاب يعتبر خروجاً عن موضوعه لعدم ارتباطها بالصلاة وفلسفتها، ونقول في مقام دفع هذا التوهم:

إن ذكر تلك المجربات، وإن كان خروجاً عن الموضوع ظاهراً وعنواناً ولكنه داخل في جوهر الغاية الأساسية التي ألف الكتاب من أجلها وهي تقوية العقيدة وتغذية روح العبودية في نفس المؤمن ليبقى منشداً بها إلى الله المعبود دائماً وأبداً في كل حال من أحواله بعد قوة إيمانه بقدرته المطلقة التي تمكنه من إيجاد الأمور الصعبة الخارقة للعادة، وبرحمته الواسعة التي وسعت كل شيء، وخصوصاً المؤمن المتوكل عليه، واللاجىء إليه عند الشدائد التي لا يتمكن من إزالتها سواه، فنفس هذا اللجوء، والرجوع إليه سبحانه بتوكل، وانقطاع هو بنفسه عبادة خاشعة، وصلاة معنوية نافعة تتجسم بها غاية الصلاة وفلسفتها المقصودة منها.

---

(١) مجربات الإمامية صفحة ٢٣١.

(٢) منشورات الدار الإسلامية بيروت الطبعة الرابعة.

ما يساعد على تحقق غاية الصلاة وحفظها بعد حصولها:

بعد هذه الجولة الفكرية في رحاب الصلاة الواسعة، وظلالها الوارفة نحتاج إلى أن نجلس، ولو قليلاً في ظل الآية المباركة التالية لنستوحي منها ما يعود على الصلاة بمعناها العام، وعليها بمعناها الخاص بما يساعد على تحقق الغاية المقصودة منها، وعلى حفظها من الزوال بعد حصولها، والآية المشار إليها هي قوله تعالى في مقام حديثه عن المؤمنين الخاشعين في صلاتهم لله قلباً وقالباً: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[1].

إن المحافظة المقصودة من هذه الآية يراد بها معنى عام شامل لحفظ الصلاة في ذاتها، وصونها من الإهمال، وعدم الإتيان بها أصلاً، ومن حصول ما يخل بصحتها عند الإتيان بها من ترك جزء أو شرط على وجه يوجب البطلان، أو فعل ما يوجبه من المنافيات.

كما أنه شامل لحفظ الغاية المقصودة منها من الضياع، وحفظ الأثر المترتب عليها من الإحباط والإتلاف لتصبح بحكم المعدومة.

وحفظها في ذاتها معلوم الوجوب لا يحتاج إلى بيان، والذي يحتاج إلى لفت النظر إليه، والتنبيه عليه هو حفظ الغاية، وصونها من الضياع والإتلاف، وهو يتحقق بأسباب عديدة لا مجال لذكرها كلها لضيق المجال عنها، لذلك اقتصرت على ذكرِ أهمها، وقبل ذكر هذا الأهم من الأسباب يترجح ذكر أمر هام له دخل في قبول جميع أعمال المكلف، وحصول التقرب بها إلى الله سبحانه وهو معرفة كل مكلف إمام زمانه الذي وجبت عليه مودته ولزمته إطاعته عملاً بآيَتي المودة والإطاعة اللتين أوجبهما الله سبحانه على المكلف مقدمة تمهيدية لقيامه بواجب العبادة التي خُلق من أجلها على الوجه الصحيح.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٩.

أما الآيةِ الأولى: فهي قوله تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ:

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1].

والثانية: هي قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2].

وإذا كان المراد من المودة المحبةَ المقترنةَ بالإطاعة لمن يوده المكلف ويُحبه يكون المعنى المقصود من الآيتين واحداً، وهو وجوب الإطاعة.

وإذا كانت إطاعة القربى وأولي الأمر، وهم قرابة الرسول وعترته الطاهرون المعصومون واجبة من جهة كون كل واحد منهم ممثلاً للرسول الأعظم ﷺ، ونائباً عنه في قيادة الأمة بعده فإنها بهذا الاعتبار تكون إطاعةً للرسول الأعظم ﷺ، وإطاعةً وعبادةً لله سبحانه حيث أمر بإطاعته وإطاعة رسوله وأولي الأمر في الآية المذكورة.

وإذا كان لمعرفة إمام الزمان بالنسبة إلى كل مكلف معاصر له وموجود في زمانه أثرها البليغ في قبول أعماله وانسجامها مع أحكام رسالته السماوية لتكون بذلك عبادةً صحيحةً لله ومقبولة عنده، وليكون محكوماً له بأحكام المسلم الواعي الخارج بإسلامه من ظلمات الجاهلية إلى أنوار الرسالة الإسلامية.

أجل: إذا كان لمعرفة إمام الزمان الأثر الإيجابي الكبير، ولعدمها أثره السلبي الخطير حيث يحكم عليه بأحكام غير المسلم الذي يكون موته، وهو على حاله وجهله بإمام عصره ميتةً جاهلية كما ورد في الحديث المشهور.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

لذلك يتعين بيان المراد من تلك المعرفة الواجبة، وذلك الإمام المفروضة معرفته وإطاعته فنقول:

المراد من معرفته هو الالتفات التفصيلي، والإيمان الجازم بضرورة وجود الحجة المعصوم المنصوب من قبل الله سبحانه والمعرَّف عنه من قبل رسوله ﷺ، في كل زمان من أجل أن تتم الحجة لله على خلقه ببيان مصدر الخلق والإيجاد في هذه الحياة والغاية الأساسية المقصودة من إيجاد الكون بصورة عامة، والإنسان بصورة خاصة ومصيره بعد موته والانتقال من دار الفناء إلى دار الخلود والبقاء بأسلوب واضح وبرهان ساطع يوضح الحقيقة، ويزيل الشبهة ويلقي الحجة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وقد تمثلت هذه الحجة البالغة في عصر النبي محمد ﷺ بشخصه الكريم كما تمثلت بعده في كل عصر من العصور التي توالت بواحد من أهل بيته وعترته المعصومين ابتداءً بالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ومروراً بولده الحسن الزكي وأخيه الحسين الأبي وأبنائه التسعة المعصومين حتى آخرهم وخاتمهم الإمام المهدي حجة العصر وإمام الزمان الأخير (عجّل الله فرجه الشريف).

وقد ثبتت إمامة هؤلاء الأئمة بآية الأمر بإطاعة الله والرسول وأولي الأمر باعتبار أن المراد من هذه الكلمة ﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ الأئمة الإثنا عشر بشهادة العقل السليم لأنهم وحدهم وحدهم القابلون لأن يأتوا بالدرجة التالية للرسول ﷺ، مع شهادة النص المعتبر المشهور المروي عن جابر بن عبدالله الأنصاري حيث ورد السؤال فيه للرسول ﷺ، عن المراد بكلمة أولي الأمر الواردة في الآية المذكورة، وذكر الرسول في الجواب أن المراد

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

منها هو الأئمة الاثنا عشر، ويؤكد ذلك حديثا الثقلين، والسفينة المتواتران باعتبار أن المراد بالعترة الواردة فيهما هم الأئمة الاثنا عشر عليهم السلام، لأنهم وحدهم القابلون لأن يكونوا سفينةً لنجاة الأمة من الغرق في بحر الجهالة وسلامتهم من الانجراف والانحراف عن منهج الهداية كما هو مضمون الحديثين، وذلك بسبب عصمتهم التي تنجيهم من كل خطر، وتساعدهم على إنجاء غيرهم من كل ضرر، وعصمتهم هذه تُستكشف من الأمر بإطاعتهم مطلقاً على غرار الأمر بإطاعة الله ورسوله كما تُستكشف من الحديثين المشار إليهما بقليل من التدبُّر الواعي والتفكُّر الموضوعي.

وتفصيل الحديث حول موضوع عصمة العترة الطاهرة، وانحصار القيادة الشرعية بهم موكول إلى محله من أبحاث العقيدة الإسلامية.

ونقتصر في المقام على ذكر الدليل الفطري السليم والمنطقي الحكيم، وهو أن الصفتين الأساسيتين اللتين استحق بهما الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم منصب النبوة، وهما العصمة المشرقة والأفضلية المطلقة من كل معاصريه وبكل الصفات الكمالية محصورتان في أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، ومقصورتان عليهم بشهادة الحقيقة والوجدان مع شهادة السنة والقرآن، وذلك كاف لإثبات استحقاقهم منصب الإمامة والخلافة كما استحق بهما الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم منصب النبوة.

ويستفاد ذلك من نفس الدليل الذي قام على ضرورة وجود الحجة الشرعية في كل عصر من أجل أن تتم الحجة على البشر كما تقدم، ولا يكون النائب عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والممثل لدوره بعده حجة عليهم إلا إذا كان معصوماً مثله وأفضل أهل زمانه نظيره.

وحيث أن إمام العصر الموجود في زماننا الحالي هو الإمام المهدي (عجّل الله فرجه) الذي هو الإمام الثاني عشر خاتم الأوصياء، يكون الواجب

على كل مكلف مسلم أن يعرفه ويتعرف عليه تمهيداً لتطبيق أعماله والإتيان بها وفق منهجه الشرعي المرسوم له من قبل الله سبحانه، إذا كان مجتهداً قادراً على معرفة الوظيفة الشرعية الراجعة إلى عمله أو إلى أعمال مقلِّديه من المصادر المقررة لاستفادة الأحكام الشرعية منها بالاجتهاد.

وإذا كان المكلف غير مجتهد فهو مكلف بمعرفة إمام زمانه أيضاً من أجل إكمال إيمانه بمعرفته وولايته وتصحيح أعماله بإتيانها على ضوء هذه المعرفة وتلك الولاية ولا يكفي مجرد تقليده للمرجع الواجد لشروط التقليد ما لم يكن ذلك مسبوقاً بتلك المعرفة التي وجبت على المرجع نفسه ليصح عمله، ويجوز تقليده وتُقبل عبادته كغيره من المكلفين كما هو المستفاد من الروايات العديدة والمعتبرة الدالة على اشتراط قبول الأعمال بمعرفة المكلف إمام زمانه وموالاته له، وتطبيق أعماله على منهج هذا الإمام الذي هو منهج الله سبحانه، ويستفاد ذلك بوضوح من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1] باعتبار أن معرفة الإمام الواجبة محققة للتقوى التي جعلها الله شرطاً لقبول العمل، وقد ورد النص على ذلك في عدة روايات كما مرت الإشارة إليه.

منها: ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام من قوله:

«مَن صلّى وزكّى وحج واعتمر وفعل البركة بغير معرفة من افترض الله طاعته فإنه لم يقبل منه شيئاً من ذلك»[2].

ويؤكد ذلك بل يدل عليه بوضوح الحديث المشهور عند المسلمين القائل: **«مَن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة الجاهلية»**[3].

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

(٢) مختصر بصائر الدرجات ص٨٥.

(٣) موسوعة الإمام المهدي المشتملة على عدة مؤلفات حول المهدي عج ص٩.

ومنها: ما روي عن عمار الساباطي عن أبي عبدالله عليه السلام من قوله:

«لا تترك الأرض بغير إمام يحل حلال الله ويُحرِّم حرامه وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِ بِإِمَٰمِهِمْ﴾».

ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«مَن مات بغير إمام مات ميتةً جاهلية»**[1].

الأمور التي تؤثر سلباً على أثر الصلاة ودورها الإيجابي:

بعد الفراغ من بيان ما هو شرط أساس لقبول الأعمال، وهو معرفة الإمام الحجة على أهل زمانه مضافاً إلى بقية الأمور الأخرى المعتبرة في صحة العمل وترتب الأثر عليه.

يأتي دور بيان الأمور التي تؤثر سلباً على قيمة العمل بصورة عامة والصلاة بصورة خاصة فنقول:

الأمور التي تؤثر سلباً على ذلك كثيرة نقتصر على ذكر أهمها وهو كما يلي:

الاستخفاف بالصلاة بإضاعة وقتها، وعدم الإتيان بها فيه أو بتأخيرها إلى آخره بدون عذر شرعي، ويستفاد ذلك من قول الإمام الصادق عليه السلام: «من صلّى في غير وقت فلا صلاة له»[2].

وقول الرسول صلى الله عليه وآله: **«مَن صلّى الفريضة لغير وقتها رفعت سوداء مظلمة تقول: ضيّعك الله كما ضيّعتني»**[3].

ومنها: ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام من قوله عليه السلام: «إن الصلاة إذا ارتفعت في أول وقتها رجعت إلى صاحبها، وهي بيضاء مشرقة تقول:

(١) تفسير نور الثقلين ج٣ ص ١٩٤ طبعة إيران.

(٢) الكافي ج٣ ص٢٨٥.

(٣) المحاسن ج١ ص١٦١.

حفظتني حفظك الله، وإذا ارتفعت في غير وقتها بغير حدودها رجعت إلى صاحبها سوداء مظلمة تقول: ضيعتني ضيعك الله»[1].

ونفس هذا المضمون ورد في رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام[2] ومن جملة الأمور التي تؤثر سلبياً على قبول الصلاة وغيرها من العبادات أكل الحرام، قال الإمام علي عليه السلام لكميل: «يا كميل اللسان ينزع من القلب والقلب يقوم بالغذاء فانظر فيما تغذي قلبك وجسمك فإن لم يكن ذلك حلالاً لم يقبل الله تسبيحك ولا شكرك»[3].

وهذه الرواية شاملة للصلاة باعتبار اشتمالها على التسبيح ولكونها شكراً عملياً لله سبحانه.

ومن المؤثرات سلبياً على قيمة العمل شرب الخمر، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«خمسة ليس لهم صلاة منهم مدمن الخمر»**[4].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«مَن شرب الخمر لم تُحسب له صلاة أربعين يوماً»**[5].

ومنها: بيع الخمر وشربه.

روي عن الرسول صلى الله عليه وآله قوله: **«مَن شرب الخمر في الدنيا سقاه الله من سم الأفاعي، ومن سم العقارب ألا ومَن باعها أو اشتراها لغيره لم يقبل الله تعالى منه صلاةً ولا صياماً ولا حجّاً ولا اعتماراً حتى يتوب منها»**[6].

---

(١) الكافي ج٣ ص٢٦٨.
(٢) من لا يحضره الفقيه ج١ ص١٣٤.
(٣) تحف العقول ص١٧٥.
(٤) غوالي اللآلىء ج١ ص٢٦٧.
(٥) علل الشرائع ج٢ باب ٥٢ ص٤١.
(٦) عقاب الأعمال ص٣٣٦.

ومنها: منع الزكاة حيث روي عن الرسول ﷺ وأهل بيته عدة روايات تتضمن عدم قبول الصلاة ممن لا يُعطي الزكاة.

منها: ما روي عن الرسول الأعظم ﷺ: «**ثمانية لا يقبل الله منهم صلاة وذكر منهم مانع الزكاة**»(١).

ومنها: عدم إكمال الركوع والسجود في الصلاة حيث روي عن الرسول الأعظم ﷺ قوله: «**إن أخبث الناس مَن سرق من صلاته**» فقيل: فكيف ذلك يا رسول الله؟ قال ﷺ: «**الذي لا يتم ركوعه ولا سجوده**»(٢).

ومنها: ترك صلاة الجماعة زهداً فيها واستخفافاً بها حيث روي عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «**من ترك الجماعة رغبة عنها وعن جماعة المسلمين من غير علة فلا صلاة له**»(٣).

ومنها: ترك جار المسجد صلاته فيه تهاوناً حيث روي عن الإمام علي عليه السلام قوله: «**ليس لجار المسجد صلاة إذا لم يشهد المكتوبة في المسجد إذا كان فارغاً صحيحاً**»(٤).

ومن المؤثرات سلبياً على قيمة الصلاة وأثرها الإيجابي غيبة المسلم حيث روي عن الرسول الأعظم ﷺ قوله: «**مَن اغتاب مسلماً أو مسلمة لم يقبل الله تعالى صلاته، ولا صيامه أربعين يوماً وليلة إلى أن يغفر له صاحبه**»(٥).

---

(١) الخصال ص٤٠٧ ومن لا يحضره الفقيه ج١ ص٣٦.

(٢) كشف الغمة ج١ ص٤٣١ وجامع الأخبار ص٧١.

(٣) الأمالي للصدوق ص٥٧٣.

(٤) قرب الإسناد ص١٤٥.

(٥) جامع الأخبار ص١٤٣.

حضور الذهن وخشوع القلب في الصلاة ودورهما الإيجابي في تحقق غايتها المنشودة:

بعد بلوغنا في رحلتنا الفكرية والروحية إلى ما يقرب من طرف النهاية والانتهاء من حديثنا عن الصلاة وفلسفتها في الإسلام يترجح أن نختم هذا الحديث الممتع بكلمتين متصلتين اتصالاً وثيقاً بموضوع البحث.

الكلمة الأولى: حول موضوع الخشوع والحضور الذهني في إطار الصلاة ودورهما الفعال في تحقق الغاية المنشودة من تشريع وجوبها.

والثانية: حول موضوع سجود الشكر المأتي به بعدها، وما يستفاد منه من الدروس التربوية، ولنبدأ بالحديث حول الموضوع الأول فنقول:

إن لخشوع القلب وحضور الذهن في الصلاة سببه المؤدي إليه ونتيجته المترتبة عليه، أما السبب فهو استحضار صورة العظمة الإلهية التي سمت وسمت إلى أعلى وأرقى درجة في ميزان السمو، ومقياس الرفعة فإن بروز هذه الصورة المعنوية المتألقة بنور العظمة الإلهية، والجلالة الربانية في أفق الكمال الإلهي المطلق وانعكاس نورها المتألق على مرآة نفس المؤمن وخصوصاً حين قيامه بين يدَي الله تعالى في الصلاة يسبب هيمنة هذه العظمة، العظيمة على مشاعره وأحاسيسه لينفعل بها، ويترتب على هذا الانفعال ما يحدث في داخل النفس من الخشية والخشوع، وما يبرز على صفحة الوجه من اصفرار اللون، وما يرافقه في بعض الأحيان ومع بعض الأشخاص من ارتعاد الفرائص واضطراب البدن كما يُروى عن أهل البيت عليهم السلام، وخصوصاً الإمامين المطهَّرين الحسن الزكي وابن أخيه الإمام زين العابدين عليهما السلام.

وقد صرح كل واحد منهما بالسبب الذي اقتضى حدوث حالة الخشية

والخشوع في داخل النفس وبروز اصفرار اللون على ظاهر الوجه، وهو الخوف والرهبة من تلك العظمة الإلهية.

هذا هو حاصل السبب المؤدي لحالة الخشوع للمؤمن حال الصلاة.

وإذا كانت هذه الحالة قوية، وثابتة فهي تتجاوز حدود الصلاة لتنطلق مع المؤمن المصلي، وتجعله دائماً على حالة خوف من الله سبحانه وكأنه يراه وذلك هو سبب حصول التقوى المتمثلة بفعل سائر الواجبات، وترك المحرمات وهذا معنى نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر في حياة المؤمن.

وأما النتيجة المترتبة على ذلك الخشوع فهي ما أشرنا إليه من استمرار المؤمن على تلك الحالة التي تعتريه حال الصلاة ولازم استمراره عليها وبقائها معه، هو أن يبقى على حالة صلةٍ بالله وصلاةٍ له بكل عمل اختياري يمارسه على صعيد هذه الحياة، ويعبّر عن هذه الحالة العبادية المترتبة على تأصُّل صفة العبودية في نفس المؤمن بالعبادة العامة وبالصلاة العامة الناشئة من الصلاة الخاصة التامة، وهي التي يأتي بها المصلي واجدة لكل ما يشترط وجوده فيها واشتمالها عليه في صحتها مع فقدها للموانع المنافية لها ـ أي لصحتها ـ وبذلك كله تكون الصلاة تامة بمعنى أنها صحيحة لا يحتاج المصلي لإعادتها داخل الوقت وقضائها خارجه.

وهذا المعنى من التمامية والكمال للصلاة هو معنى نسبي بمعنى أن الصلاة الواجدة لما يعتبر في صحتها والفاقدة لما يؤدي إلى بطلانها تامة نسبياً أي بالنسبة إلى عدم الاحتياج إلى إعادتها وقضائها.

وأما التامة بالمعنى العام المطلق للتمامية فهي التي يترتب على وقوعها صحيحة الهدف الأسمى والغاية القصوى المتمثلة بالتقوى والاستقامة في خط الشرع وعدم الانحراف عنه مهما كانت الضغوطات أو الإغراءات التي تقتضيه بطبعها.

وقد بيّن الله سبحانه الصلاة التامة المحققة للغاية المقصودة منها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1].

وذلك لأن لازم الاستقامة في طريق الشرع المجيد عدم الانحراف عنه إلى ما ينافيه من ترك واجب أو فعل حرام.

وكذلك بيّن الله سبحانه الغاية الأساسية المقصودة من الصوم وهي التقوى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

وهكذا سائر العبادات فإن الله سبحانه لم يأمر بها لذاتها وصورتها وإنما أوجبها من أجل التوصل بها إلى الهدف الأسمى الذي يلازم الإنسان المؤمن المتعبد، وهو بقاؤه على خط العبودية الخالصة لوجه الله سبحانه ليصبح بذلك كل عمل يمارسه بإرادته وفق إرادة الله سبحانه عبادةً يتقرّب بها إليه زلفى، وقد نبهت على ذلك بأسلوب أوضح وأوسع في الكثير من أبحاث الكتب الثلاثة السابقة على هذا الكتاب وخصوصاً ما كتبته حول موضوع فلسفة العبادة في الإسلام من الجزء الأول من وحي الإسلام صفحة ١٥٦.

الشكر سببه وأقسامه ودوره التربوي في حياة المؤمن الشاكر:

أما سببه فهو الإيمان بمصدر النعمة الحقيقي، وهو الله سبحانه ومن عداه وما عداه مجرد وسيلة اختيارية أو غير اختيارية بيد الإرادة الإلهية والقدرة الربانية، ويصح تقسيمه بلحاظ مراتبه المترتبة إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

القسم الأول: هو الشكر القلبي الباطني المتمثل بالاعتراف بكون النعمة من الله تعالى لقوله سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[1].

القسم الثاني: هو الشكر اللساني الظاهري المتمثل بالنطق بكلمة الشكر والتشكُّر لله سبحانه لتفضُّله بالنعمة.

القسم الثالث: وهو الأهم، هو الشكر العملي ومعناه صرف نعمة الله تعالى في سبيل إطاعته بتأدية واجب أو مستحَب مع ترك صرفها والتصرف بها في سبيل معصيته.

ولكل واحد من هذه الأقسام أثره المترتب عليه، أما الأثر المترتب على الشكر الباطني، وهو الاعتراف، بكون مصدر النعمة هو الله سبحانه، فهو التحرك الإيجابي بمقتضى هذا الاعتراف ويتمثل ذلك غالباً بالنطق بكلمة الشكر والتشكر المعهودة، وهو راجح ومستحب شرعاً لكونه من مصاديق الذكر الذي يذكِّر المنعَم عليه بمصدر نعمته، ويحرك في نفسه الباعث نحو الشكر العملي الذي مرّ بيانه، وأنه أكمل، وأفضل مصاديق الشكر، وأقسامه ولذلك كان متمماً للقسمين الأولين لأنهما إذا تجردا عنه يكونان بحكم المعدوم، وذلك هو الوجه في أمر الله به بعنوانه في بعض آيات كتابه الكريم، منها قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾[2].

والآثار الإيجابية المترتبة على الشكر العملي كثيرة منها زيادة النعمة لقوله سبحانه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[3].

---

(١) سورة النحل، آية: ٥٣.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٣.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

ومنها: دوام النعمة لأن الشكر العملي يقرب العبد الشاكر من الله المنعم المشكور، ويعبر عن كونه أميناً على أمانة النعمة بصرفها فيما يريد الله صرفها فيه من موارد الوجوب، والاستحباب، وذلك يقتضي بطبعه إبقاء صاحب الأمانة ـ وهو الله سبحانه ـ أمانته في يد المؤمن الأمين، وعدم أخذها منه، وعلى العكس من ذلك الشخص الذي يقابل نعمة الله بالكفر القلبي بإنكار كون مصدرها الحقيقي هو الله، ويترتب على ذلك عدم الشكر العملي الملازم غالباً للكفر العملي المتمثل بصرف نعمة الله في سبيل معصيته، والعقوبة المترتبة على ذلك تحصل بسلب النعمة وتبديلها بالنقمة، وقد صرح الله سبحانه بذلك في آخر آية الشكر المتقدمة بقوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(١).

وذلك لأن العذاب الذي هدد به الله سبحانه الكافرَ غير مقصور على عذاب الآخرة بل هو شامل للمعجل منه في الدنيا، وقد حصل ذلك بأوضح صوره مع قارون بسبب كفره القلبي الذي تمثّل بإنكاره كون الثروة المالية الكثيرة حاصلة من الله سبحانه وتوفيقه، وقد عبّر عن ذلك بكل صراحة ووقاحة بقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾(٢).

فعاقبه الله على ذلك معجلاً بما أخبر به حيث قال تعالى:

﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾(٣).

وعلى العكس من ذلك النبي سليمان عليه السلام، حيث شكر الله سبحانه

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٨.

(٣) سورة القصص، الآية: ٨١.

بالشكر القلبي الذي ترجمه، وعبّر عنه بقوله: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾[1].

قد أدرك هذا النبي العظيم أن إعطاء الله له ذلك المُلك الواسع والسلطان الشامل الذي لم يُعطَ لأحد قبله، ولا بعده كان امتحاناً، واختباراً له لتظهر حقيقة إيمانه أمام الآخرين، وأدرك أيضاً أن النجاح في هذا الامتحان الصعب يكون بشكر الله سبحانه على نعمة الملك ابتداء بالشكر القلبي الداخلي الذي تمثل بالاعتراف ومعرفة أن مصدر نعمة الملك وغيرها هو الله تعالى، وقد ترجم ذلك بالاعتراف القولي الذي تمثل بقوله: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ ثم أكمل كلا الشكرين القلبي المستتر والقولي الظاهر بالشكر العملي الذي تحقق بصرفه، وتصرفه بتلك النعمة الواسعة في سبيل مرضاة الله تعالى وبقيامه بوظيفة الشكر على الوجه الأفضل الأكمل وبذلك حصَّل درجة النجاح العالية لينال عليها الجائزة الكبرى المعجلة بإدامة الله سبحانه لتلك النعمة السابغة مع تسجيل موقفه الإيجابي الشاكر من نعمة الله المنعم القادر بأحرف من نور على صفحات كتابه الكريم الخالد.

وأما الجائزة العظمى المؤجلة ليوم الجزاء فجنة عرضها السماوات والأرض أُعدت للمتقين الشاكرين في النعماء والصابرين في الضراء.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٤٠.

سجود الشكر ودوره التربوي:

الحديث المتقدم كان تمهيداً للكلام حول سجود الشكر وما يترتب عليه من الفوائد الروحية ويستفاد منه من الدروس التربوية وهي عديدة أهمها ما يلي:

الأول منها: أن المؤمن الواعي يُدرك بعمق أن كل ما هو حاصل له من النعم والآلاء هو من الله سبحانه لأنه هو سبب الأسباب ورب الأرباب وإن كان هناك سبب له دخل في تحقق النعمة فهو مخلوقٌ له ومهيَّأٌ من قبله تعالى، ويترتب على ذلك خضوعه وخشوعه نفسياً أمام العظمة الإلهية والرحمة الربانية فلا يحصل له غرور وانخداع بالقوة والقدرة الذاتية التي يملكها أو يملكها مَن أعانه على حصول تلك النعم لأن مصدر تلك القدرة هو الله تعالى فإن شاء أبقاها على حالها ليتمكن صاحبها من الاستعانة بها على إدراك ما يريد، وإن شاء أخذها منه ليصبح ضعيفاً بعد القوة وفقيراً بعد الثروة وذليلاً بعد العزة وهكذا.

وبالتفات المؤمن لهذه الحقيقة يدرك أنه ضعيف وفقير وذليل في ذاته وأن ما حصل له ويحصل من النعم والآلاء هو طارىء وعارض له بفضل الله وإعانته، وكذلك بقاؤها له وعدم زوالها عنه راجع إلى فضل الله ورحمته فإن شاء أبقى، وإن شاء أخذ واسترد.

ويُستفاد ذلك كله بوضوح من آية الملك التي يقول الله فيها:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

وبما ذكرنا يُعرف أن فلسفة سجود الشكر لله سبحانه على توفيقه لتحصيل نعمة الإيمان الصادق الذي يثمر لصاحبه العمل الصالح والخلق الفاضل.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

ومن أبرز أنواع العمل الصالح الذي يتوفق المؤمن له ببركة نعمة الإيمان هو عبادة الله وإطاعته بصورة عامة وتأدية فريضة الصلاة بصورة خاصة.

أجل: إن التأمل الواعي فيما ذكرناه بياناً للحكمة المستهدفة من مطلوبية سجود الشكر لله سبحانه بعد فراغه من الصلاة يُوحي بأن الهدف المقصود منه هو أن يحفظ المؤمن بالله الشاكر لنعمته توازنَه وبقاءه في نطاق بشريته الضعيفة في ذاتها المفتقرةِ إلى الإمداد الإلهي، والعون السماوي دائماً وأبداً فلا يتمكن من حصول القوة بعد الضعف والثروة بعد الفقر والسعادة والرخاء بعد البؤس والشقاء والعزة بعد الذلة إلا بفضل الله وإعانته كما أن بقاء ودوام ما حصل له من ذلك وغيره من الآلاء والنعم لا يكون إلا بالعناية الإلهية.

ولهذا وذاك يبقى المؤمن الشاكر في حالة الشعور والإحساس بالفقر الذاتي الذي يلجئه إلى مصدر الخير والعطاء لطلب العون والتوفيق لحصول الهدف المطلوب له والمحبوب لله سبحانه ويبقى على حالة اللجوء بعد حصول مراده من أجل أن يحفظ له الله مطلوبه ويصونه من الزوال، ونتيجة ذلك هي التواضع أمام العظمة الإلهية والغنى المطلق الذي تكون معه الذات الربانية دائماً وأبداً على حالة الاستغناء عن كل شيء مع احتياج كل شيء لها.

ويأتي سجود الشكر لها على ما تفضّلت به وأفاضته من الآلاء رمزاً لذلك الخضوع والشعور بالافتقار الدائم إلى الإله المنعم الدائم فلا يكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾(1).

وقوله تعالى حكاية عن لسان قارون الطاغي:

---

(1) سورة العلق، الآيتان: ٦ و٧.

﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾[1].

الدرس الثاني: الذي يمكن استلهامه من سجود الشكر هو درس في التقوى واستقامة السلوك في خط مرضاة الله تعالى، وذلك لأن السجود لله سبحانه بعنوان كونه تعبيراً عن الاعتراف لله بالنعمة، وهو الشكر الباطني يدفعه لأن يتحول من هذا النوع من الشكر الضعيف إلى الشكر العملي القوي الذي يُنتج له زيادةَ النعمة ودوامَها ودفعَ البلاء عنه وقد أُبرم إبراماً.

وحيث أن الشكر العملي الذي يتمثل بصرف نعمة الله سبحانه في سبيل مرضاته وترك صرفها والتصرف بها في سبيل معصيته يكون مقتضياً بطبعه لبعث الشاكر لله بالسجود نحو إطاعته تعالى مطلقاً مع ترك معصيته دائماً لأن ذلك هو روح التقوى التي تثمر لصاحبها التقرب من الله سبحانه واستعداده لإفاضة النعمة عليه من قبله وحفظها له بعد حصولها مضافاً إلى دفع البلاء كما مرّ بيانه.

ويستفاد ذلك بوضوح من قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[2].

الدرس الثالث: هو درس تربوي يوحي للمؤمن الساجد لله شكراً بالشعور والإحساس بالقرب من الرحمة الإلهية والعناية السماوية على ضوء ما ورد في فضل السجود وأن العبد يكون أقرب ما يكون إلى ربه حال سجوده.

ونتيجة هذا الشعور الواعي هي حفظ التوازن والبقاء على حالة الثقة برحمته تعالى في حالة النعمة بالشكر له تعالى عليها، وفي حالة الشدة باللجوء إليه بالتضرع والدعاء لينال بذلك إحدى الحسنيين، وهما استجابة الدعاء بكشف الشدة والبلاء ليقابل ذلك بالشكر، وينال ثوابه أو تأخر

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

الاستجابة إلى مستقبل الدنيا أو مستقبل الآخرة لينال ثواب التضرُّع والدعاء مع ثواب الصبر على البلاء والرضا بالقدر والقضاء مترجماً ذلك بما ورد في دعاء الافتتاح على لسان الإمام المهدي (عجل الله فرجه): «**ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور**».

وحيث أن القيام بتأليف هذا الكتاب لغرض خدمة الإسلام والمسلمين يعتبر عبادةً وصلاةً له سبحانه بالمعنى العام للعبادة والصلاة، فأنا أقدم له تعالى كلمة الشكر والثناء لتفضله عليّ وإحسانه إلي بالتوفيق لإنجازه مع سجدة الشكر الجزيل والثناء الجميل راجياً منه سبحانه التفضل والإعانة على إنجاز ما أنا عازم عليه، وراغب فيه من تأليف عدة كتب حول عدة موضوعات إسلامية ثقافية وتربوية مستهدفاً بها ترسيخ العقيدة الصحيحة في قلوب أبناء الجيل الجديد لتثمر لهم الأعمال الصالحة والتجمل بالأخلاق الفاضلة وتحقيق الغاية الكبرى المقصودة من خلق الله تعالى الكون ومَن فيه من الجن والإنس وهي عبادته وحده لا شريك له لقوله سبحانه:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(١).

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

حسن طراد

وقع الفراغ من تأليفه صباح يوم الخميس ١٤٢٢/٥/٥هـ

الموافق ٢٠٠١/٧/٢٦م

والله ولي التوفيق

سيكون الكتاب القادم بعون الله وتوفيقه بعنوان:

«دروس تربوية من وحي النهضة الحسينية».

---

(١) سورة الذاريات. الآية: ٥٦.

الفهرست

تقديم وتمهيد ٥

الفصل الأول

أهمية النظافة في التشريع الإسلامي

حول الغسل ٣٨
الحكمة الكامنة في إيجاب غسل الحيض والنفاس والاستحاضة: ٣٨
فلسفة غسل الجنابة: ٤٢
فلسفة غسل مس الميت البشري: ٤٤
فلسفة الوضوء وآثاره الإيجابية في الحياة الصحية: ٤٤
فائدة السواك الصحية: ٤٥
فائدة المضمضة والاستنشاق الصحية: ٤٦
فلسفة التيمم ودوره في الصحة البدنية والنفسية: ٤٧
فلسفة اشتراط طهارة البدن والثوب وموضع السجود في صحة الصلاة: ٤٩
الطهارة الباطنية المعنوية متممة أو مكملة للطهارة الظاهرية المادية: ٥٥
فلسفة الإتيان بالأذان والإقامة قبل الصلاة: ٦٢
(حي على الصلاة) نداء لكل كيان الإنسان للوفود على الرحمٰن: ٧٥

الفصل الثاني

في أجزاء الصلاة وما يعتبر في صحتها

فلسفة تكبيرة الإحرام ودورها التربوي في حياة الإنسان: ١٠٣
القراءة ودورها التربوي في حياة المصلي ١١٩
الاستعاذة من الشيطان ودورها في السلامة من شره: ١٢٠
الكلام حول سورة الفاتحة وما يستفاد منها من الدروس التربوية: ١٢٧
تربية الله التكوينية للعالمين عامة وللإنسان خاصة: ١٢٩
استدراك ١٤٣
التربية التشريعية ودورها في سعادة البشرية: ١٥١
تفسير سورة التوحيد ١٨١
تفسير سورة القدر باختصار ١٨٢
حديث من وحي ليلة القدر: ١٨٤
فلسفة استقبال القبلة والتستر حال الصلاة ١٩٢
فلسفة القنوت ودوره التربوي في حياة المؤمن ١٩٣
ذكر الله سبحانه وتسبيحه ودورهما التربوي في حياة المؤمن: ٢٠٤
فائدة ذكر اللّه حال الابتلاء بالمصيبة: ٢١٢
فائدة ذكر اللّه سبحانه حال الطاعة والمعصية: ٢١٤
فائدة ذكر اللّه سبحانه حال الرضا والغضب: ٢١٤
التسبيحات الأربع ودورها التربوي: ٢١٦
الإنسان عاجز عن الشكر الحقيقي للّه وكل ما يمكن صدوره منه

هو اعترافه بعجزه عنه ٢٢٦
التسبيح والسجود والصلاة للرحمٰن غير مختصة بالإنسان: ٢٢٧
كلمة لا إله إلا اللّه توحيد في العقيدة يتممه التوحيد في العبادة: ٢٣١
توحيد اللّه في العبادة الحاصلة في إطار الفرد ٢٣٥
توحيد اللّه في عبادته ضمن إطار الأسرة: ٢٣٦
توحيد اللّه بعبادته ضمن إطار المجتمع: ٢٣٦
الركوع ودوره التربوي في حياة المصلي: ٢٣٧
الدرس التربوي المستفاد من الركوع الصلاتي: ٢٤١
السجود ودوره التربوي في سلوك المؤمن المصلي: ٢٤٨
التشهد وفضله الأخروي ودوره التربوي: ٢٥٥
بيان الوجه في أهمية الصلاة على النبي وآله: ٢٦١
التسليم نهاية للصلاة الخاصة وبداية للصلاة العامة: ٢٦٣
الدروس التربوية المستفادة من التسليم الصلاتي: ٢٦٦
دور الصلاة الإصلاحي في حياة الفرد: ٢٦٧
دور الصلاة الإصلاحي في إطار الأسرة: ٢٦٧
دور الصلاة الإصلاحي في إطار المجتمع: ٢٦٩

الفصل الثالث

معقود للحديث حول التعقيبات المستحبة

التعقيبات الصلاتية الخاصة: ٢٧٦
تسبيح الزهراء كيفيته وفضله وثوابه: ٢٧٨

التعقيب العام المتمم للتعقيب الخاص: ٢٨٠
وجوب حفظ الحسنات من إحراقها بنار السيئات: ٢٨٣
بعض الصلوات المستحبة: ٢٨٤
صلاة الليل ٢٨٤
كيفية صلاة الليل: ٢٨٦
صلاة أول الشهر ٢٨٨
صلاة كل عام ٢٨٩
صلاة لزيادة الرزق ٢٨٩
صلاة أخرى لزيادة الرزق ٢٩٠
صلاة أخرى لسعة الرزق ٢٩٠
صلاة أخرى لزيادة الرزق ٢٩٠
وسائل أخرى لسعة الرزق وقضاء الحاجة ٢٩١
قراءة الذاريات والطلاق والمزمل وألم نشرح: ٢٩٢
أدعية مأثورة ومجرَّبة في سعة الرزق وأداء الدَين: ٢٩٣
ما جرب لعلاج الحمى على اختلاف أنواعها: ٢٩٨
دعاء لرفع وجع الرأس: ٢٩٩
دعاء آخر لوجع الضرس: ٣٠٠
مجربات للشفاء من وجع العين وضعفها ولزيادة نور البصر: ٣٠٠
دعاء مأثور ومجرَّب لقضاء الحوائج ودفع الشدائد: ٣٠٦
صلاة ودعاء لقضاء الدَين: ٣٠٦
مجربات لقضاء الحاجات والخلاص من الشدائد: ٣٠٧
النذر إلى بلال الحبشي مجرب لقضاء الحاجة: ٣١٠

ما يساعد على تحقق غاية الصلاة وحفظها بعد حصولها: ٣١١
الأمور التي تؤثر سلباً على أثر الصلاة ودورها الإيجابي: ٣١٦
حضور الذهن وخشوع القلب في الصلاة ودورهما الإيجابي
في تحقق غايتها المنشودة: ٣١٨
الشكر سببه وأقسامه ودوره التربوي في حياة المؤمن الشاكر: ٣٢١
سجود الشكر ودوره التربوي: ٣٢٤